جامعة طرابلس

كلية الشريعة

قسم القرآن والسنة



بحث بعنوان

الضعف البشري في القرآن الكريم

أسبابه وعلاجه

"دراسة موضوعية"

إعداد الطالب

شادي أحمد حلاق

إشراف الأستاذ الدكتور

رمضان خميس زكي الغريب

قدمت هذه الرسالة لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن

١٤٤١هـ -٢٠٢٠م



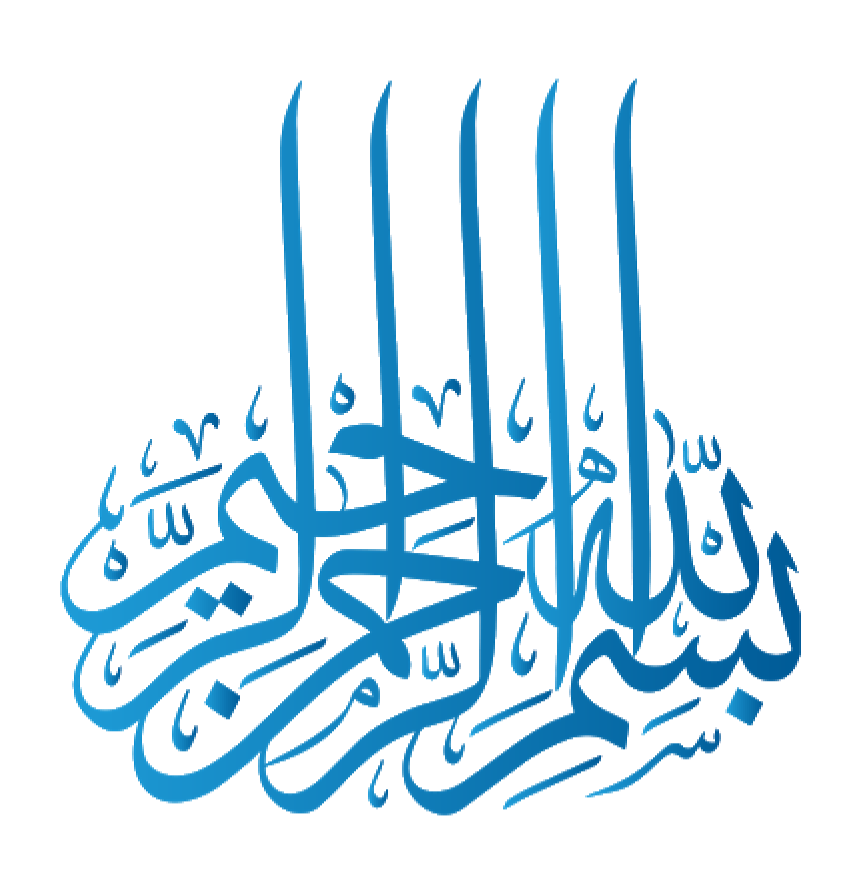


Human weakness in the Holy Quran, reasons and remedies

(objective study)

Researcher: Shadi Ahmad Hallak

Supervisor: Dr. Ramadan Hamis Al-Ghraib


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ
ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا
يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ الروم: ٥٤

الإهداء

- إلى صاحب الخلق العظيم، والنبي المرسل الصادق الوعد الأمين، الذي أنزل عليه القرآن المجيد، فهدانا الله به إلى الصراط القويم، محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

- إلى روح والدي الكريم الذي تعلق بالقرآن الكريم وحبّبه إليّ، وزرع في قلبي حب العلم والعلماء.

- إلى صاحبة القلب الحنون، والدعاء الدائم لي، قرة عيني ومهجة فؤادي، التي شجعتني على طلب العلم وصبرت على فراقي "أمي الغالية".

- إلى زوجتي ورفيقة دربي التي تحملت معي عناء السفر والترقب والانتظار، وإلى أولادي أحمد وفاطمة وحمزة، نور الله قلوبهم بنور القرآن، وحفظهم من كيد الشيطان.

- إلى إخوتي وأخواتي وجميع أقاربي وجيراني ومن يهمهم أمري.

- إلى كل من جمعتني بهم لحظة وداد ممن أحبوني وأحببتهم، وممن علّموني وعلّمتهم.

- إلى شهداءنا الأطهار وإلى مجاهدينا الأخيار، الذين قاوموا الطواغيت والفجار، وأبوا الذلة والصغار.

. إلى المستضفين في الأرض المتشوفين لنسائم الحرية .

- إلى إخواني وأحبائي في طريق الدعوة والعلم.

- إلى أعلام الهدى ومصابيح الدجى من العلماء الربانيين والدعاة الصادقين.

إلى هؤلاء جميعًا أهدي هذا البحث المتواضع، راجيًا من الله العلي الكبير أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

شكرٌ وتقدير

انطلاقًا من قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: ٧]، أتوجه إلى الله الكريم بالحمد والشكر والثناء، على ما أنعم به عليّ بأن أكرمني باللحاق في ركب الباحثين في جواهر كتابه العزيز. سائلًا المولى عز وجل أن يفيض عليّ من علومه وفيوضاته خدمةً لكتابه المجيد.

وانطلاقًا من قوله عليه الصلاة والسلام: "مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ"[١] فإني أتقدم بخالص الشكر والعرفان والتقدير للأستاذ الدكتور: رمضان خميس زكي الغريب، على ما بذله من جهدٍ وتوجيهات ونصائح نيرة، وعلى ما لقيت منه من حسن المتابعة والمعاملة الطيبة، إذ لم يأل جهدًا في إرسال توجيهاته ونصائحه ولمساته الرائعة رغم تباعد الديار.

كما أني أتوجه بالشكر والعرفان إلى الكادر الإداري والتدريسي في أكاديمية بناء، وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور جمال عبد الستار، والأستاذ الدكتور وصفي عاشور أبو زيد، الّلذين لهما الفضل بعد الله في التوجيه والتربية والتحصيل.

وأشكر إخواني الذين هيؤوا لي فرصة الالتحاق بفرصة الدراسات العليا التي كنت أحلم بها ولا سيما في ظل الظروف التي تمر بها سوريا الحبيبة.

كما أشكر زملائي وإخواني طلاب العلم الذين لم يبخلوا عليّ بنصائحهم وتوجيهاتهم وإرشاداتهم المفيدة.

١ – سنن الترمذي: مُحَمَّد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) ت: أحمد مُحَمَّد شاكر ومُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، باب ماجاء في الشكر لمن أحسن إليك، ٣٣٩/٤. قال أبو عيسى الترمذي :هذا حديث حسن صحيح .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، وصلى الله على المبعوث رحمةً للعالمين سيدنا مُحَمَّد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فإن أشرف العلوم على الإطلاق، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق، وأرفعها قدرًا بالاتفاق علوم القرآن الكريم[1]، وإنه مما لا شك فيه أن كل مؤمن تتوق نفسه إلى أن يبحث في كتاب الله – عز وجل – وأن يكتشف من هداياته ومضامينه وكنوزه المنتشرة في صفحاته النيرة، حيث إن كل موضوعات القرآن بالغة الأهمية، عظيمة الأثر، جليلة النفع، وذلك أن من أعظم مقاصد القرآن وغاياته: إرشاد البشرية إلى طريق الهداية والنور والاستقامة والسعادة.

وهذا القرآن إنما أنزله الله تعالى ليكون منهاج حياة لهذا الإنسان، فهو منهاج الله الذي يشخّص الأدواء التي يتعرض لها البشر ثم يصف العلاج والدواء، وذلك أنه كلام ومنهاج العليم الخبير، الذي يعلم ما يصلح البشرية وما يفسدها، {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤].

ثم إن من الموضوعات المهمة الجديرة بالبحث والاستقراء والاستقصاء والتتبع والتحليل، موضوع الضعف البشري، ولاسيما وأن الله ركب الإنسان على حالة الضعف وجعل هذا الضعف من أهم خصائصه، بل وجعله سمة ملازمة له كما ذكر البيان الإلهي: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨].

فهو ضعيف من جميع الوجوه: ضعيف البنية، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف القوة، ضعيف الصبر، ضعيف في مواجهة الظروف والطوارئ والأحداث، ضعيف أمام الآيات الكونية والتكوينية، ضعيف أمام ميوله وأهوائه وغرائزه، ضعيف أمام الأوامر والنواهي. ثم إن هذا الضعف في هذا البشر منه ما هو فطري في أصل خلقته، ومنه ما هو طارئ مكتسب،

---

١ – فتح القدير: مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١– ١٤١٤ هـ–، ١٣/١

فالضعف الفطري هو وسيلة لدفعه إلى الاعتصام بحبل الله، وهو أعظم وسيلة للإقبال على الله، لأن الإنسان لو خلق قويًا لاستغنى بقوته عن الله، فشقي باستغنائه عن الله.

وأما الضعف الطارئ المكتسب فيمكن دفعه قبل أن يقع، أو رفعه ومعالجته بعد وقوعه، وهو من صنيع الإنسان إذا ابتعد عن هدى الله، أو غفل عن مهمة وجوده، أو فرط في الأخذ بالأسباب المادية أو المعنوية، ولم يفقه سنن الله في الوجود.

ثم إن حال أمتنا اليوم هو حال ضعف وذل ومهانة في شتى المجالات وعلى كافة المستويات، وإن الأمة في حالها هذه لهي تتطلع إلى سبيل النجاة والخلاص من هذا الواقع المتردي الذي تعيش فيه، ولن تجد سبيل ذلك ما لم ترجع إلى كتاب ربها فتعرض أدواءها وأخطارها على منهج ربها، ثم تستخلص العلاج من هذا المنهج الذي خط الله فيه سبيل العزة والكرامة والقوة والسؤدد، حتى تعود إلى القوة بعد الضعف، وإلى العزة والكرامة بعد الذل والمهانة.

ومن هنا أحببت أن يكون لي سهم ونصيب في الكشف عن مظاهر الضعف البشري وأسبابه والتعرف على أنواعه من خلال القرآن الكريم، ثم أتحسس العلاج لهذا الضعف في ضوء القرآن الكريم، حيث إنني لم أطلع على كتابة علمية مستقلة تجمع شتات الموضوع وتجعله في رسالة مستقلة واحدة ليتسنى للقارئ الاستفادة منها، وتوفر عليه الوقت الذي يحتاج أن يرجع في كل عنصر من عناصره إلى بطون العلم المتفرقة والمطولة؛ لأنه ومن خلال التفسير الموضوعي نستطيع أن نخرج بتصور شامل وكامل للموضوع الواحد، وذلك يمنع الأفراد والمجتمعات من الفهم المحدود والقاصر للموضوع.

هذا وأسأل الله المولى العليم الحكيم أن يوفقني ويسددني ويتقبل مني هذا العمل المتواضع، وأن يكون خطوة في خدمة البشرية على وجه العموم والأمة الإسلامية على وجه الخصوص.

سبب اختيار الموضوع

وقد كان لاختيار هذا الموضوع أسبابٌ كثيرة أذكر أهمها:

١- افتقار المكتبة الإسلامية إلى رسالة علمية محكمة، تتناول هذا الموضوع من جوانبه المختلفة في إطار دراسة تفسيرية متخصصة، والرغبة في المساهمة بإخراج هذا الموضوع القرآني ليشكل مع غيره من الموضوعات موسوعة شاملة في الموضوعات القرآنية.

٢- الرغبة في مواصلة البحث في التفسير الموضوعي من خلال أحد الموضوعات المهمة، ألا وهو الضعف البشري في القرآن الكريم.

٣- لتعلق هذا الموضوع بواقع الأمة المرير، وما تعانيه من ظلم صريح، وضعف وذل واضطهاد وإهانة.

٤- أن طبيعة هذا العصر وما تموج به من أحداث وفتن وشبهات، تستوجب على طلبة العلم - المتخصصين في الدراسات الموضوعية - إخراج الموضوعات القرآنية بالبحث والدراسة، لتكون زاد الدعاة والمصلحين، ولتشكل سلاحًا ماضيًا يمكن استعماله في وجه هذه الهجمة الشرسة، وأذنابها من الكفرة والمستشرقين، على ثوابت الإسلام وحقائقه.

٥- بيان المنهج القرآني في علاج قضايا النفس البشرية وأهمها قضية الضعف البشري.

٦- إرشاد البشرية إلى المعين الأول والأقدس في جميع قضاياها.

منهجية البحث

اتبعت أثناء كتابتي لهذا البحث مرتكزات مناهج البحث العلمي المتبعة في كتابة الرسائل الجامعية، وكان من أبرز تلك المرتكزات الأمور الآتية:

سيعتمد الباحث بمشيئة الله تعالى على المنهج الاستقرائي الموضوعي وذلك حسب منهجية التفسير الموضوعي من خلال .

١- جمع الآيات التي تتعلق بموضوع الضعف ونظائره ومرادفاته ومقابلاته، وتقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة منتزعة من الآيات ذاتها، ثم رد الآيات إلى عناصرها ومواضعها من البناء الكلي للموضوع، ودراسة أقوال أهل التفسير - السابقين منهم والمتأخرين - لآيات موضوع الدراسة، ونقل ما يتناسب منها مع مواضيع وعناوين الدراسة والبحث.

٢- الاستشهاد بالأحاديث الصحيحة على شكل شواهد لتدعيم أفكار وموضوعات الدراسة والبحث، حيث إن مهمة السنة بجانب القرآن الكريم هي التوضيح والتفسير والبيان، مصداقًا لقوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: ٤٤].

وكانت منهجيتي مع السنة النبوية الاستدلال بالأحاديث النبوية وخاصة الصحيح منها مع عزوها إلى مصادرها ، مع الحكم على الأحاديث من غير الصحيحين ،وذلك بنقل حكم العلماء عليها ما أمكن .

٣- الاستعانة بالدراسات الإنسانية والنفسية والتربوية والاجتماعية والفكرية، فيما يخدم مجال البحث، بحكم صلة هذا الموضوع بشكل مباشر بالإنسان وما يعتريه من عوامل الضعف.

٤- توثيق النقول توثيقًا علميًا، والعمل على إرجاع المعلومات وعزوها إلى قائليها وذلك من باب الأمانة العلمية.

٥- توثيق الآيات القرآنية في متن الرسالة تجنبًا لإثقال الحواشي.

٦- ذكر اسم الكتاب مع مؤلفه عند الورود الأول للكتاب، ثم الاقتصار على اسم الكتاب على الأغلب عند إعادته.

٧- ذكر تراجم العلماء غير المشهورين.

٨- الاستعانة بالكتب والرسائل ذات العلاقة بهذا الموضوع، القديم منها والمعاصر مع الاستفادة من الدراسات والمجلات ذات الصلة كلما دعت الحاجة.

أهداف البحث وغايته

مما يهدف إليه البحث هذه الأمور:

- ابتغاء مرضاة الله تعالى أهم هدف وأسمى غاية أرجوها من كتابة هذا البحث بإذن الله.

- الوقوف من خلال هذه الدراسة على لون من ألوان التفسير الحديث، ألا وهو التفسير الموضوعي... ومحاولة المساهمة بالنهوض في هذا اللون من ألوان التفسير من خلال الاهتمام بموضوعات القرآن الكريم.

- المساهمة في معرفة النفس البشرية وأحوالها، وما يتعلق بها، ثم التعرف على طرق ومنهجية علاجها من خلال القرآن الكريم.

- المحاولة الجادة في حصر حالات الضعف في الكائن الإنساني.

- السعي في تقديم الحلول والعلاجات المناسبة للضعف البشري من خلال الاستقراء لمنهجية القرآن في التعامل مع هذا الجانب.

- بيان روعة القرآن الكريم في رفع الضعف عن الناس.

الفصل الأول

مفهوم الضعف البشري، اشتقاقاته، نظائره ومرادفاته، مقابلاته، سياقاته وروده في القرآن

سنستعرض في هذا الفصل إن شاء الله مفهوم الضعف البشري في اللغة والاصطلاح، ثم ننظر إلى اشتقاقات الضعف وصيغه التي وردت في القرآن وهي كثيرة ومتنوعة، ثم ننتقل في المبحث الثالث إلى سياقاته المتعددة، وفي المبحث الرابع نستعرض أهم نظائر الضعف ومرادفاته ومن ثم نتعرف على أبرز مقابلاته في المبحث الخامس، وبالتالي فإن هذا الفصل قد قسم إلى خمسة مباحث وهي:

المبحث الأول: مفهوم الضعف البشري.

المبحث الثاني: اشتقاقات الضعف في القرآن الكريم.

المبحث الثالث: الضعف في السياق القرآني.

المبحث الرابع: نظائر الضعف ومرادفاته في القرآن الكريم.

المبحث الخامس: مقابلات الضعف في القرآن الكريم.

المبحث الأول
مفهوم الضعف البشري في القرآن الكريم

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: **المعنى اللغوي للضعف.**

المطلب الثاني: **المعنى اللغوي والاصطلاحي للبشري.**

المطلب الثالث: **المعنى الاصطلاحي للضعف.**

المطلب الأول
المعنى اللغوي للضعف

الضعف في اللغة يدل على معنيين، يقول ابن فارس اللغوي رحمه الله: (الضاد والعين والفاء أصلان متباينان، يدل أحدهما على خلاف القوة، ويدل الآخر على أن يزاد الشيءُ مثلَه. فالأول: الضَعف والضُعف، وهو خلاف القوة. يقال ضعف يضعف، ورجل ضعيف وقوم ضعفاء وضعاف. وأما الأصل الآخر فقال الخليل: أضعفت الشيء إضعافا، وضعفته تضعيفا، وضاعفته مضاعفة، وهو أن يزاد على أصل الشيء فيجعل مثلين أو أكثر).[١]

ويقال: (الضَّعف بالفتح في العقل والرأي، والضُّعف بالضم في الجسد، ويقال: هما لغتان جائزتان في كل وجه).[٢]

---

١ - معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ط: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ٣٦٢/٣.

٢ - كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي: دار ومكتبة الهلال، ت: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، ص٢٨١/١.

وروي عن ابن عمر أنه قال قرأت على النبي ﷺ الله الذي خلقكم من ضعف فأقرأني: {من ضُعف} بالضم.[1]

وقرأ عاصم وحمزة {وَعَلِمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعْفًا...} [الأنفال: ٦٦] بالفتح، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر والكسائي بالضم. وقوله تعالى: {وَخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] أي يستميله هواه. والضَّعَف بفتح العين: لغةٌ في الضَّعْف عن ابن الأعرابي وأنشد:

ومن يلق خيرًا يغمز الدهر عظمَه   على ضَعَفٍ من حاله وفتور

؛ فهذا في الجسم. وأنشد في الرأي والعقل:

ولا أشارك في رأي أخا ضَعَفٍ   ولا ألين لمن لا يبتغي ليني

وقد ضعف يضعف ضعفًا وضعفًا فهو ضعيف، والجمع ضعفاء وضعفى وضعاف وضَعَفةٌ وضَعَافى، ونسوةٌ ضعيفات وضعائف وضعاف، قال:

لقد زاد الحياة إلي حبًا   بناتي إنهن من الضعافِ

وأضعفه وضعّفه: صيره ضعيفًا، واستضعفه وتضعّفه: وجده ضعيفًا فركبه بسوء).[2]

وأضعف الرجلَ: جعله ضعيفًا، وأضعف الشيء: جعله ضعفين، وقال ابن عباد: رجل مضعف: إذا فشت ضيعته وكثرت، وأُضعِفَ القومُ: أي ضوغف لهم. وأضعِفَ الرجلُ: ضعفت دابته، ومنه حديث النبي – ﷺ – أنه قال في غزوة خيبر: من كان مضعِفًا أو مصعِبًا فليرجع[3]: أي ضعيف البعير أو صعبه. وقال عمر – رضي الله عنه –: المضعف أمير على أصحابه: يعني في السفر لأنهم يسيرون بسيره.[4]

---

١ . أخرجه الترمذي وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ فُضَيْلِ بْنِ مَرْزُوقٍ» ،ط:٥،٢/١٨٩.

٢ . لسان العرب: ابن منظور، دار صادر– بيروت ط: ١، ٩/٢٠٣.

٣ . بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: أبو مُحَمَّد الحارث بن مُحَمَّد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة (المتوفى: ٢٨٢هـ) ، المنتقي: أبو الحسن نور الدين ابن أبي بكر الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧ هـ) ، ت: د. حسين أحمد صالح الباكري ،مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة ، ط:١ : ،١/٣٧٤.

٤ – شرح السنة: محيي السنة، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)

وضعفه تضعيفًا: أي عدة ضعيفا، وضعّفت الرجل أو الحديث: نسبته إلى الضعف. وقال ابن عباد: أرض مضَعّفَةٌ: أصابها مطر ضعيف. واستضعفه؛ عده ضعيفا، قال الله تعالى: {إلا المستضعفين}. وكذلك تضعفه[1]. ومنه حديث النبي ﷺ – لأبي هريرة رضي الله عنه –: "ألا أنبئك بأهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: كل ضعيف متضَعَّفٍ ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره"[2]، وفي حديث إسلام أبي ذر – رضي الله عنه – أنه قال: "فانطلقت فتضعفت رجلًا من أهل مكة فقلت: أين هذا الذي تدعونه الصابئ؟ فمال علي أهل الوادي بكل مدرة وعظم وحجر"[3].

وقيل مضاعفة من الضَعف لا من الضِعف، ومعناه ما تعدونه ضِعفًا هو ضعف، أي نقص، كقوله: {وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ [الروم: ٣٩]، وقوله: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ} [البقرة: ٢٧٦]. ومن هذا أخذ بعض المحدثين:

زيادة شيب وهي نقص زيادتي   وقوة جسم وهي من قوتي ضعف.[4]

وضعف ضعفًا هزل أَو مرض وَذَهَبت قوته أَو صِحَّته، والضّعْفَة: ضعفُ الْفُؤَاد وَقلة الفطنة والضعوف: الشَّديد الضَّعِيف، ومنه الضعيف: المرأة والمملوك وبه فسر الحديث "اتقوا الله في الضعيفين").[5]

ت: شعيب الأرنؤوط–محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، ط: ٢، ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م، ١١ /٣٥.

١ – العباب الزاخر: الصاغاني: (المتوفى: ٦٥٠هـ) موقع الوراق http: //www.alwarraq.com، ١/٤٥٩.

٢ – الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ط١: ١٤٢٢هـ–، ٦/١٥٩.

٣ . أخرجه الإمام مسلم في كتابه المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ،ت: محمد فؤاد عبد الباقي ،دار إحياء التراث العربي – بيروت ٤/١٩١٩.

٤ – تفسير الراغب الأصفهاني: الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) ت: د. محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١: ١٤٢٠ هـ– ١٩٩٩ م، ٣/٨٥١.

٥ – شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠، (٧/٤٧٧).

وفي مصطلح الحديث: ما كان أدنى مرتبة من الحَسَن لأمر ما.[1]

ويقال أضعف الرجل، إذا أهزل، أي هزلت أمواله وضعفت.[2]

فمن خلال هذا التطواف في معنى الضعف وجدت أن الضعف هو لفظ عام يدور في فلكه الكثير من المعاني والألفاظ والتي تشمل النقص والعجز والهزال والحاجة والقلة والذلة وغيرها من المعاني.

والأمر الثاني: أن حفصًا لم يخالف عاصمًا إلا في قراءة واحدة في القرآن وهي قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ} [الروم: ٥٤] فقد رواها عن شيخه بالفتح وعن غير شيخه بالضم فقد روي عن حفص أنه قال: ما خالفت عاصمًا في شيء من القرآن إلا في هذا الحرف.[3]

---

١ – المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفي – أحمد الزيات – حامد عبد القادر – مُحَّد النجار، دار النشر: دار الدعوة تحقيق / مجمع اللغة العربية، ٥٤٠/١

٢ – الاضداد في كلام العرب: أبي الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (٣٥١ ه)، ت: د.عزة حسن، ط: ٢، دمشق – دار طلاس، ١٩٩٥، ٢٨٧

٣ – ينظر في كتاب سراج القارىء المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي وبذيله غيث النفع (وهو شرح منظومة حرز الأماني ووجه التهاني للشاطبي): أبو القاسم (أو أبو البقاء) علي بن عثمان بن مُحَّد بن أحمد بن الحسن المعروف بابن القاصح العذري البغدادي (المتوفى: ٨٠١هـ)، راجعه شيخ المقارئ المصرية: علي الضباع، مطبعة مصطفي البابي الحلبي — مصر، ط: ٣، ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤ م، ٣٢١.

المطلب الثاني

المعنى الاصطلاحي للضعف

عرف الضعف في الاصطلاح بكثير من التعريفات وقد نقل المناوي رحمه الله في كتابه التعريفات بعض تعاريف أهل العلم فمن هذه التعريفات: وهن القوة حسًا أو معنًى، وعرف الضعف أيضًا بأنه: خلاف القوة، ويكون في النفس وفي البدن وفي الحال.[1]

ويعرف ابن عاشور –رحمه الله– الضعف بأنه: (عدم القدرة على الأعمال الشديدة والشاقة ويكون في عموم الجسد وفي بعضه).[2] ويعرف الضعف أيضًا بقوله: (والضعفاء: جمع ضعيف وهو الذي به الضعف وهو وهن القوة البدنية من غير مرض).[3] وقال الرازي: (هو اختلال القوة والقدرة بالجسم).[4]

من خلال ما تقدم يتبين أن الملمح المميز في دلالة الضعف: أن الضعف في الشيء قد يكون أصليًا وقد يكون طارئًا عليه، وعليه يمكن تعريف الضعف أنه: (صفةٌ أصلية أو طارئة على الشيء تقابل القوة). ويرد في القرآن الكريم بالمعنيين، فمن الضعف ابتداءً قوله تعالى: {وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨]. ومن الضعف الطارىء قوله تعالى: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا} [آل عمران: ١٤٦].

---

١ . التوقيف على مهمات التعريف للمناوي: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ): عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت–القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م، ٢٢٣

٢ – التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ– ١٠/٧٠.

٣ – التحرير والتنوير: ابن عاشور ١٠/٢٩٤

٤ – مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: فخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣– ١٤٢٠ هـ–: ٩/٣٨١.

واجتمعا في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم ٥٤] فالضعف الأول هو ضعف ابتداء، والضعف بعد الكبر هو ضعف بعد قوة، فهو ضعف طارىء.

المطلب الثالث

المفهوم اللغوي والاصطلاحي لِلَفظ: "البشري":

إن كلمة البشر لها دلالاتها فهي تعبر عن الذات وقد تعبر عن الحال وما ينتج عن الذات، وإلى ذلك أشار ابن فارس رحمه الله تعالى فقال: (الباء والشين والراء أصل واحد: ظهور الشيء مع حسن وجمال. فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، ومنه باشر الرجل المرأة، وذلك إفضاؤه ببشرته إلى بشرتها. وسمي البشر بشرًا لظهورهم. والبشير الحسن الوجه. والبشارة، الجمال. قال الأعشى[١]:

ورأت بأن الشيب جا نبه البَشَاشة والبَشَاره)[٢]

والبَشَر: الخَلق، يقع على الأنثى والذكر، والواحد والاثنين والجمع، لا يثنى ولا يجمع، يقال هي بشر، وهو بشر، وهما بشر، وهم بشر، كذا في الصحاح. وفي المحكم: البشر محركة:

---

١ .. الأعشى: هو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل ويكنى أبا بصير وهو من بني بكر بن وائل، من شعراء الجاهلية وأحد اصحاب المعلقات.

ولد في قرية منفوحة باليمامة ، ووفد على كثير من الملوك ولاسيما ملوك فارس، ولذلك كثرت الألفاظ الفارسية في شعره، وعاش عمراً طويلا، وأدرك الاسلام ولم يسلم، وعمي في أواخر عمره،

وتوفي في منفوحة ،من آثاره: ديوان شعر.

ينظر : طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي ،دار المدني- جدة، ت : محمود محمد شاكر،٥٢/١، مختصر تاريخ دمشق: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) ،ت: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا ،ط:١ ،٥٦/٢٦، الأعلام للزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) ،دار العلم للملايين ، ط:١٥، ٢٠٠٢ م ،٣٤١/٧.

٢ – مقاييس اللغة: ابن فارس ٢٥١/١.

الإنسان، ذكرا أو أنثى، واحدا أو جمعا، وقد يثنى، وفي التنزيل العزيز: {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} [المؤمنون: ٤٧] ويجمع أبشرًا، قياسًا. وفي المصباح: لكن العرب ثنّوه ولم يجمعوه.

وعبر عن الإنسان بالبشر اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر.[١]

وبالتالي هناك قدر مشترك بين لفظ البشر وكلمة البشرة التي هي ظاهر جلد الإنسان وذلك من خلال الاستقراء لبعض الآيات في القرآن الكريم.

فقد خص في القرآن كل موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر، نحو: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا} [الفرقان/ ٥٤]، وقال عز وجل: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ} [ص/ ٧١] {وَقُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَرًا إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} [يوسف: ٣١].

ولما أراد الكفار الغض من الأنبياء اعتبروا ذلك فقالوا: {إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ} [المدثر: ٢٥]، وقال تعالى: {أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ} [القمر: ٢٤]، {مَآ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} [يس: ١٥]، {أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} [المؤمنون/٤٧].[٢]

ثم إن هذا القدر الذي استقريناه من الآيات مع آيات أخرى يبيّن لنا أن كلمة بشر تدل على الكائن الهالك، الذي من شأنه أن يفنى ويموت.

وكذلك البشرة (هي ظاهر جلد الإنسان التي مصيرها الفناء، وهي قبل أن تفنى يصيبها التلف، وهي تتفسّخ بعد الموت وهذا هو الفناء والهلاك. أقول: ومن هنا كان لي أن أذهب إلى أن البشر هوالكائن الفاني).[٣]

---

١ – ينظر تاج العروس: الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية١٠/١٨٣، والعين: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، دار ومكتبة الهلال ت: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي٦/٢٥٩.

٢ – المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ– ت: صفوان عدنان الداودي: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت ط١– ١٤١٢ هـ– /ص١٢٤.

٣ – الموسوعة القرآنية خصائص السور بتصرف: جعفر شرف الدين، ت: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٠ هـ–، ٦/٥٧.

وعلى هذا قال: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، تنبيها أن الناس يتساوون في البشرية، وإنما يتفاضلون بما يختصون به من المعارف الجليلة والأعمال الجميلة، ولذلك قال بعده: {يُوحَى إِلَيَّ} [الكهف: ١١٠]، تنبيها أني بذلك تميزت عنكم.[١]

١ – المفردات في غريب القرآن ١٢٥.

المبحث الثاني

اشتقاقات الضعف الواردة في القرآن الكريم

وردت مادة «ضعف» واشتقاقاتها وتصريفاتها مرات عديدة في القرآن الكريم، يمكن أن تصنف ضمن مجموعتين تبعا للمعنى:

المجموعة الأولى: يضاعفُ، يُضَاعِفْهُ، يُضَاعِفَهُ، يُضَاعِفْهَا، يُضَاعَفُ، ضِعْفٌ، ضِعْفًا، ضِعْفَيْنِ، أَضْعَافًا، مُضَاعَفَةً، الْمُضْعِفُونَ.

المجموعة الثانية: ضَعُفَ، اسْتُضْعِفُوا، يُسْتَضْعَفُونَ، يَسْتَضْعِفُ، ضَعْف، أَضْعَفُ، ضَعِيفًا، ضِعَاف، ضُعَفَاءُ، مُسْتَضْعَفُون.

أما المجموعة الأولى فهي مشتقة من: الضِّعْف بكسر فاء الكلمة وهو «الضاد» وتسكين عينها وهو «العين»، وكل كلمة من هذا الاشتقاق – أي: كان أصلها مكسور الضاد وساكن العين– تحمل المعنى الثاني الذي ذكره ابن فارس وهو: المِثْل.[1] فتقول عندي ضِعْفُ ما عندك من النقود، أي: مثلاه. وضِعْفاه ثلاثةُ أمثاله. لذا تدخل كلمة الضِّعْف وما تَصَرَّف عنها ضمن الأسماء المتضايفة.

وقد قال الراغب الأصفهاني: (والضّعف هو: من الألفاظ المتضايفة التي يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر كالنصف والزوج. والضعف تركب قدر من متساويين، إلا أنه جعل الضعف بالكسر لما يزاد عليه، والضعف بالفتح لما ينقص منه).[2]

وأرى أن الذي يجمع بين الضِّعف بكسر الضاد، والضعف بضم الضاد أو فتحها: أنه لما كان الأول بحاجة إلى مثله كان ضعيفًا.

---

١ – انظر لسان العرب٩/٢٠٣، الكليات: ١/٩٠٨، والقاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز آبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: مُحَمَّد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط: ٨، ١٤٢٦ هـ– ٢٠٠٥ م، ١/١٠٧٢.

٢ – تفسير الراغب الأصفهاني ١/٥٠٣.

وهذه المجموعة وردت في إحدى وعشرين آية، وقد تكرر اللفظ أحد عشر مرة بالصيغ المختلفة.

وأما المجموعة الثانية التي تدور حول مادة ضعف بالفتح والضم، فقد تكرر اللفظ في القرآن في أربعة عشر موضعًا باشتقاقاته المختلفة بواقع ثلاثين آية، وذلك كما ورد في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.[1]

١ – **ضَعُفَ**: هو الفعل الماضي المبني للمعلوم.ورد مرتين قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبابًا وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شيئًا لا يَسْتَنْقذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: ٧٣]. والضَّعْفُ هنا: (قد يكون في النّفس، وفي البدن، وفي الحال).[2]

وقوله (ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) يجوز ضَعُفَ، وضُعِفَ الطالب والمطلوب، أي فهم يضعفون عن أن يخلقوا ذبَابًا، وعن أن يستنقذوا من الذُّبَاب شيئًا رغم ضعف الذباب.[3]

٢– **ضَعُفوا**: وقد وردت مرة واحدة. قال تعالى في وصف أنصار الأنبياء: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]. فالضَّعف هنا ضَعف الروح المعنوية وانكسار القوة لهم بدلالة قوله تعالى: {لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} والذي يصيبهم في سبيل الله هو القتل والجرح والأسر والتعذيب رغم ذلك؛ فلم تضعف عندهم الروح المعنوية وبقيت قوية.

وأشار الزجاج رحمه الله إلى هذا المعنى فقال في بيانها: ({فَمَا وَهَنُوا}: «فما فَتَروا»، {وما ضعُفوا}: «وما جَبُنُوا عن قتال عدوهم»، {وما استكانوا} أي: «ما خضعوا لعدوهم»).[4]

---

١ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ، ٤٢٠_٤٢١.

٢– الراغب الاصفهاني: ٥٠٧.

٣ – معاني القرآن وإعرابه: أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، ط١: ١٤٠٨ هـ– ١٩٨٨ م، ٣/٤٣٩.

٤ – معاني القرآن =الزجاج: ١/٤٧٦.

٣- **اسْتَضْعَفُونِي**: هو الفعل الماضي المبني للمعلوم المتصل بياء المتكلم والمضاف في أوله سين وتاء. ورد مرة واحدة وذلك في قوله تعالى: {قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠].

قال القرطبي رحمه الله: (استذلوني وعدّوني ضعيفًا).[١] ويقول ابن عاشور: (والسين والتاء في «اسْتَضْعَفُونِي» للحسبان، أي حسبوني ضعيفًا لا ناصر لي؛ لأنهم تمالؤوا على عبادة العجل، ولم يخالفهم إلا هارون في شرذمة قليلة).[٢]

٤- **يَسْتَضْعِفُ**: هو الفعل المضارع المبني للمعلوم، ورد مرة واحدة، وفاعله ضمير مستتر يعود على فرعون الطاغية، قال تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٤].

وسمي هذا استضعافًا لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم.[٣]

٥- **اسْتُضْعِفُوا**: هو الفعل الماضي المبني للمجهول المتصل بضمير الواو الذي هو في محل مفعول به.

ورد هذا الفعل خمس مرات، ثلاثًا منها جاءت في سياق تخاصم الأتباع والمتبوعين في النار وكان ذلك في سورة واحدة هي سورة «سبأ»، قال تعالى حكايةً عنهم: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سبأ: ٣١] فالذين اسْتُضْعِفُوا هنا هم: الأتباع والعوام

---

١ - الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي: شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية — القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م: ٢٩٠/٧.

٢ - التحرير والتنوير: م٥/ج١١٧/٩.

٣ - معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، ت: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م، ١٨٥/٦.

وضعفاء الرأي والمستحقرين والمستذلين[1]، ومثلها: {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى} [سبأ: ٣٢]، وكذلك: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [سبأ: ٣٣].

ففي هذه الآيات وصف لحال الطغاة المستكبرين مع الضعفاء الأتباع يوم القيامة، وفي هذا تنبيه للكفار المستضعفين على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سببا للعداوة في الآخرة.[2]

ومما يؤكد أن المقصود بالمستضعفين بسبب المحاجة الضعفاء مجيء صيغة الضعفاء في آيتين في القرآن في معرض المحاجة والمجادلة والمراجعة بين الأتباع والمتبوعين، مما يدل على أن سبب الاستضعاف من القادة والطغاة هو الضعف المتحقق في هؤلاء الأتباع أو القابلية للاستضعاف، وهو الضعف الطارئ والذي هو سبب المؤاخذة وليس الضعف الأصلي في هؤلاء؛ وذلك في سورة إبراهيم عند قوله تعالى: {وَبَرَزُوا لله جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ للَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا منْ عَذَاب اللَّه منْ شَيْءٍ} [ابراهيم: ٢١]، وكذلك في سورة غافر في قوله تعالى: {وَإذْ يَتَحاجُّونَ في النَّار فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ للَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصيبًا منَ النَّار} [غافر: ٤٧].

وهنا صور الله المحاجة بين الأتباع والمتبوعين بصيغة الماضي في قوله وبرزوا لمعنًى مهم، يقول صاحب اللباب: (وورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال؛ لأنَّ كل ما أخبر الله عنه فهو حق وصدق، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود).[3]

---

١ – تراجع بعض هذه المعاني في تفسير البغوي: ٢٤٧/١ و٤٠٠، وتفسير البيضاوي، المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١– ١٤١٨ هـ، ٢٤٨/٤.

٢ – زاد المسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي: دار الكتاب العربي – بيروت ط١– ١٤٢٢ هـ–، ٥٠٠/٣.

٣ – اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.

ويستفاد من الآيتين: (أن بعضهم إنْ عصى الله وبغى وطغى ولم ينههم الآخرون فإن الهلاك يعم الجميع).[1] ثم (إنه تعالى قابل المستكبرين بالضعفاء: تنبيها على أن استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال).[2]

– أما الموضع الرابع فجاء في سياق تشكيك الكفرة من قوم ثمود العامةَ المتبعين صالحًا عليه السلام في دعوته وإنكار ذلك عليهم والاستهزاء بهم، قال تعالى على لسان هؤلاء: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ} [الأعراف: ٧٥] ({الذين استكبروا}: «أي الأشراف والقادة الذين تعظموا عن الإيمان بصالح عليه السلام»، {للذين استضعفوا}: «يعني الأتباع الذين آمنوا بدعوته»).[3] وحكى الواحديُ وابنُ الجوزي وغيرُهما أن المستضعفين هنا هم: المساكين.[4]

– والآية الخامسة جاءت في معرض الامتنان على أولئك الأتباع المؤمنين المساكين الضعفاء بأنْ تكون لهم الغلبة والعزة والرفعة والتمكين في الأرض وذلك بسبب إيمانهم واتباعهم الحق وصبرهم على المحن والابتلاءات في دين الله، قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ} [القصص: ٥].

٦– **يُسْتَضْعَفُونَ**: هو الفعل المضارع المبني للمجهول، وهو متصل بالواو التي هي ضمير متصل في محل رفع نائب فاعل.

ورد هذا الفعل مرة واحدة، قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} [الأعراف: ١٣٧]، قال الإمام الطبري: (وأورثنا القوم الذين كان فرعون

ط١– ١٤١٩ هـ– ١٩٩٨م، ١١/٣٦٦.

١ – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ): دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان: ١٤١٥ هـ– ١٩٩٥ م: ٣/٧٩.

٢ – المفردات في غريب القرآن: ١/٤٢٢.

٣ – الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، ت: الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١: ١٤٢٢، هـ– ٢٠٠٢ م، ٤/٢٥١.

٤ – يراجع تفسير الواحدي: ١/٤٠١، وزاد المسير: ٣/ ٢٢٥.

وقومه يستضعفونهم فيُذَبِّحونُ أبناءهم ويستحيون نساءهم ويستخدمونهم تسخيرًا واستعبادًا من بني إسرائيل).[1]

٧- **ضَعْف**: وهو الاسم «المصدر»، وقد ورد أربع مرات في آيتين، قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذي خَلَقَكُمْ منْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ منْ بَعْد ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ منْ بَعْد قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَليمُ الْقَديرُ} [الروم: ٥٤]، فالضعف الأول هو: «نطفة وماء مهين، أي: المني». والضعف الثاني: «الضعف الموجود في الجنين والطفل».[2] والضعف الثالث هو: «الهرم والكبر»٣. قال الراغب: (ويدل على أن كل واحد من قوله: "ضعف" إشارة إلى حالة غير الحالة الأولى، ولذلك ذكره منَكّرًا والمنَكّر متى أعيد ذكره وأريد به ما تقدم عُرّف).[4]

٨- **ضعفًا**: وقد ورد مرة واحدة. قال تعالى: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلمَ أَنَّ فيكُمْ ضعفًا فَإِنْ يَكُنْ منْكُمْ مائَةٌ صَابرَةٌ يَغْلبُوا مائَتَيْن} [الأنفال: ٦٦] والمراد الضعف في البدن.[5] بخلاف ما يراه ابن عاشور إذ يقول: (وهو ضعف الرهبة من لقاء العدد الكثير في قلة، وجعله مدخول (في) الظرفية يومئ إلى تمكنه في نفوسهم فلذلك أوجب التخفيف في التكليف).[6]

٩- **ضَعيفا**: اسم على وزن فعيل، صفة مشبهة، وقد ورد أربع مرات، قال تعالى: {وَخُلقَ الإنْسَانُ ضَعيفًا} [النساء: ٢٨].

١- جامع البيان في تأويل القرآن المسمى تفسير الطبري: محمد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ت: أحمد محمد شاكر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م، ٦/ ٤٣ .

٢ – المفردات: ٥٠٧/١.

٣ – يراجع تفسير الطبري ١١٧/٢٠والمفردات: ٨٢٩/١.

٤- انظر المفردات في غريب القرآن: ٢٩٦/١، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، ت: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله: دار الفكر – دمشق، ط٦، ١٩٨٥، ٨٦٢/١.

٥ – مدارك التنزيل وحقائق التأويل المسمى تفسير النسفي: أبو البركات عبد الله حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، ت: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت ط١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م، ٦٥٥/١، ٦٥٦.

٦ – التحرير والتنوير: ٧٠/١٠.

وقد اختلفوا في الضعف هنا هل هو مقيد بمعنًى معين أم المقصود به مطلق الضعف، فيرى الطبري أن الضعف هو: (العجز عن ترك الجماع).[1] وهو قول طاووس[2] والكلبي[3] وأكثر المفسرين قالوا: (يعني في أمر الجماع لا يصبر على النساء ولا يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء).[4]

في حين يرى ابن منظور وأبو البقاء[5] أن الإنسان ضعيف لأن هواه يستميله[1]، وإلى ذلك أشار صاحب السراج المنير فقال في تفسير «ضعيفًا»: (لا يصبر على الشهوات وعلى

---

١ – تفسير الطبري: ٢١٥/٨.

٢ . ترجمة الإمام طاووس . الفقيه، القدوة، عالم اليمن، أبو عبد الرحمن الفارسي، ثم اليمني، الجندي ، الحافظ ،كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له ،سمع من: زيد بن ثابت، وعائشة، وأبي هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس، ولازم ابن عباس مدة، وهو معدود في كبراء أصحابه،

روى عنه: عطاء، ومجاهد، وجماعة من أقرانه، وابنه؛ عبد الله، والحسن بن مسلم، وابن شهاب، روى: عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس، قال: إني لأظن طاووس من أهل الجنة.

وقال قيس بن سعد: هو فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة. قال ابن شهاب: لو رأيت طاووسا، علمت أنه لا يكذب، وكان كثيرَ الحجّ، فاتفق موتُه بمكَّة قبل التَّرويةِ بيوم، سنةَ ستٍّ ومئة، وصلَّى عليه هشامُ بنُ عبد الملك ، ينظر: سير أعلام النبلاء ٣٨/٥. طبقات علماء الحديث : أبو عبد الله مُحَّد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (المتوفى: ٧٤٤ هـ) ،ت: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق ،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ،ط:٢، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م،١٥٩/١.

٣ . الإمام الكلبي :العلامة، الأخباري، أبو النضر مُحَّد بن السائب بن بشر الكلبي، المفسر. يروي عنه: ولده؛ هشام، وطائفة، وكان أيضا رأسا في الأنساب، إلا أنه شيعي، متروك الحديث. أخذ عن: أبي صالح، وجرير، والفرزدق، وجماعة ،وكان الثوري يروي عنه، ويدلسه، فيقول: حدثنا أبو النضر

توفي: سنة ست وأربعين ومائة. ينظر سير أعلام النبلاء ٢٤٨/٦.

٤ – الكشف والبيان: الثعلبي ٢٩١/٣.

٥ . أبو البقاء :عبد الله بن الحسين الإمام محب الدين أبو البقاء العكبريّ البغداديّ الضّرير النحويّ الحنبلي، صاحب الإعراب، المقرئ الفقيه المفسر الفرضيّ اللغويّ، ولد ببغداد في اوائل سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة.

قال القفطي: أصله من عكبرا، وقرأ بالروايات على أبي الحسن البطائحيّ

اللغة عن ابن القصار، وحاز قصب السّبق في العربية، وصار فيها من الرؤساء المتقدمين، وقصده الناس من الأقطار، وأقرأ المذهب والنّحو واللّغة والخلاف والفرائض والحساب ،وهو صاحب تصانيف كثيرة ،توفي ليلة الأحد ثامن ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة، ودفن من الغد بمقبرة الإمام أحمد ﷺ.

مشاق الطاعات)[2]، أما الراغب فقد توسع في معنى الضعف واعتبر أن ضعف الإنسان (يكون بكثرة حاجاته التي يستغني عنها الملأُ الأعلى)،[3] وكذلك ذهب الثعلبي (أنه ضعيف في كل شيء).[4]

- وقال تعالى: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٧٦].

يقول الراغب: (فضعف كيده إنما هو مع من صار من عباد الله المذكورين في قوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢]).[5]

والأقوى هو ما ذهب إليه البيضاوي (بأن كيده للمؤمنين بالإضافة إلى كيد الله سبحانه وتعالى للكافرين ضعيف فلا يؤبه به، فلا تخافوا أولياءه فإن اعتمادهم على أضعف شيء وأوهنه).[6] (فهو واه لا يقاوم كيد الله بالكافرين).[7]

- وقال تعالى: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} [هود: ٩١]. قال ابن كثير في البداية والنهاية: (ضعيفًا أي مضطهدًا مهجورًا).[8]

.....ينظر :بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة :جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(٩١١هـ) ،ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ،المكتبة العصرية ،لبنان / صيدا ،٣٨/٢.

١ - ينظر لسان العرب: ٢٠٣/٩، والكليات: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، ت: عدنان درويش - محمد المصري: مؤسسة الرسالة – بيروت، ٥٧٥/١.

٢ - السراج المنير: محمد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت: ٢٣٩/١.

٣ - المفردات: ٥٠٨/١.

٤ - الكشف والبيان /الثعلبي: ٢٩١/٣.

٥ - المفردات: [٥٠٨/١]

٦ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل = تفسير البيضاوي، ٨٥/٢.

٧ - تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط١، ١ /١١٣.

٨ - البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ت: علي شيري: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨، هـ- ١٩٨٨م، ٢١٧/١.

أما ما روي عن بعض السلف كابن عباس وسعيد بن جبير وسفيان من أنه كان ضعيف البصر أو أعمى فلم تصح الروايات في ذلك. وقد رَدَّها الشّهابُ في "العنايَة" كما أخبر الزبيدي في تاج العروس.[1]

– قوله تعالى: {فإنْ كَانَ الَّذي عَلَيْه الْحَقُّ سَفيهًا أَوْ ضَعيفًا أَوْ لا يَسْتَطيعُ أَنْ يُملَّ هُوَ فَلْيُمْللْ وَليُّهُ بالْعَدْل} [البقرة: ٢٨٢]. أي فإن كان ضعيف العقل أو عييًّا لا يستطيع الإملاء، أملى وليُّه، يعني: ولي الصغير والضعيف العقل.[2]

١٠– **ضعافا:** قال تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذينَ لَوْ تَرَكُوا منْ خَلْفهمْ ذُرّيَّةً ضعَافًا خَافُوا عَلَيْهمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَديدًا} [النساء: ٩].

فكلمة «ضعَافًا» هنا قصد بها: الأولاد الصغار الذين لم يبلغوا سن الرشد، أو العجزة الذين لا حيلة لهم فهم ضعاف لأنهم يعتمدون على غيرهم في الإنفاق، وبالتالي فسيصبحون عَالةً على الناس إذا مات وليهم ولم يترك لهم مالا. إلى ذلك ذهب ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير[3]، والخازن[4]، والألوسي.[5]

١١– **الضعفاء:** {وَبَرَزُوا للَّه جَميعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ للَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا منْ عَذَاب اللَّه منْ شَيْءٍ} [إبراهيم: ٢١].

١ – تاج العروس ج٢٤/ ٥٠.

٢ – انظر الوجوه والنظائر: أبو هلال الحسن العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ت: مُحَمَّد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٨ هـ– ٢٠٠٧م ١/١٨٧،

وتفسير القرآن العزيز: أبو عبد الله الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)ت: أبو عبد الله حسين بن عكاشة – مُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة – مصر/ القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٢م، ١/٢٦٨.

٣ – تفسير ابن أبي حاتم: الإمام الحافظ أبو مُحَمَّد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار النشر: المكتبة العصرية – صيدا، ت: أسعد مُحَمَّد الطيب، ٣/٨٧٧.

٤ – لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)، ت: مُحَمَّد علي شاهين: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١– ١٤١٥هـ، ١/٣٤٥.

٥ – روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، ت: علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية – بيروت ط١، ١٤١٥ هـ–، ٤/٢١٢

والضعفاء هنا جمع ضعيف، والضعيف يشمل ثلاثة أنواع ممن يتصفون بالضعف:

أولهم: الأرقاء والفقراء والأرذلون في معيشتهم في الدنيا، الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا وفيهم ذلة لم يزيلوها بالإيمان.

وثانيهم: الضعفاء في تفكيرهم الذين يرضون بأدنى فكرة ويتبعون غيرهم اتباعا من غير دليل، بل في استكانة، وإن كانوا أقوياء في مالهم فهم ضعفاء في نفوسهم.

وثالثهم: الذين يتبعون القوة دون دليل.[1]

- {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذينَ لا يَجدُونَ مَا يُنْفقُونَ حَرَجٌ إذَا نَصَحُوا للَّه وَرَسُوله مَا عَلَى الْمُحْسنينَ منْ سَبيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ} [التوبة: ٩١] قال الزمخشري: (الضعفاء: الهرمى والزمنى).[2] وقال الثعالبي: (يقول: ليس على أهل الأعذار من: ضعف بدن، أو مرض، أو عدم نفقة. إثم).[3]

ويلخص ابن الجوزي –رحمه الله– الأقوال في ذلك ثم يرجح فيقول: (وفي المراد بالضعفاء ثلاثة أقوال، أحدها: أنهم الزمنى والمشايخ الكبار، قاله ابن عباس ومقاتل. والثاني: أنهم الصغار. والثالث: المجانين، سموا ضعافا لضعف عقولهم. ذكر القولين الماوردي. والصحيح أنهم: الذين يضعفون لزمانة أو عمى أو سن أو ضعف في الجسم. والمرضى الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال). [4]

---

١ – زهرة التفاسير: مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفي بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفي: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي ٤٠١٥/٨.

٢ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفي: ٥٣٨هـ): دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣– ١٤٠٧ هـ–، ٣٠١/٢.

٣ – الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مخلوف الثعالبي (المتوفي: ٨٧٥هـ)
ت: الشيخ مُحَمَّد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود: دار إحياء التراث العربي – بيروت
ط: ١– ١٤١٨ هـ–، ٢٠٥/٣.

٤ – زاد المسير: ابن الجوزي ٤٨٥/٣.

وهناك تفريق لابن عاشور بين الضُعف والمرض –أثناء تفسيره للآية– إذ يقول: (و«الضُّعَفَاء» جمع ضعيف، وهو الذي به الضعف. وهو: وهن القوة البدنية من غير مرض. و"الْمَرْضَى "جمع مريض، وهو الذي به مرض. والمرض: تغير النظام المعتاد بالبدن بسبب اختلال يطرأ في بعض أجزاء المزاج ومن المرض المزمن كالعمى والزمانة). [١]

١٢- **أَضْعَفُ**: اسم تفضيل على وزن أفعل، ورد مرتين.

قال تعالى: {فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا} [مريم: ٧٥] بمعنى: أقل فئة وأنصارًا وأعوانًا.[٢]

وقريب منها قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا} [الجن: ٢٤] (يقول تعالى ذكره: إذا عاينوا ما يعدهم ربهم من العذاب وقيام الساعة {فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا} أجند الله الذي أشركوا به، أم هؤلاء المشركون به).[٣]

١٣- **مُسْتَضْعَفُونَ**: وهو جمع المذكر السالم، ورد خمس مرات في القرآن الكريم، مرة مرفوعًا ومرتين مجرورًا ومرتين منصوبًا، وقصد بهم: الأذلاء الضعفاء الذين ليس لهم شوكة ولا قوة ولا غلبة.

– قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: ٢٦] أي: كنتم أذلاء في أيدي فارس والروم[٤]. وذلك كما نقل الطبري.[٥]

والأولى أنها خطاب للمهاجرين حيث إن الله آواهم إلى المدينة ونصرهم في بدر وغيرها.[٦]

١- التحرير والتنوير: ٢٩٤/١٠.

٢ – ينظر تفسير البغوي ٢٥٣/٥، وتفسير البيضاوي: ١٨/٤.

٣ – جامع البيان في تأويل القرآن: للطبري ٦٧١/٢٣

٤ – تفسير البيضاوي: ١٠١/١.

٥ – ينظر الطبري: ٤٧٨/١٣.

٦ – انظر البيضاوي: ١٠١/١، ابن كثير ٤٠/٤.

وصيغة الأمر في الآية: {اذكروا} تدل على تحتم ذكر النعمة، وهي تذكر نعمة الله بالقوة بعد الضعف، والكثرة بعد القلة.[1]

– وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} [النساء: ٩٧/٩٨].

الآيتان تتحدثان عن فريقين مختلفين من المستضعفين، الفريق الأول: هم أناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بمكة فلم يخرجوا معه إلى المدينة وخرجوا مع مشركي قريش إلى بدر فأصيبوا يوم بدر فيمن أصيب.[2] وسبب عدم لحاقهم بالمؤمنين اعتلالهم واعتذارهم أنهم كانوا مقهورين عاجزين.[3]

وفريق آخر مؤمن، بدليل أن الله استثناهم من العقوبة التي نزلت بالفريق الأول وهم الذين استضعفهم المشركون من الرجال والنساء والولدان، وهم العجزة عن الهجرة بالعسرة، وقلة الحيلة، وسوء البصر والمعرفة بالطريق من أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام، استثناهم من القوم الذين أخبر جل ثناؤه أن مأواهم جهنم: أن تكون جهنم مأواهم، للعذر الذي هم فيه.[4]

– وقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ

---

١ – انظر أ ضواء البيان: ٢٣ /٢٧٦.

٢ – الدر المنثور: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت ٦٤٧/٢.

٣ – انظر الكشف والبيان: الثعلبي ٣٧١/٣، مفاتيح الغيب: الرازي ١٥٣٨/١.

٤ – تفسير الطبري: ١٠٠/٩.

لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء: ٧٥] في الآية هذه حض من الله على الجهاد في سبيله، والمعنى لا عذر لكم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى.[1]

وهؤلاء هم الصنف الذين عذرهم الله تعالى لما فيهم من الضعف، ولم يتوعدهم بالعقوبة كما توعد غيرهم.

قوله تعالى: {والمستضعفين} عطف على اسم الله عز وجل، أي وفي سبيل المستضعفين وخلاصهم.[2]

– وقال تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا} [النساء: ١٢٧]. {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ} الذين لا أب لهم، أكد الله سبحانه أمرهم، وأكد أمر اليتامى وهم الذين لا أب لهم فيحتمل أن يكونوا هم أكد أمرهم بلفظٍ آخر أخص به من الضعف، ويحتمل أن يريد بالمستضعفين من كان هو وأبوه ضعيفًا واليتيمَ المنفرد بالضعف، ويحتمل أن يريد بالمستضعفين من رماه أهله ودفعه أبوه عن نفسه لعجزه عن أمره.[3]

وبعد المرور على هذه الآيات التي تتحدث عن موضوع الضعف، نستخلص ما يلي:

– أنّ المقصود بالاستضعاف: هو فعل صادر من الغير على الغير وغالبًا ما يكون هذا الأخير هو الإنسان الذي عنده قابلية أن يمارس عليه الاستضعاف، وبالتالي يصبح ضعيفًا جراء فعل الغير عليه والتحكم به، وأنّ هذا الضعف الذي يقع عليه من الغير غالبًا ما يكون معنويا؛ إذًا فورود اللفظ بصيغة الاستضعاف المراد به: ما يقع من البشر بعضهم لبعض، لذلك يقول الإمام

١ – تفسير الخازن بتصرف: ٥٥٩/١.

٢ – ينظر تفسير القرطبي: ٢٧٨/٥، وتفسير الرازي: ١٤٩٧/١، والخازن: ٥٥٩/١.

٣ – أحكام القرآن لابن العربي: القاضي محمَّد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، ت: محمَّد عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٤ هـ– ٢٠٠٣ م، ٤٤٥/٢. وقد استفدت في هذا الموضوع من بحث قدمه الدكتور أنس عمايرة بعنوان الفرق بين ضعاف وضعفاء في القرآن الكريم.

الرازي: (وكون المؤمنين مستضعفين معناه: أن غيرهم يستضعفهم ويستحقرهم، وهذا ليس فعلًا صادرًا عنهم بل عن غيرهم، فهو لا يكون صفة ذم في حقهم، بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم).[1]

ولذلك زيد في حروفه، والقاعدة تقول: /إن زيادةَ المبنى تدل على زيادةٍ في المعنى/.

وإذا ورد بصيغة الضعف فإما أن يكون أصليًا فهو من الله، وإما أن يكون طارئًا فهو من البشر ذاتهم. والأصلي لا يوصف بمدح ولا ذم وإنما الذي يذم غالبًا ما كان طارئًا.

- جاءت صيغ الضعف على الأغلب في جمل اسمية وهي التي تدل على الثبوت، وجاءت أغلب صيغ الاستضعاف في جمل فعلية وهي التي تدل على الحدوث والتجدد؛ ففي كل زمان ومكان يكون الاستضعاف من البشر للبشر.

ثم عن التعبير بالفعل المضارع الذي يفيد التجدد واستحضار الصورة والاستمرار كما في قوله تعالى: {يستضعف طائفة منهم} من أجل استحضار الحال كأنك تتخيل الآن كيف يتم استضعافهم من قبل المتجبرين وهذا واقع مشهود.

ثم إن كثيرًا من صيغ الضعف جاءت بصيغ المصدر لتدل على أن أصل هذا الإنسان هو الضعف فمنشؤه الضعف وهو صائر إليه قال الله تعالى {وخلق الإنسان ضعيفًا} {الله الذي خلقكم من ضعف} أي ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم.[2]

وكذلك تبين لي من خلال المرور على الآيات الكريمة التي تتحدث في الضعف البشري الدلالة على قدرة الله تعالى وفعله كيف يشاء في خلقه، وهو العليم القدير فينتقل الإنسان من ضعف إلى قوة ومن قوة إلى ضعف.

ويلاحظ أن هذه الآيات قد أرفدتنا بروافد أخرى في معاني الضعف ومنها: أن الضعف قد يعبر عنه بالقلة أو الذلة او الاستكانة أو القهر.

---

١ - مفاتيح الغيب للرازي ٣٠٧/١٤.

٢ - الكليات: ٥٨٠/١.

وكذلك تبين لي أن صور الاستضعاف التي ذكرها البيان الإلهي في الآخرة سببها ومنشؤها الضعف الحاصل في الدنيا بسبب ضعف الإيمان والإرادة والعزيمة والفكر، وهذا متحقق بالأتباع من أهل الكفر.

ثم إن الرسم القرآني لكلمة ضعفاء قد ورد مرتين بزيادة الألف والهمزة، ومرتين بهمزة مرسومة على الواو.

فأما المرتان الأوليان ففي الآيتين: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: ٢٦٦]. {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٩١].

وبملاحظة الآيتين الكريمتين نجد أن الضعف فيهما هو ضعف بدني وصف به صغار السن في الآية الأولى ووصف به كبار السن وصغارهم في الآية الثانية، كما أن الحال الذي تصف به هؤلاء هي حالهم في الدنيا.

وأما المرتان الأخريان ففي الآيتين: {وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ} [ابراهيم: ٢١]. {وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ} [غافر: ٤٧].

نجد في هاتين الآيتين أن الضعف فيهما ضعف معنوي أمام الطغاة والمستكبرين في الأرض كما أن الحال التي وردت في الآيتين تصف وضعًا أخرويًا. فرغم أن الكلمتين مشتقتين من جذر لغوي واحد إلا أن الرسم القرآني فرق بينهما في المعنى والحال.



المبحث الثالث

الضعف في السياق القرآني

وردت مادة الضعف في القرآن الكريم في سياقات متعددة:

- الضعف في سياق حماية حق الضعيف:

١- {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرات وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ...} [البقرة: ٢٦٦].

٢- {فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ} [البقرة: ٢٨٢].

٣- {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافًا خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء: ٩].

٤- {وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيمًا} [النساء: ١٢٧].

٥- {قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٧٥].

- الضعف في سياق التلاوم أو العتاب:

٦- {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفًا قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠].

٧- {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: ٢١].

٨- {...يَقُولُ الَّذينَ اسْتُضْعفُوا للَّذينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمنينَ* قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا للَّذينَ اسْتُضْعفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَن الْهُدى بَعْدَ إذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرمينَ * وَقالَ الَّذينَ اسْتُضْعفُوا للَّذينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْل وَالنَّهار إذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ باللَّه وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدادًا وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ في أَعْناق الَّذينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣١-٣٣].

٩- {وَإذْ يَتَحاجُّونَ في النَّار فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ للَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصيبًا منَ النَّار *قالَ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا إنَّا كُلٌّ فيها إنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعباد} [غافر: ٤٧-٤٨].

- **الضعف في سياق الرحمة والترقيق:**

١٠- {وَما لَكُمْ لا تُقاتلُونَ في سَبيل اللَّه وَالْمُسْتَضْعَفينَ منَ الرّجال وَالنّساء وَالْولْدان الَّذينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرجْنا منْ هذه الْقَرْيَة الظَّالم أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا منْ لَدُنْكَ وَليًّا وَاجْعَلْ لَنا منْ لَدُنْكَ نَصيرًا *الَّذينَ آمَنُوا يُقاتلُونَ في سَبيل اللَّه وَالَّذينَ كَفَرُوا يُقاتلُونَ في سَبيل الطَّاغُوت فَقاتلُوا أَوْلياءَ الشَّيْطان إنَّ كَيْدَ الشَّيْطان كانَ ضَعيفًا} [النساء: ٧٥-٧٦].

١١- {وَاذْكُرُوا إذْ أَنْتُمْ قَليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الْأَرْض تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بنَصْره وَرَزَقَكُمْ منَ الطَّيّبات لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: ٢٦].

١٢- {الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلمَ أَنَّ فيكُمْ ضعفًا فَإنْ يَكُنْ منْكُمْ مائَةٌ صابرَةٌ يَغْلبُوا مائَتَيْن وَإنْ يَكُنْ منْكُمْ أَلْفٌ يَغْلبُوا أَلْفَيْن بإذْن اللَّه وَاللَّهُ مَعَ الصَّابرينَ} [الأنفال: ٦٦].

١٣- (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاء وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذينَ لا يَجدُونَ ما يُنْفقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا للَّه وَرَسُوله ما عَلَى الْمُحْسنينَ منْ سَبيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ} [التوبة: ٩١].

- **الضعف في سياق الاحتقار والإقالة منه:**

١٤- {إنَّ الَّذينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائكَةُ ظالمي أَنْفُسهمْ قالُوا فيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ في الْأَرْض قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّه واسعَةً فَتُهاجرُوا فيها فَأُولئكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَساءَتْ مَصيرًا * إلَّا

الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} [النساء: ٩٧-٩٨].

١٥- {قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ} [هود: ٩١].

- **الضعف سمة الكيد الشيطاني:**

١٦- {الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفًا} [النساء: ٦٧].

- **الضعف سمة المخلوقين والشركاء:**

١٧- {قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا} [مريم: ٧٥].

١٨- {يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: ٧٣].

١٩- {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤].

٢٠- {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨].

فهذه الآية تدل على أن خلق الإنسان قد كان من ضعف أي من عنصر الضعف لا من عنصر القوة، وما خلق من ضعف فلابد أن تستمر فيه جذور الضعف ولو منح شيئًا من القوة بعد ذلك، فأصله الضعف والشيء يرجع إلى أصله وتنزع فيه باستمرار عوامل أصله والقوة

القليلة المحدودة التي يملكها حينما يبلغ مرحلة النضج في تكوينه لا تزيل جذور الضعف في أعماق نفسه فعناصر الضعف الكثيرة فيه لا تفارقه.[١]

- المؤمن لا يضعف أمام المصائب:

٢١ - (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) [آل عمران: ١٤٦].

- استضعاف الخلق من سمة الكفار والجبابرة:

٢٢ - {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفًا قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْواحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠].

٢٣ - {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٤] وسمي هذا استضعافا لأنهم عجزوا وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم.[٢]

٢٤ - {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ} [القصص: ٥].

- عاقبة المستضعفين:

٢٥ - {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا

---

١ - الأخلاق الإسلامية وأسسها: عبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم – دمشق، ط: ٥، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩ م، ص٣٧٢.

٢ - معالم التنزيل ٦/١٨٥.

يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧].[١] وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعة من خلقه، أن يمن عليه بعد استضعافه وذله وانكساره.[٢]

وقد لاحظت من خلال الآيات التي تحدثت عن الضعف أن أغلب صيغ الضعف جاءت في السور المدنية والتي من أجلها شرعت الأحكام المناسبة بما يتناسب وطبيعة الإنسان البشرية.

وأغلب صيغ الاستضعاف جاءت في السور المكية التي قصد بها تنبيه المجتمع المكي بأن لا يكون الضعف في بداية المرحلة دافعًا للتنازل عن الدين والمبدأ واتباع الطغاة والمتجبرين.

---

١ - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ﷺ: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط: ٤، ٤٧٩٢/١٠.

٢ - زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٦هـ، ٧٥/١.

المبحث الرابع

نظائر الضعف في القرآن الكريم

بعد التعرف على مفهوم الضعف البشري، وذكر اشتقاقاته وسياقاته التي جاءت في كتاب الله عز وجل، كان لابد من التعرف على نظائر الضعف الموجودة في القرآن الكريم؛ وبعد استقرائي لكتاب الله عز وجل توصلت إلى وجود بعض النظائر لكلمة الضعف، وهي: الوهن، الهون، الاستكانة، العجز، الذل، الخور والجبن، الفشل.

١. **الوهن**: الوهن في اللغة عند ابن فارس اللغوي رحمه الله فقد ذكر أن:(الواو والهاء والنون: كلمتان تدل إحداهما على ضعف، والأخرى على زمان.

فالأولى: وهن الشيء يهن وهنا: ضعف، وأوهنته أنا. ومن هذا الواهنة: القصيرى من الأضلاع، وهي أسفلها

والكلمة الثانية: الوهن والموهن: ساعة تمضي من الليل. وأوهن الرجل: صار أو سار في تلك الساعة).[1]

وعند ابن منظور: (الوَهْن: الضعف في العمل والأمر وكذلك في العظم ونحوه، وفي التنزيل العزيز {حملته أمه وهنًا} على وهن جاء في تفسيره ضعفًا على ضعف، أي لزمها بحملها إياه تضعف مرة بعد مرة، وقيل وهنا على وهن أي: جهدًا على جهد، وفي حديث الطواف: "وقد وهنَتهُم حمى يثرب أي أضعفتهم"[2]، وفي حديث علي ﷺ: "ولا واهنًا في عزم أي ضعيفًا في رأي، ويروى بالياء ولا واهيًا في عزم، ورجل واهن ضعيف لا بطش عنده).[3] والوهن اصطلاحًا: ضعف من حيث الخَلق، أو الخُلق.[4]

---

١ – مقاييس اللغة: ١٤٩/٦.

٢ – المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٩٢٣/٢

٣ – لسان العرب ٤٥٣/١٣.

٤ . المفردات في غريب القرآن: ٨٨٧/١.

وقد فرق بين الوهن والضعف أبو هلال العسكري، بأن الوهن: (هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف وهو قوي في نفسه فهو من فعل الإنسان. أما الضعف فهو من فعل الله تعالى بالإنسان، كما أن القوة من فعله تقول خلقه الله قويًا وخلقه ضعيفًا، ومنه قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[آل عمران: ١٣٩] أي لا تفعلوا أفعال الضعفاء وأنتم أقوياء على ما تطلبونه وقد يستعمل الضعف مكان الوهن مجازًا في مثل قوله تعالى: {وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا} [آل عمران: ١٤٦] أي لم يفعلوا فعل الضعيف، ويجوز أن يقال إن الوهن هو انكسار الحد والخوف ونحوه، والضعف نقصان القوة، وأما الاستكانة فقيل هي إظهار الضعف، قال الله تعالى: {وما ضعفوا وما استكانوا} أي لم يضعفوا بنقصان القوة ولا استكانوا بإظهار الضعف عند المقاومة).[١]

ولذلك فالفرق بين الوهن والضعف: أن الوهن لا يشمل الضعف الأصلي في حين أن الضعف يدل على الضعف الأصلي والضعف الطارىء فمن الضعف ابتداء قوله تعالى: {وَخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء٢٨]. ومن الضعف الطارىء قوله تعالى: {فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا} [آل عمران ١٤٦]، واجتمعا في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤] فالضعف الأول هو ضعف ابتداء، والضعف بعد الكبر هو ضعف بعد قوة، فهو ضعف طارئ.

وأما أهل التفسير فمنهم من لم يفرق بين الضعف والوهن ومنهم من فرق بينهما، وذلك من خلال قوله تعالى: {فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا}، وذلك بسبب العطف والعطف يقتضي المغايرة، فبعض المفسرين ميز بينهما من حيث الدلالة:

---

١ – الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ت: الشيخ بيت الله بيات،، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، ط: ١، ١٤١٢هـ، ٣٣٠/١.

فالطبري فسر الوهن بالعجز والضعف بمعناه (وما ضعفت قواهم لقتل نبيهم) [1]، والزجاج: فسر الوهن بالفتور، والضعف بالجبن عن قتال العدو. [2]

وبعضهم فرق بينهما من حيث المتعلق: كالماتريدي، قال: (فما وهنوا في الدين، وما ضعفوا في أنفسهم)[3]، وقال ابن اسحاق: (فما وهنوا بقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم). [4]

وقد ورد لفظ الوهن مع مشتقاته في القرآن سبع مرات وجاء في ثلاث آيات منها النهي عن الوهن وهو التضعف أمام الغير.

٢ – **الهون**: هان يهون هُونًا، بالضم، وهوانا ومهانة: ذلّ[5]، والهون: الهوان والشدة. أصابه هون شديد أي شدة ومضرة وعوز؛ وهو نقيض العز، ورجل فيه مهانة أي ذل وضعف.[6]

وقد وردت مادة هون في القرآن الكريم في الصيغ التالية: (أهان، يهن، هونًا، الهون، هين، هينًا، أهون، مهين، مهانًا)، وقد وردت في إحدى وعشرين آية. والمتتبع لهذه الصيغ لا يجد فيها فعل أمر مما يدل دلالة واضحة على أنه لا ينبغي أن يعرض الإنسان نفسه لمواطن الذل والهون والهوان، وأن الذل والهوان متى ما كان من الإنسان نفسه كان محمودًا ويقال له الهَون والذل {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٥٤] {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان ٦٣] ومتى كان من غيره يقال له الذل والهون والهوان ويكون مذموما.[7]

---

١ – تفسير الطبري ٢٦٩/٧.

٢ – معاني القرآن ٤٧٦/١.

٣ –تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، ت: د. مجدي باسلوم: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦ هـ– ٢٠٠٥ م: ٥٠٢/٢.

٤ – تفسير الماوردي المسمى (النكت والعيون): أبو الحسن علي بن مُحَمَّد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم: دار الكتب العلمية – بيروت /لبنان: ٤٢٨/١.

٥ – تاج العروس ٢٩٠/٣٦.

٦ – لسان العرب٤٣٩/١٣.

٧ – المفردات في غريب القرآن بتصرف ٢٨١.

٣ - **الاستكانة**: في اللغة: (من الفعل سكن، والسكون ضد الحركة، سكن الشيء إذا ذهبت حركته، واستكان الرجل خضع وذل).[١]

استكان الشخص لفلان: خضَع وذلّ وضعُف. اسْتكانوا قهْرًا للمستعمرين قال تعالى: {وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا} [آل عمران ١٤٦].[٢]

والاستكانة اصطلاحًا: الخضوع عند الضعف؛ لأن صاحبها قليل الحركة والنهوض لما به من الحاجة وشدة المحنة.[٣]

والمسكنة في تفسير أبو زهرة رحمه الله هي:(ضعف نفسي، وصغار ينال القلب، فيستصغر الشخص نفسه، ويحس بهوانها مهما تكن لديه أسباب القوة متضافرة وهي هوان ينشأ من النفس لعدم إيمانها بالحق، واتباعها للمادة).[٤]

٤- **العجز**: قال ابن فارس رحمه الله:(والعجز أصل يدل على معنيين، أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء. فالأول عَجَز عن الشيء يعْجَز عَجْزا، فهو عاجز، أي ضعيف. وقولهم «إن العجز نقيض الحزم» فمن هذا؛ لأنه يضعف رأيه. ويقولون: «المرء يعجز لا محالة»).[٥]

١ - انظر لسان العرب: ٢١١/١٣، تهذيب كتاب الأفعال لأبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية، المؤلف / أبو القاسم علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع، عالم الكتب - بيروت - ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، ٦١/٢.

٢ - معجم اللغة العربية المعاصر: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل الناشر: عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م، ٣/ ١٩٨١.

٣- صفوة البيان لمعاني القرآن: حسنين محمد مخلوف، مطابع الشروق ١٤٠٢-١٩٨٢، ٩٧.

٤ - زهرة التفاسير: ١٣٦٤/٣.

٥ - مقاييس اللغة: ٢٣٢/٤.

والعجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر أي مؤخره كما ذكر في الدبر، وصار في التعارف اسما للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة، قال {أعجزت أن أكون}.[١]

وقد يكون العجز نسبيًا وقد يكون مطلقًا، والعجز النسبي أي مع إمكان الاستطاعة وهذا، ورد في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى: {قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب} [المائدة: ٣١] فهو عجز عن استطاعة وهذا هو الذي ورد فيه النهي عن العجز ففي الحديث: "واستعن بالله ولا تعجز"[٢]، وكذلك كان رسول الله يتعوذ منه: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال"[٣]، ومن هنا قال القاضي عياض[٤]: (العجز ترك ما يجب فعله، والتسويف فيه وتأخيره عن وقته).[٥]

---

١ – المفردات في غريب القرآن: ٣٢٢/١.

٢ – أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله رقم الحديث /٢٦٦٤/.

٣ – أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال رقم (٦٣٦٣) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل واللفظ للبخاري.

٤ – الإمام العلامة الحافظ الاوحد، شيخ الاسلام، القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ثم السبتي المالكي، ولد في سنة ست وسبعين وأربع مئة، استبحر من العلوم، وجمع وألف، وسارت بتصانيفه الركبان، واشتهر اسمه في الآفاق، قال الفقيه مُحَمَّد بن حماده السبتي: جلس القاضي للمناظرة وله نحو من ثمان وعشرين سنة، وولي القضاء وله خمس وثلاثون سنة، كان هينا من غير ضعف، صليبا في الحق، تفقه على أبي عبد الله التميمي، وصحب أبا إسحاق بن جعفر الفقيه، ولم يكن أحد بسبتة في عصر أكثر تواليف من تواليفه، له كتاب " الشفا في شرف المصطفي "، وكتاب " ترتيب المدارك وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك "، وكتاب " العقيدة "، وكتاب " شرح حديث أم زرع "، قال القاضي شمس الدين في " وفيات الاعيان ": هو إمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلومه، وبالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، توفي في سنة أربع وأربعين وخمس مئة في رمضانها، وقيل: في جمادى الآخرة منها بمراكش. ينظر سير أعلام النبلاء: الامام شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفي ٧٤٨ هـ ١٣٧٤ م، ت: شعيب الأرناؤوط، ط: ٩، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م مؤسسة الرسالة بيروت ٢١٢/٢٠.

٥ – إكمال المعلم بفوائد مسلم: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، ت: الدكتور يحْيَى إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط: ١، ١٤١٩ هـ– ١٩٩٨ م، ١٤٣/٨.

٥- **الذل**: أصل الذل في اللغة: الضعف والهوان قال صاحب المصباح المنير: (والاسم الذل بالضم و«الذِّلة» بالكسر و«المذلة» إذا ضعف وهان فهو «ذليل»).[١]

وقال صاحب الكليات: (الذِّل بالكسر في الدابة ضد الصعوبة، وبالضم في الإنسان ضد العز؛ لأن ما يلحق الإنسان أكثر قدرًا مما يلحق الدابة، فاختاروا الضمة لقوتها للإنسان، والكسرة لضعفها للدابة. وقيل بالضم ما كان عن قهر وبالكسر ما كان عن تعصب).[٢]

وأما تعريفه اصطلاحًا: قال ابن عاشور رحمه الله: (والذلة: خضوع في النفس واستكانة من جراء العجز عن الدفع).[٣] وَقد قيل: (الذلة الضعْف عَن المقاومة، ونقيضها الْعزَّة وَهي الْقُوَّة على الْغَلَبَة، وَمنْه الذلول وَهُوَ المقود من غير صعوبة؛ لأَنَّهُ ينقاد انقياد الضَّعيف عَن المقاومة، وَأما الذَّليل فانه ينقاد على مشقة).[٤]

وقد وردت مادة ذل في القرآن الكريم في الصيغ التالية: (نذِلّ، الذُّل، ذِلَّة، الذِّلَّة، أذِلَّة، الأَذَلّ، الأَذَلِّين، ذَلُول، ذَلُولاً، ذُلُلاً، ذلّلْناها، ذُلِّلت، تَذْليلاً، تُذِل).

وقد وردت هذه الصيغ في أربع وعشرين آية[٥]، وليس فيها صيغة تدل على الأمر مما يدل النهي عن الذل والخضوع، ومن خلال هذه الصيغ نتبين أن الذل منه ما يكون محمودًا كالذلة لله بمعنى العبودية والخضوع لأمره، وكذلك الذل بمعنى التواضع، وكذلك في جانب تذليل المخلوقات للإنسان، كقوله تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} [الإسراء: ٢٤]، وكقوله تعالى: {أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٥٤]، وكقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران: ١٢٣]. ومنها ما يكون مذمومًا وهي الذلة أمام أعداء الله تعالى وقد وصف الله أهل الإيمان بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين.

---

١ - ينظر المصباح المنير: أحمد بن مُحَمّد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية – بيروت، ٢١٠/١.

٢ - الكليات ٤٦٢/٤٦٣.

٣- التحرير والتنوير ١١٩/٩.

٤ - الفروق اللغوية ٢٥١/١.

٥ . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٢٧٥. ٢٧٦.

٦ - **الخور والجبن:** قال ابن فارس: (الخوار: الضعيف من كل شيء، يقال رمح خوار، وأرض خوارة، وجمعه: خُور[١]، ومن المجاز رجل خوار: جبان) [٢].

وقال ابن حمنظور: (خار الرجل خورا: ضعف وانكسر)[٣]، فالخور في الناس ليس مطلق الضعف، ولكنه انكسار القوة بالخوف، وهذا قول عمر ﷺ: (لن تخور قوى مادام صاحبها ينزع وينزو)، قال ابن الأثير: (خار يخور، إذا ضعفت قوته ووهنت، أي لن يضعف صاحب قوة يقدر أن ينزع في قوسه، ويثبت إلى ظهر دابته).[٤]

وهذا معنى الجبن و«أصله في القتال»[٥]، قال الراغب: (الجبن: ضعف القلب عما يحق أن يقوى عليه)[٦]، وهذا ما فسر به الماوردي قوله تعالى: {فما وهنوا لما أ صابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا} [آل عمران: ١٤٦]، قال: (الوهن: الانكسار بالخوف، والضعف نقصان القوة، والاستكانة الخضوع، ومعناه: فلم يهنوا بالخوف، ولا ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع).[٧]

١- مقاييس اللغة: ٢٢٧/٢.

٢ - أساس البلاغة للزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، ت: مُحَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، ط: ١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م، ٢٦٩/١.

٣ - لسان العرب، مادة خ ور: ٢٦١/٤.

٤ - النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ت: طاهر أحمد الزاوي - محمود مُحَّد الطناحي، ٨٧/٢.

٥ - المخصص لابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ت: خليل إبراهيم جفال: دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م، ٢٧٧/١.

٦ - المفردات في غريب القرآن: ١٨٦/١.

٧ - تفسير الماوردي المسمى (النكت والعيون): ٤٢٨/١.

٧. **الفشل**: قال الفيروز آبادي: "فشل: كَسِلَ، وضَعُفَ، وتَراخَى، وجَبُنَ"[١] قال تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ}[آل عمران:١٥٢]، قال أبو جعفر: (يعني بقوله جل ثناؤه: {حتى إذا فشلتم}: حتى إذا جبنتم وضعفتم).[٢]

هذه هي أهم نظائر الضعف ومرادفاته والتي رأيت فيها زيادة إيضاح وبيان وتوجيه لمفهوم الضعف الذي نحن بصدده.

١ – القاموس المحيط: ١٠٤٢/١.

٢ – تفسير الطبري:٢٨٩/٧.

المبحث الخامس

مقابلات الضعف في القرآن الكريم

ورد في القرآن الكريم الكثير من مقابلات الضعف، والتي توحي بشكل أو بآخر إلى الأساليب الكثيرة المتنوعة التي تقابل الضعف في البشر وتعالجه.

١ – القوة:

تطلق القوة ويراد بها معناها التي يتبادر إلى الذهن وكذلك يراد بها خلافها، فقد ذكر ابن فارس اللغوي رحمه الله في معناها فقال:(القاف والواو والياء أصلان متباينان، يدل أحدهما على شدة وخلاف ضعف، والآخر على خلاف هذا وعلى قلة خير. فالأول القوة، والقوي: خلاف الضعيف. وأصل ذلك من القوى).[1]

وقال الأصفهاني: (القوة تستعمل تارة في معنى القدرة، نحو قوله تعالى: {خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ} [الأعراف: ١٧١]، وتارة للتهيؤ الموجود في الشيء، نحو أن يقال: النوى بالقوة نخل، أي: متهيئ ومترشح أن يكون منه ذلك، ويستعمل ذلك في البدن تارة، وفي القلب أخرى، وفي المعاون من خارج تارة، وفي القدرة الإلهيّة تارة .ففي البدن نحو قوله: {وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ منَّا قُوَّةً} [فصلت: ١٥]، {فَأَعينُوني بقُوَّةٍ} [الكهف: ٩٥]، فالقوّة هاهنا قوّة البدن بدلالة أنه رغب عن القوّة الخارجة، فقال: {ما مَكَّنّي فيه رَبّي خَيْر} [الكهف: ٩٥]، وفي القلب نحو قوله: {يا يَحْيى خُذ الْكتابَ بقُوَّةٍ} [مريم: ١٢] أي: بقوّة قلب .وفي المعاون من خارج نحو قوله: {لَوْ أَنَّ لي بكُمْ قُوّةَ} [هود: ٨٠]).[2]

ثم إن معنى القوة الذي ذكره ابن فارس والذي يشير إلى الشدة والضعف في وقت واحد، ينبغي أن يكون عظة وعبرة للأفراد والشعوب أن لا يغتروا بقوتهم، وألا ييأسوا من ضعفهم وهوانهم فقوتهم وضعفهم بيد الله تعالى.

---

١ – مقاييس اللغة: ٣٦/٥.

٢– المفردات في غريب القرآن: ٤١٩/١.

وكأن اجتماع هذين المعنيين للقوة (الشدة والضعف) وهما متضادان يشير إلى التقرب الزمني الشديد بينهما حيث أن القوة قد تنقلب إلى ضعف بشكل مفاجئ وسريع، وكذلك الضعف على جميع المستويات قد ينقلب إلى قوة وشدة بشكل مثير للانتباه، وهكذا فإن القوة قابلة للتراجع والتلاشي، والضعف قابل للتنامي والاشتداد.

واستخدام القوة مقابل الضعف في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤].

يشير أيضًا إلى هذا المعنى إذ الآية تبين انتقال الإنسان من حالة الضعف إلى حالة القوة، فليس الغرض الوصف، وإنما بيان قدرة الله وفعله كيف يشاء في خلقه، وهو العليم القدير، فينتقل الإنسان من ضعف إلى قوة، ثم من قوة إلى ضعف.

وأما القوة اصطلاحًا: هي الصفة المؤثّرة في الغير أي مبدأ الفعل مطلقًا سواء كان بالإيجاب أو بالاختيار.[١]

وقال الجرجاني رحمه الله: (القوة هي تمكن الحيوان "الكائن الحي" من الأفعال الشاقة فإن كان الكائن نباتا سميت قوته طبيعية، وإن كان حيوانا سميت قوته قوة نفسانية، وإن كان إنسانًا سميت قوته قوة عقلية).[٢]

وَحَقيقَتُهَا كَمَالُ صَلَابَة الْأَعْضَاء لأَدَاء الْأَعْمَال الَّتي تُرَادُ منْهَا.[٣]

١ – كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، ت: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط١– ١٩٩٦م، ٢/١٣٥٤.

٢ – التعريفات للجرجاني: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ): ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ– ١٩٨٣م، ١/١٧٩.

٣ – التحرير والتنوير ١٠/ ٤٤.

وقد وردت كلمة القوة بصيغها المتعددة في القرآن الكريم اثنتين وأربعين مرة في خمس وعشرين سورة[1]، وفي ذلك دلالة على أهمية القوة في حياة الفرد والأمة، سواء كانت مادية أو أدبية أو جسدية أو إيمانية.

٢- **العزم**: العزم في اللغة: (العين والزاي والميم أصل واحد صحيح يدل على الصريمة والقطع. قال الخليل: العزم: ما عقد عليه القلب من أمر أنت فاعله، أي متيقنه).[2]

وقال ابن عاشور: (والعزم إمضاء الرأي وعدم التردد بعد تبيين السداد).[3]

وقد ورد في تسع آيات في القرآن الكريم، أربع منها في سور مكية وخمس في سور مدنية، وتبين أن إطلاق لفظة العزم جاء على عدة أوجه منها: الحزم والقطع والجد والصبر والمسارعة والنشاط والسعي والإصرار وذلك بسياق يناسب المرحلة التي نزلت فيها الآيات.

والعرب تقابل لفظة الوهن بالعزم، ومنه قول علي: (غير نكِلٍ في قَدم، ولا واهنًا في عزم)[4]، ومن مأثور العرب: (إذا تناصرت عليك الخصوم فلن يدفع ذلك غير الله سبحانه، ثم عزم لا يشوبه وهن).[5]

٣ - **العزة**: لغة: عَزَّ الرجل يعز عزا وعزَّةً، إذا قَويَ بعد ذلَّةٍ وصار عزيزًا والعز في الأَصْل القُوَّةُ والشّدَّة والغلَبَة والرّفْعة والامْتناع.[6] والْعزُّ: «ضدُّ الذُّل» وعَزَازَةً بالْفَتْح فَهُوَ عَزِيزٌ: «أَيْ قَويٌّ بَعْدَ ذلَّةٍ»، وقد يأتي بمعنى القلة والندرة يقال عز الشيء فهو عزيز، إِذَا قَلَّ فَلَا يَكَادُ يُوجَدُ[7]، ويأتي

---

١ - انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٥٨٨.

٢ - مقاييس اللغة: ٣٠٨/٤.

٣ - التحرير والتنوير ١٩٠/٤.

٤- النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير ٤٤/٤.

٥ - لباب الآداب: لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، ط١، مكتبة السنة ص٤٤.

٦- ينظر في تاج العروس١٥/٢٢٠.

٧ - مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) ت: يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا، ط: ٥، ١٤٢٠هـ- / ١٩٩٩م ٢٠٨/١.

بمعنى اشتد[1]، قال ابن فارس: (العين والزاء أصل صحيح واحد، يدل على شدة وقوة وما ضاهاهما، من غلبة وقهر).[2] وتأتي بمعنى القهر والغلبة في المحاجة.[3]

واصطلاحًا: العزة: حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، من قولهم: أرض عزاز أي صلبة. والعزيز: الذي يَقهر ولا يُقهر. قال تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجمعة: ٣]، وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨].[4]

وقد يمدح بها تارة: كما في العزة المنسوبة لله ورسوله والمؤمنين، ووجه ذلك أن العزة لله ولرسوله هي الدائمة الباقية، وهي العزة الحقيقية. ويذمّ بها تارة: كعزّة الكفّار: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} [ص: ٢] والعزة التي هي للكفار هي التعزز وقد تستعار العزة للحمية والأنفة المذمومة، وذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ} [البقرة: ٢٠٦].[5]

وعرفها صاحب الظلال –رحمه الله– بقوله: (والعزة الصحيحة: حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس).[6]

٤- **الشدة**: أصل الشدة: (شدة العقد وتدل أيضًا على القوة في الشيء وفي البدن وفي قوى النفس) [7] {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} [الإسراء: ٥].

وفي اللسان: (الشّدَّةُ: الصَّلابةُ، وَهيَ نَقيضُ اللّين تَكُونُ في الْجَوَاهر والأَعراض، وفي الحديث الشريف: "ولن يشاد الدين أحدٌ إ لا غلبه").[8]

---

١ – لسان العرب: ٣٧٤/٥.

٢ – مقاييس اللغة: ٣٨/٤.

٣ تاج العروس: ٢٢٠/١٥.

٤ – ينظر المفردات للراغب الأصفهاني ٥٦٣/١.

٥ – تاج العروس ٢٢٠/١٥.

٦ – في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، ط: ١١، ١٤٠٥ م– ١٩٨٥هـ، (٢٩٣٠/٥)

٧ – مقاييس اللغة ١٧٩/٣.

٨ – البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١٦/١.

والشدة: النجدة وثبات القلب. وكل شديد شجاع. والشَّدة بالفتح: الحملة الواحدة، والشَّد: الحمل، وشد على القوم في القتال يشد ويشد شدًّا وشدودًا: حمل، وفي الحديث: "ألا تشد فنشد معك؟"). [1]

---

١ - لسان العرب ٢٣٢/٣.

الفصل الثاني

أنواع الضعف البشري في ضوء القرآن الكريم

المبحث الأول: ما يتعلق بالفرد.

المبحث الثاني: الأسباب الخارجية للضعف البشري.

الفصل الثاني

أنواع الضعف البشري في ضوء القرآن الكريم

الناظر في الآيات القرآنية التي اشتملت على الضعف، يرى أن هذا الضعف بعضه قد يلحق بالفرد وبعضه قد يلحق بالجماعة.

وبالتالي ينقسم الضعف بهذا الاعتبار إلى نوعين وقد قسم إلى مبحثين: النوع الأول: وهو ما يتعلق بالفرد. والنوع الثاني: وهو ما يتعلق بالجماعة. وقد يكون هذا الضعف حسيًا أو معنويًا في كلا النوعين.

المبحث الأول

ما يتعلق بالفرد

يتحدث هذا العنوان عن نوع من أنواع الضعف الذي يلحق الفرد والذي بعضه قد يكون ضعفًا ذاتيًا وهو قاسم مشترك بين كل البشر، وبعضه قد يكون طارئًا مكتسبًا يكتسبه الإنسان من خلال أقواله وتصرفاته التي يكتسبها أو يتأثر بها فيقع في ساحة الضعف. وهذا النوع يندرج تحته ثمانية مطالب وهي:

المطلب الاول: **الضعف البدني (الجسمي)**.

المطلب الثاني: **الضعف العلمي**.

المطلب الثالث: **الضعف العقلي**.

المطلب الرابع: **ضعف العزيمة والإرادة**.

المطلب الخامس: **الضعف النفسي**.

المطلب السادس: **ضعف الإيمان واليقين**.

المطلب السابع: **ضعف الدين**.

المطلب الثامن: **ضعف المعتقد**.

المطلب الأول

الضعف البدني

عناصر الضعف التي تحيط بالإنسان تظهر في نفسه وسلوكه كما تظهر في بنيته وبدنه، فرب جرثومة لا يدركها الطرف قتلته أو جعلته طريح الفراش يصرخ أو يصيح، ويتلوى من شدة الألم، أو خثرة من الدم تجمدت في عروقه فجعلته ساكنًا لا يقوى على شيء، ولربما أسرع لنجدته أمهر الأطباء، وجلبوا له ما ملكوا من دواء، فما استطاعوا أن يشفوه مما نزل به من داء، أو يصرفوا عنه ما حل من بلاء. ورب جرعة سم قتلته وهو في أوج قوته، ورب إبرة أصابت منه مقتلًا فسقط صريعًا، ورب ريح باردة أقعدته أو قتلته، ورب لفحة سموم فعلت فيه مثل ذلك.[1]

فقول الله تعالى: {وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] بإطلاق كلمة الضعف فالأنسب في تفسير أوجه الضعف في الآية الكريمة: حملها على إطلاقها لتشمل جوانب الضعف النفسية والبدنية والعقلية والعاطفية والتركيبية، وبالتالي فهو ضعيف البدن والبنية بسبب ما يعرض له من الآفات والأسقام، يقول أبو السعود في قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس: ٦٨] يقول: (فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والإدراك).[2]

---

١ – الأخلاق الإسلامية: حبنكة، ٣٧٢ بتصرف

٢٢ – تفسير أبي السعود: = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٧ /١٧٧.

ثم إن لفظ الوهن في القرآن قد يراد به الضعف الجسدي كما في قوله تعالى: {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ} فقوله وهنًا على وهن أي ضعفًا على ضعف، قاله الحسن[1] وعطاء.[2] أي ضعف الجسم على ضعف العزم.[3]

وورد لفظ الوهن مرتين في القرآن الكريم للدلالة على ضعف الجسم أو البدن، الأولى وهن الحامل، والأخرى: وهن العظم، والوهن الذي يلحق بالجسم سببه العوارض التي تعرض للجسم، سواء أكانت طبيعية، كالحمل أو الكبر، أو طارئة كالمرض فهو يصرع الإنسان في أوهن أشكاله ومسبباته فهو يقهر الإنسان ويوهن صحته ويحد من نشاطه، فيصبح عاجزًا ضعيفا لا يقوى على رعاية نفسه.

---

١ – الحسن البصري بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، مولى زيد بن ثابت، وكانت أم الحسن مولاة لأم سلمة أم المؤمنين المخزومية. كان من سادات التابعين وكبرائهم وروى عن: عمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة. وخلق من الصحابة وروى عن: خلق من التابعين. ومولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ﷺ بالمدينة، ويقال إنه ولد على الرق، وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة. ينظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، ت: إحسان عباس، دار صادر — بيروت، ٧٢/٢.، وسير أعلام النبلاء ٥٦٣/٤.

٢ – الامام شيخ الاسلام، مفتي الحرم، أبو مُحَمَّد القرشي ،مكي تابعي ثقة وكان مفتي أهل مكة في زمانه وكان أسود ولدفي أثناء خلافة عثمان. حدث عن: عائشة، وأم سلمة، وأم هانئ، وأبي هريرة، وابن عباس، وحكيم بن حزام، ورافع بن خديج وغيرهم كثير من الصحابة، حدث عنه: مجاهد بن جبر، وأبو إسحاق السبيعي، وأبو الزبير، وعمرو بن دينار، والقدماء، والزهري، وقتادة، وعمرو بن شعيب، ومالك بن دينار ، قال ابن سعد كان ثقة عالماً كثير الحديث انتهت إليه الفتوى بمكة وقال أبو حنيفة ما لقيت أفضل من عطاء وقال ابن عباس وقد سئل عن شيء يا أهل مكة تجتمعون علي وعندكم عطاء ،وقيل إنه حج أكثر من سبعين حجة ،قال حماد بن سلمة: حججت سنة مات عطاء سنة أربع عشرة ومائة .

ينظر: سير أعلام النبلاء ٧٨/٥. ومعرفة الثقات للعجلي : أحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي ، ت : عبد العليم عبد العظيم البستوي ،مكتبة الدار – المدينة المنورة ،ط:١، ١٤٠٥ — ١٩٨٥ ،١٣٥/٢،وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني ،ت: عبد الفتاح أبو غدة ،مكتب المطبوعات الإسلامية/دار البشائر ،١٤١٦ هـ ، حلب / بيروت ،٢٦٦/١.

٣ – تفسير الماوردي =النكت والعيون: ٣٣٤/٤.

فالوهن هو الضعف بعد القوة، والشيء الواهن الذي في قوله تعالى {وهنًا على وهن} هو بدن المرأة. {حملته أمه وهنًا على وهن} يعني ضعفًا على ضعف لأن الحمل في الابتداء أيسر عليها، فكلما ازداد الحمل يزيدها ضعفًا على ضعف.[1] وهذا الضعف الحاصل هو بسبب الحمل والذي تزداد فيه المشقة حينًا بعد حين، وقد أسهب أهل التفسير بتفسير وهن الحامل بالضعف الذي يلحق بها أو بجنينها وبتزايد هذا الضعف تارة بعد أخرى، يقول ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز: (وفيه إشارة إلى مشقة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل إشارة إلى ضعف الولد وضعف الأم معه، ويحتمل أن أشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف، فكأنه لم يعين ضعفين بل كأنه قال حملته أمه والضعف يتزايد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمره).[2]

يقول الإمام السعدي -رحمه الله- في ذلك: ({حملته أمه وهنا على وهن} أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد).[3]

ولقد أوضح ذلك الإمام الماوردي رحمه الله بقوله: (ثم فيه على هذا التأويل ثلاثة أوجه: أحدها: ضعف الولد على ضعف الوالدة، قاله مجاهد. الثاني: ضعف نطفة الأب على نطفة الأم، قاله ابن بحر[4]. الثالث: ضعف الولد حالًا بعد حال فضعفه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم

---

١ - بحر العلوم للسمرقندي: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي: دار الفكر - بيروت: ت: د. محمود مطرجي، ٢٣/٣.

٢ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) ت: عبد السلام عبد الشافي محمد: دار الكتب العلمية — بيروت، ط١- ١٤٢٢هـ-، ٣٤٩/٤.

٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق: مؤسسة الرسالة: ط١ - ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠ م، ٦٤٨/١

٤ . ترجمة ابن بحر : محمد بن بحر الأصفهاني، أبو مسلم: وال، من أهل أصفهان. معتزلي. من كبار الكتاب. كان عالما بالتفسير وبغيره من صنوف العلم، وله شعر. ولي أصفهان وبلاد فارس، للمقتدر العباسي، واستمر إلى أن دخل ابن بويه أصفهان سنة ٣٢١ هـ فعزل. من كتبه (جامع التأويل) في التفسير، أربعة عشر مجلدا،(٢٥٤ - ٣٢٢ هـ) ينظر : الأعلام: الزركلي الدمشقي ،٥٠/٦.

عظمًا سويًا ثم مولودًا ثم رضيعًا ثم فطيمًا، قاله أبو كامل. ويحتمل رابعًا: ضعف الجسم على ضعف العزم).[1]

ويقول الشيخ الشعراوي -رحمه الله- في ذلك: (ضعفًا على ضعف، والمرأة بذاتها ضعيفة، فاجتمع لها ضعفها الذاتي مع ضعف بسبب الجنين الذي يتغذى منها، ويكبر في أحشائها يوما بعد يوم).[2]

وأما وهن العظم والذي يتعلق بالجسم أيضًا كما في قوله تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلام: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: ٤]، (والوهن: الضعف، وإنما ذكر ضعف العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن دل على ضعف جميع البدن، لأنه أشد ما فيه وأصلبه، فوهنه يستلزم وهن غيره من البدن).[3]

وقد أوضح صاحب التحرير والتنوير هذا التلازم بقوله: (لأن العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه فلا يبلغه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه).[4]

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة.[5] وقد قرنه بغيره من الأعراض والتي تؤكد على ضعف البدن من شيب الرأس وخفي النداء.

يقول الإمام الرازي رحمه الله: (خفي صوته لضعفه وهرمه كما جاء في صفة الشيخ «صوته خفات وسمعه تارات»، فإن قيل: من شرط النداء الجهر فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيا؟ والجواب من وجهين:

---

١ – تفسير الماوردي = النكت والعيون: ٣٣٤/٤

٢ – تفسير الشعراوي – الخواطر: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ): مطابع أخبار اليوم، ١١٦٤١/١٩

٣ – أضواء البيان: ٣٦٠/٣.

٤ – التحرير والتنوير: ابن عاشور ٦٤/١٦.

٥ – تفسير ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩ م، ٥ /٢١٢.

الأول: أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفًا لنهاية الضعف بسبب الكبر فكان نداءً نظرًا إلى قصده وخفيًا نظرًا إلى الواقع.
الثاني: أنه دعا في الصلاة لأن الله تعالى أجابه في الصلاة لقوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ} [آل عمران: ٣٩] فكون الإجابة في الصلاة يدل على كون الدعاء في الصلاة فوجب أن يكون النداء فيها خفيا).[١]

(فأثر الضعف: إما أن يظهر في الباطن أو في الظاهر. والضعف الذي يظهر في الباطن يكون أقوى مما يظهر في الظاهر؛ فلهذا السبب ابتدأ ببيان الضعف الذي في الباطن وهو قوله: {وهن العظم مني}، وتقريره هو أن العظام أصلب الأعضاء التي في البدن وجعلت كذلك لمنفعتين: إحداهما: لأن تكون أساسًا وعمدًا يعتمد عليها سائر الأعضاء الأخر إذ كانت الأعضاء كلها موضوعة على العظام والحامل يجب أن يكون أقوى من المحمول. والثانية: أنه احتيج إليها في بعض المواضع لأن تكون جُنةً يقوى بها ما سواها من الأعضاء بمنزلة قحف الرأس وعظام الصدر، وما كان كذلك فيجب أن يكون صلبًا ليكون صبورًا على ملاقاة الآفات بعيدًا من القبول لها، إذا ثبت هذا فنقول: إذا كان العظم أصلب الأعضاء فمتى وصل الأمر إلى ضعفها كان ضعف ما عداها مع رخاوتها أولى، ولأن العظم إذا كان حاملًا لسائر الأعضاء كان تطرق الضعف إلى الحامل موجبا لتطرقه إلى المحمول فلهذا السبب خص العظم بالوهن من بين سائر الأعضاء. وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر).[٢]

وأما من ناحية الإعجاز العلمي فنلاحظ الإعجاز في استخدام كلمة «الوهن» بدل كلمة العجز أو الضعف أو اللين؛ وذلك لأن وهن العظم هو انكسار لقوته وتناقض لكثافته،

---

١ – مفاتيح الغيب: ٥٠٧/٢١.

٢– مفاتيح الغيب: الرازي٢١/٥٠٧.

بعد أن تبلغ ذروتها من حيث القوة والكثافة في سن الثلاثين إلى الأربعين، ثم تبدأ تتناقص كثافتها وتضعف قوتها بعد الأربعين، ويزداد التناقص كلما تقدم الإنسان في العمر.[1]

وذلك لأنه مع مرحلة الشيخوخة تقل عمليات البناء، وتزداد عمليات الهدم، فتتناقص كثافة العظام، وتضعف قوتها، وتلين صلابتها، ويصاب النسيج العظمي بالهشاشة؛ مما يجعله عرضة سهلة للكسر.[2]

المطلب الثاني

الضعف العلمي

تؤكد الآيات القرآنية أن العلم في البشر ليس علمًا أصليًا، إنما هو محض فضل من الله تعالى وذلك بأن هيأ هذا الكائن البشري ليتلقى العلم بما أودع فيه من طاقات وقدرات،قال الله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء ٨٥]، فهذه الآية تؤكد على ضعف علم الإنسان وأن علمه هو من فضل الله عليه، فعلمه قليل وهو مع ذلك محفوف بآفتين جهل قبل العلم {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شيئًا...} [سورة النحل: ٧٨] ونسيان بعده فهو لا يعلم المستقبل حتى في تصرفاته الخاصة {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا} [لقمان: ٣٤].

وهذا حال البشر من لدن أبيهم آدم {وَلَقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ منْ قَبْلُ فَنَسيَ وَلَمْ نَجدْ لَهُ عَزْمًا} [سورة طه: ١١٥]، فإنه بعد ما عهد الله إليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي، فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ إلى الاستعانة بربه في أن يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان.[3]

---

١ - التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم، د. زهير رابح قرامي، موقع مجلة الإعجاز

٢ - لا للشيخوخة المبكرة، د. سامي محمود ٦١

٣ - الرازي: ١٠٥/٢٢.

ثم إن علم الإنسان قاصر محدود، قال الله تعالى عن علم الإنسان مقارنة بعلم الله: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} [البقرة: ٢٥٥]، هذه الجملة السامية بيان لنقصان علم المخلوق بجوار علم الخالق، والعلم المراد به المعلوم، أي لا يحيطون بشيء من المعلومات التي يعلمها الله سبحانه وتعالى. والإحاطة معناها هي العلم الكامل بالأمر فيدركه العقل إدراكًا ويستولي عليه استيلاء، كما تحيط الدائرة بكل أقطارها وما في داخلها. وهذه الجملة السامية تدل على نقص العلم البشرى من ناحيتين:

أولاهما: أن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يعلم كل شيء، بل إن ما يجهل أضعاف كثيرة مما يعلم، كما قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٣].

الثانية: أن الجزء الذي يعلمه البشر من الأشياء علمه فيه ناقص كل النقص، وهذا ما قرره سبحانه في قوله تعالى: (ولا يحيطون بشيء من علمه) أي أنهم لا يعلمون شيئًا واحدًا علم إحاطة واستغراق لكل ما يشتمل عليه، وعلم الإحاطة هو العلم الكامل. ولقد فسره الأصفهاني بقوله: (الإحاطة بالشيء علمًا هي أن تعلم وجوده، وجنسه، وكيفيته، وغرضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا لله تعالى).[١]

ثم إن علم الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذي يشاؤه الله سبحانه وتعالى، ولذلك كان الاستثناء في قوله سبحانه: {إلا بما شاء} إذ إنه إذا كان علم الإحاطة الكامل لشيء لا يمكن أن يكون إلا لله العليم الخبير، فالله سبحانه يعطي البشر من العلم ببعض الأشياء بالقدر الذي يريده سبحانه ويقدره، وقد خلق البشر على استعداد له.

١ - زهرة التفاسير: ٢/٩٣٩.

المطلب الثالث

الضعف العقلي

يعرف الضَّعْفُ العقلي بأنه: «نقصٌ أو وهنٌ ظاهرٌ في العقل لا يبلغ بصاحبه مبلغ الجنون».[1]

يقول الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدير} [النحل: ٧٠]. يخبر تعالى أنه هو الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طورًا بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ أي: أخسّه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الطفل ولهذا قال: {لِكَيلا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قدير} أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقا بعد خلق كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَديرُ} [الروم: ٥٤].[2]

وقد عبر عن هذا الضعف العقلي في موقف آخر بالتنكيس فقال تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس: ٦٨] أي يعود إلى الحالة التي ابتدأ منها حالة الضعف، ضعف الجسم، وضعف العقل.[3]

{وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ} وهي قراءة عاصم وحمزة، والتنكيس جعل الشيء أعلاه أسفله وقرأ الباقون {نَنْكُسه} في الخلق أي: نقلبه فيه، بمعنى من أطلنا عمره نكسنا خلقه فصار بدل القوة ضعفًا، وبدل الشباب هرمًا، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل

---

١ - معجم اللغة العربية المعاصر: ١٣٦٢/٢.

٢ - تفسير السعدي: ٤٤٤.

٣ - تفسير غريب القرآن: كاملة بنت مُحَمَّد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري: دار بن حزم، ط١، ٢٠٠٨ : ٦٨/٣٦.

وعلم، ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوله ويعقل ويعلم ماله وما عليه فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله، قال عز وجل: {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئًا} [الحج: ٥]. [١]

وقال تعالى مشيرًا إلى حالة الاضطراب السلوكي والعقلي الذي ينتاب بعض الأفراد في مرحلة الشيخوخة، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئًا} [الحج: ٥].

فبعد أن أشار القرآن في هذه الآية إلى مراحل النمو قبل الميلاد من نطفة إلى علقة إلى مضغة، قام بذكر مراحل النمو بعد الميلاد من الطفولة إلى الرشد حيث يكتمل النمو ويبلغ الإنسان أشده وكمال نضجه، ثم الشيخوخة حيث يبدأ الإنسان في الضعف جسميًا وعقليًا، فقد أشار القرآن في هذه الآية إلى ما ينتاب بعض الناس في مرحلة الشيخوخة من اضمحلال قدراتهم العقلية، وما يظهر عليهم من أعراض ذهان الشيخوخة وأشار أيضًا سبحانه وتعالى إلى هذه الحالة من الاضطراب العقلي والسلوكي التي تنتاب بعض الشيوخ.[٢]

المطلب الرابع

ضعف العزيمة والإرادة

نستطع أن نقول إن هذا الضعف – ضعف العزيمة والإرادة في الكائن البشري – هو الذي دفع إبليس إلى إغواء البشر حينما رأى ضعف آدم، فقال مخاطبا ربه: {...لأَحْتَنِكَنَّ

١- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ) ت: يوسف علي بديوي: دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨، ٣/١١٠

٢ – القرآن وعلم النفس: د.مُحَّد عثمان نجاتي، دار الشروق – القاهرة، ط: ٧، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م، ٢٦١.

ذُرِّيَّتَهُ إِلا قَلِيلا} [الإسراء: ٦٢] وذلك لأنه وسوس إلى آدم فلم يجد له عزمًا، فقال: بَنُو هذا مثلُه في ضعف العزيمة، وهذا معنى قول الحسن.[١]

أراد بقوله ما ورد عن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "لما صوَّر الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك".[٢]

لأن هذه طبيعته التي خلقه الله عليها؛ وذلك لأنه أدرك إبليس أنه يؤتى من قبل شهوته وهواه وأنه أوتي غِرة بحيث يكون قابلا للانخداع لا يستمسك، كما قال الله تعالى في آدم: {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} [سورة طه: ١١٥].[٣]

إذًا فقد يكون هذا الضعف ناشئًا عن الطبيعة البشرية، أو قد يكون دافعه التثاقل عن أوامر الله تعالى كما في شأن المنافقين، قال تعالى: {...وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٤٦].

هذه الآيات دليل واضح على أن تخلف المنافقين عن المشاركة في غزوة تبوك كان بغير عذر واضح ولا صحيح، والدليل المنطقي والواقعي: هو تركهم الاستعداد للمشاركة في هذه المعركة الخطيرة، يقول الله مخبرًا عن شأنهم: إن المنافقين المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم لو قصدوا الخروج معك إلى القتال لاستعدوا وتأهبوا له بإعداد السلاح والزاد والراحلة ونحوها، وقد كانوا مستطيعين ذلك، ولكن كره الله انبعاثهم، أي أبغض خروجهم مع المؤمنين، لما فيه من أضرار، فثبطهم، أي أخرهم بما أحدث في قلوبهم من المخاوف، وفي نفوسهم من الكسل والاسترخاء، وقيل لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم: اقعدوا مع القاعدين من النساء والأطفال والمرضى والعجزة الذين شأنهم القعود في البيوت، كما قال تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ

---

١ - التفسير البسيط للواحدي: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ): عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ- ١٣/٣٨٨.

٢ - "أخرجه مسلم كتاب: البر والصلة، باب. خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، رقم الحديث(٢٦١١)، ٤/٢٠١٦

٣ - زهرة التفاسير: ٨/٤٤١٥.

فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨٧] أي: القاعدين المتخلفين خوفًا وجبنًا ثم ثبت الله المؤمنين وبين أن عدم خروج المنافقين معهم لتبوك مصلحة للجيش، فلو خرج هؤلاء المنافقون ما زادوا المؤمنين شيئًا من القوة والمنعة، بل زادوهم اضطرابًا في الرأي وفسادًا في العمل، وضعفًا في القتال، لأن هذا هو شأن النفوس المريضة التي تكره لكم الخير، وتحب لكم الشر.[1]

ولو نظرنا إلى حال بني إسرائيل في القرآن ما الذي أقعدهم عن متابعة موسى في دخول الأرض المقدسة، لوجدنا أنه ضعف العزيمة والإرادة وبذلك حرموا من دخولها ووقع عليهم التيه، كما قال الله تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٦].

القول هنا هو قول الله تعالى، كما يدل على ذلك الحكم الذي حكم به، فإنه لله تعالى وحده، وكما يدل عليه من بعد ذلك قوله: {فلا تأس على القوم الفاسقين}.

والفاء في قوله تعالى: {فإنها محرمة} هي فاء الإفصاح، أي التي تفصح عن شرط مقدر، والمعنى: أنهم إذا كانت حالهم كذلك من الخور، وضعف العزيمة، والخوف من أعدائهم فإنهم لا يدخلون الآن لضعف بأسهم وشكيمتهم، فإنها محرمة عليهم تحريمًا واقعيًا، لا تحريمًا حكميًا تكليفيًا، {يتيهون في الأرض} أي: يكونون في الأرض تائهين متحيرين يضطرب عيشهم وحياتهم، ولا يستقر مقامهم، بل يعيشون فرادى هائمين على وجوههم، حتى يتربى البأس في قلوبهم.

هذا خلاصة معنى النص الكريم، وهو يدل على أن الله تعالى بسنته التي سنها سبحانه وتعالى في الكون لا يمكنهم من أن يدخلوها إلا إذا غيروا، وبدلوا حالهم من بعد الضعف قوة، ومن بعد الخور عزيمة.[2]

---

١ – ينظر التفسير الوسيط: د.وهبة بن مصطفي الزحيلي: دار الفكر – دمشق د وهبة بن مصطفي الزحيلي: دار الفكر – دمشق، ط: ١، ١٤٢٢ هـ–، ١/ ٨٦٧، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط: ١، ٦/٣٠٩.

٢ – زهرة التفاسير: ٤/٢١١٩.

ومن هنا عاتب الله المتقاعسين والمتكاسلين الذين رضوا بالذل والهوان وتقاعسوا عن اللحاق بالمؤمنين في ديار الهجرة وذلك بسبب ضعف عزائمهم.

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧]

والمعنى: إن الذين تتوفاهم الملائكة؛ وهم ظالمون لأنفسهم بالجبن والخور، وفقدان الأمل؛ وضعف العزيمة، وعدم الهجرة {قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ} أي: قال الملائكة للمتوفين: في أي شيء كنتم؟ وهو سؤال تقريع وتوبيخ؛ حيث إنه كان في مقدورهم أن يقووا عزائمهم، ويهاجروا من أوطانهم، ويتخلصوا من ذلهم وجبنهم، ولا يحيوا حياة السوائم. وربما أريد بظالمي أنفسهم: المنافقين؛ الذين بخلوا وتركوا الهجرة بدينهم مع الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه، {قَالُواْ} جوابًا على سؤال ملائكة الموت {كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ} أي: عاجزين عن القيام بأعباء العبادة بين كفار مكة وصناديد قريش {فِي الأَرْضِ} أرض مكة {قَالْوٰا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا} [النساء: ١١١] أي: قال لهم الملائكة: أليست أرض الله - على سعتها ورحبها - تسعكم إذا هاجرتم فيها، وفررتم بدينكم؛ كما فعل من هاجر إلى المدينة، وإلى الحبشة؟.[١]

وبالتالي يتبين أن ضعف الإرادة في البشر هو باب كبير يدخل من خلاله إبليس وجنوده ليحجزهم عن الخير ويجعلهم يتقاعسون عن تنفيذ أوامر الله تعالى.

---

١ - أوضح التفاسير: مُحَمَّد مُحَمَّد عبد اللطيف بن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ): المطبعة المصرية ومكتبتها ط: ٦، رمضان ١٣٨٣ هـ- فبراير ١٩٦٤ م، ١/١١٠.

المطلب الخامس

الضعف النفسي

الضعف خاصية من خصائص النفس الإنسانية، فالإنسان لا يكاد يستقر على شيء، ولا يثبت على قاعدة بل يستجيب للمؤثرات المتعارضة، ويتلون بألوان مختلفة، ويبدو بوجوه متعددة.[1]

ومن أبرز العلامات التي تبرهن على ضعف النفس الإنسانية قابليتها لأن تقع في السوء والمعصية كما جاء في قوله تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: ٥٣]، فقوله: {إن النفس لأمارة بالسوء} من حيث (إنها بالطبع مائلة إلى الشهوات فتهم بها، وتستعمل القوى والجوارح في إثرها كل الأوقات).[2]

وقيل: إنه أشار بذلك إلى أن عدم التعرض لم يكن لعدم الميل الطبيعي بل لخوف الله تعالى {إِنَّ النَّفْسَ البشرية} التي من جملتها نفسي في حد ذاتها {لَأَمَّارَةٌ} لكثيرة الأمر بِالسُّوءِ أي: بجنسه، والمراد أنها كثيرة الميل إلى الشهوات مستعملة في تحصيلها القوى والآلات.[3]

فخلق الإنسان من ضعف يقتضي ضعف نفسه أيضًا، (فرب نظرة حلوة ملكت قلبه وهواه، وأسرته وهو في عنفوان قواه، ورب شهوة أخضعته وأذلته، وفي دار معرّة وهوان أحلّته).[4]

يقول الله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨]، قال أبو جعفر: (يعني جل ثناؤه بقوله: {يريد الله أن يخفف عنكم}: يريد الله أن ييسر عليكم، بإذنه لكم في نكاح الفتيات المؤمنات إذا لم تستطيعوا طولا لحرة {وخلق الإنسان ضعيفا} يقول: يسر ذلك عليكم إذا كنتم غير مستطيعي الطول للحرائر، لأنكم خلقتم ضعفاء عجزة

---

١ – طبيعة النفس البشرية في مرحلة التكليف في القرآن الكريم: ١٠، عاطف شواشرة، وسهاد بني عطا، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد ٢٤(١)٢٠١٠.

٢ – تفسير البيضاوي: ١٦٧/٣.

٣ – تفسير الألوسي: ٤/٧.

٤ – الأخلاق الإسلامية: ٣٧٢.

عن ترك جماع النساء، قليلي الصبر عنه، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات عند خوفكم العنت على أنفسكم، ولم تجدوا طولا لحرة، لئلا تزنوا، لقلة صبركم على ترك جماع النساء).[1]

وهذا من مقتضيات الضعف البشري لأن إرادته قد لا تستطيع ضبط نفسه تجاه شهوته الثائرة، حينما يكون بحاجة جسدية إلى الزواج، والنفس قد تقوى وقد تضعف، وضعفها هو ميلها عن الطريق المستقيم.

قال الله تعالى حكاية عن يوسف: {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة يوسف: ٣٣]، قال: إلا يكن منك أنت العون والمنعة، لا يكن منّي ولا عندي.[2]

{أصب إليهن}: (أي أمل إلى إجابتهن أو إلى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية).[3] وفي تفسير آخر: (أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز).[4] {وأكن من الجاهلين}: (أي: من صنف السفهاء الذين تستخفهم أهواء النفس فيعملون السوء بجهالة، وهي ما يخالف مقتضى الحلم والأناة، أو مقتضى العلم والحكمة).[5] ولذلك كان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام: "إنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة، وإني لا أثق إلا

---

١ – تفسير الطبري: ٢١٥/٨.

٢ – الطبري: شاكر ٨٩/١٦.

٣ – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) : دار إحياء التراث العربي – بيروت، ٢٧٤/٤، وتفسير المظهري: المظهري، مُحَمَّد ثناء الله، ت: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية – الباكستان، الطبعة: ١٤١٢ هـ-، ٣٦٤/٥.

٤ – تفسير السعدي: ٣٩٧/١.

٥ – تفسير المنار: مُحَمَّد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ): الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٩٠ م، ٢٤٦/١٢.

برحمتك فاغفر لي ذنوبي كلها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم".[1]

وكذلك فإن من طبيعة هذه النفس البشرية أنها ضعيفة عند التعرض للابتلاء، وتطلب العون والخلاص والنجاة من الله تعالى، ثم بعد زوال الخطر تعود للشرك والتجبر والكفر، قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [يونس: ١٢].

هذا بيان لغريزة الإنسان العامة وشأنه فيما يمسه من الضر فيبين الخالق أن الإنسان إذا أصابه من الضر ما يشعر بشدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق وغيره من أنواع التهلكة، أو شدة مسغبة، أو إعضال داء، دعانا ملحًّا في كشفه عنه في كل حال يكون عليه: دعانا مضطجعًا لجنبه، أو قاعدًا في كسر بيته، أو قائمًا على قدميه حائرًا في أمره، فهو لا ينسى حاجته إلى رحمة ربه، ما دام يشعر بمس الضر ولذعه له، يعلم من نفسه العجز عن النجاة منه، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الإنسان فيها أشد عجزًا وأقوى شعورًا بالحاجة إلى ربه فالتي تليها فالتي تليها. وثَم حالة رابعة هي سعيه لدفع الضر من طريق الأسباب، فلم تذكر لأن الإنسان غير المؤمن قلما يتذكر ما أودع في فطرته من الإيمان بربه ذي السلطان الغيبي الذي هو فوق جميع الأسباب، ويشعر بحاجته إلى اللجوء إليه، ودعائه والاستغاثة به، إلا عند عجزه عن الأسباب المسخرة له.[2]

---

١ - شعب الإيمان للبيهقي: ٢/٢١١، المعجم الكبير للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة ط: ٢، ٥/١١٩-/١٥٧

٢ - تفسير المنار: ١١/٣٥٦-٣٥٧.

المطلب السادس

ضعف الإيمان واليقين

الإيمان كما هو مقرر عند أهل السنة والجماعة يزيد وينقص، وبعبارة أخرى يقوى ويضعف. ثم إن ضعف الإيمان يؤدي إلى ضعف اليقين والذي هو فساد التصور لفعل الله في البشر.

{وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [الشورى: ٤٨].

لقد أشار سبحانه إلى وهن عزائم الإنسان وضعف عقائده فقال: (وَإِنَّا من مقام عظيم جودنا إذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ تفضلًا منَّا إياه وتكريمًا بلا سبق استحقاق منه رَحْمَةً شاملة محيطة بعموم أعضائه وجوارحه قد فَرِحَ بها وانبسط بحلولها، وَإِنْ تُصبْهُمْ حينًا من الأحيان سَيِّئَةٌ من السيئات مؤلمة لهم مع أنها بما قَدَّمَتْ أَيْديهمْ وبشؤم ما اقترفوا لأنفسهم من المعاصي والآثام الجالبة لأنواع المضرات؛ فَإِنَّ الْإِنْسانَ المجبول على النسيان حينئذ كَفُورٌ مسرع إلى الكفران مبادر إلى الكفر والنسيان كأنه لم ير منا الإنعام والإحسان قط فكيف تكفرون بوفور نعمة الحق).[١]

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١].

نزلت في أعراب كانوا يقدمون على رسول الله -ﷺ- المدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا قدم المدينة، فإن صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرًا حسنًا، وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن إليه وقال: ما أصبت مذ دخلت في ديني هذا إلا

١ - الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ): دار ركابي للنشر - الغورية، مصر، ط١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩م، ٢٩٣/٢

خيرًا، وإن أصابه وجع المدينة وولدت امرأته جارية وأجهضت رماكه[1] وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت مذ كنت على دينك هذا إلا شرًا، فينقلب عن دينه، وذلك الفتنة.[2]

والمعنى أن هذا الفريق يعبد الله على ظاهر من الإيمان لم يتمكن الإيمان من قلبه، وفي التعبير بـ «الحرف» دقة بالغة في تصوير الحالة النفسية لمن كان شأنه هكذا، والحرف لغة: الطرف، وهو حافة الشيء. والواقف عليه لا يقر له قرار، وإن الخيال ليكاد يجسم هذا «الحرف» الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفتهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف بالتزعزع، لأنها تنطبع في الحس وتتصل منه بالنفس.[3]

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران: ١٥٦].

الإشارة في هذه الآية: لا ينبغي للأقوياء من أهل اليقين أن يتشبهوا بضعفاء اليقين، كانوا علماء أو صالحين أو طالحين، حيث يقولون لإخوانهم إذا سافروا لأرض مخوفة أو بلد الوباء: لو جلسوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وما دروا أن الله قدر الآجال كما قدر الأرزاق وجميع الشؤون والأحوال، وعين لها أوقاتا محدودة في أزله، فكل مقدور يبرز في وقته، (ما من نفس تبديه، إلا وله قدر فيك يمضيه).[4]

١ . معنى أجهضت رماكه : الرمكة: الفرس والبرذونة التي تتخذ للنسل ، ويقال رمك الرجل: إذا هزل وذهب ما في يديه وهذه دابة رامكة، وقد رمكت ترمك رموكا .ينظر لسان العرب ٤٣٤/١٠ ،و الشوارد = ما تفرد به بعض أئمة اللغة : رضي الدين الحسن بن مُحَمَّد بن الحسن القرشي الصغاني (المتوفى: ٦٥٠هـ) ،ت: مصطفى حجازي، ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية — القاهرة ،ط:١،، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ١١٦/١.

٢ - تفسير الثعلبي: ٩/٧.

٣ - التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، مطابع الشروق ص٤٥.

٤ - الحكم العطائية: ابن عطاء الله السكندري، ط: ١، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، ٥٠.

يقول ابن عجيبة –رحمه الله– في تفسيره: (اعلم أن الروح لها أطوار كأطوار البشرية، من الضعف والقوة شيئًا فشيئًا، باعتبار قوة اليقين، والترقي إلى العلم بالله ومشاهدته، فتكون أولًا صغيرة العلم، ضعيفة اليقين، ثم تتربى بقوت القلوب وغذاء الأرواح).[1]

المطلب السابع

ضعف الدين

إن من علامات ضعف الوازع الديني في البشر والذي توعدهم الله بالعقوبة عليه، أن يبادر الإنسان إلى تنبيه غيره وإرشاده ونصحه ويغفل هو عن نفسه ويدعها في غيها وضلالها.

ولذلك جاء الخطاب من الله تعالى لهذا الصنف من البشر بقوله: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤].

هذا خطاب لبني إسرائيل في أمر يفعله علماؤهم، ويرضى به سائرهم، فيلامون جميعًا عليه، وهو خطة يسير عليها أسلافهم، ويرضى عنها أخلافهم، فصح أن يخاطب بها جميعهم، إذ هو عيب فيهم سلفًا وخلفًا، وهو عيب الناس إذا ضعف وازع الدين، وغلب عليهم حب الدنيا، وهو أن يأمروا الناس بالحقائق الدينية، ويدعونهم إليها، ولا يأخذون بهديها، وتلك إحدى صفات النفاق، وهي شأن الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون ما أنزل الله تعالى، فيكون قولهم مخالفًا لفعلهم {كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}.[2]

وقد شبه الله تعالى ضعف الدين والإيمان بحال تلك المرأة الحمقاء التي نقضت غزلها بعد إحكامه وإتقانه، (وقد ذكر من قصتها أنها كانت امرأة خرقاء مختلة العقل، ولها جوار، وقد اتخذت مغزلًا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدر ذلك، فكانت تغزل هي

---

١ – البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة الطبعة: ١٤١٩ هـ–، ٥/١١بتصرف

٢ – زهرة التفاسير: ١/٢١٥.

وجواريها من الغداة إلى الظهر ثم تأمرهن فتنقض ما غزلته، وهكذا تفعل كل يوم، فكان حالها إفساد ما كان نافعًا محكمًا من عملها وإرجاعه إلى عدم الصلاح، فنهوا عن أن يكون حالهم كحالها في نقضهم عهد الله وهو عهد الإيمان بالرجوع إلى الكفر وأعمال الجاهلية. ووجه الشبه الرجوع إلى فساد بعد التلبس بصلاح. قال الله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [النحل: ٩٢]).[١]

ووصف حال عدم الثابتين على المنهج بسبب شكوكهم وضعف إيمانهم بقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الحج: ١١].

{ومن الناس من يعبد الله على حرف}: هذا بيان لشقاق أهل الشقاق. قال أكثر المفسرين: {الحرف}: الشك. وحقيقته كما قال القرطبي: (الضعف في العبادة)[٢]، وأصله من «حرف الشيء» أي: طرفه. مثل حرف الجبل والحائط فإن القائم عليه غير مستقر. والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطرابًا ويضعف قيامه. فقيل للشاك في دينه: إنه يعبد الله على حرف. أي: متزلزلًا لأنه على غير يقين من وعده ووعيده، بخلاف المؤمن لأنه يعبده على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف. ففي الآية استعارة تمثيلية.

وقيل: {الحرف}: الشرط. والشرط هو قوله: {فإن أصابه خير} دنيوي من رخاء وصحة وعافية وسلامة وخصب وكثرة مال، {اطمأن به} أي: ثبت على دينه واستمر على عبادته أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه وسكن إليه، {وإن أصابته فتنة} أي: شيء

---

١ – التحرير والتنوير: ٢٦٤/١٤.

٢ – تفسير القرطبي: ١٩/١٢.

يفتتن به من مكروه يصيبه في أهله وماله أو نفسه ومعيشته كالجدب والمرض وسائر المحن، {انقلب على وجهه} أي: ارتد ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من.[١]

المطلب الثامن

ضعف المعتقد

لقد شبه القرآن الكريم ضعف معتقد الكافرين ببيت العنكبوت لوضاعته وخفته ووهنه فقال سبحانه وتعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [العنكبوت: ٤١].

فمثلهم في اعتمادهم على آلهتهم كمثل رجل أوى إلى بيت العنكبوت ليحميه من خطر متوقع، وإنهم ليعلمون ما هو بيت العنكبوت؟ خيوط واهنة لو مر عليها نسيم هادئ لخرقها ومزقها.

ويعقد الإمام ابن عاشور رحمه الله مقارنة بين المشركين وآلهتهم المزعومة وبين العنكبوت وبيته الواهن الضعيف فقال: (وهذه الهيئة المشبه بها مع الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها؛ فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها وتزول بأقل تحريك، وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف وهو السكنى فيها وتوهم أن تدفع عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم).[٢]

فقوله تعالى: {مثل الذين اتخذوا} أي: تكلفوا أن اتخذوا، {من دون الله} أي: الذي لا كفء له فرضوا بالدون الذي لا ينفع ولا يضرّ عوضًا عمن لا تكيفه الأوهام والظنون

١ - ينظر البسيط للواحدي ٢٨٥/١٥، وفتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت: ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م ٢٠/٩

٢ - التحرير والتنوير: ٢٥٢/٢٠.

{أولياء} ينصرونهم بزعمهم من معبودات وغيرها في الضعف والوهن. {كمثل العنكبوت} أي: الدابة المعروفة ذات الأرجل الكثيرة الطوال {اتخذت بيتًا} أي: تكلفت أخذه في صنعتها له ليقيها الردى ويحميها البلاء كما تكلف هؤلاء اصطناع أربابهم ليقوهم ويحفظوهم بزعمهم فكان ذلك البيت مع تكلفها في أمره وتعبها الشديد في شأنه في غاية الوهن {وإنّ} أي: والحال إن {أوهن البيوت} أي: أضعفها {لبيت العنكبوت} لا يدفع عنها حرًّا ولا بردًا كذلك الأصنام لا تنفع عابديها {لو كانوا يعلمون} أي: لو كانوا يعلمون أنّ هذا مثلهم وأنّ أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. وأيضًا أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت فقد تبين أنّ دينهم أوهن الأديان، {لو كانوا يعلمون} أي: لو كان لهم نوع مّا من العلم لانتفعوا به ولعلموا أنّ هذا مثلهم فأبعدوا عن اعتقاد ما هذا مثلهم.[1]

وقد ربط ابن كثير –رحمه الله– بين ضعف معتقد المشرك في اتخاذ الآلهة وقوة معتقد ومعتمد المؤمن بالله الواثق به فقال رحمه الله: (هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، لقوتها وثباتها.[2] ولما كان هذا المثل يقتضي أن للمشركين أولياء واهنين كما للعنكبوت بيتًا واهنًا جاءت الآية التي بعدها مباشرة لتنفي وجود أنصار وأولياء للمشركين أصلًا، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [العنكبوت: ٤٢].

ويضرب الله مثالًا آخر موضحًا ضعف معتقد الكافر وهو أمام آلهة شتى يطيعها ويخضع لها وهي آلهة مزيفة، برجل ضعيف هو (بين جماعة مالكين متشاكسين، يعني مختلفين متنازعين، سيئة أخلاقهم، من قولهم: رجل شكس: إذا كان سيئ الخلق، وكل واحد منهم

---

١ – تفسير السراج المنير: مُحَمَّد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣١/٣.

٢ – تفسير ابن كثير: ٢٧٩/٦.

يستخدمه بقدر نصيبه وملكه فيه، {ورجلا سلمًا لرجل}، يقول: ورجلا خلوصًا لرجل يعني المؤمن الموحد الذي أخلص عبادته لله، لا يعبد غيره ولا يدين لشيء سواه بالربوبية).[1] {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا رَجُلا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٢٩].

(فقوله تعالى: {شركاء متشاكسون} اختلاف وتنازع: كل واحد منهم يدعى أنه عبده، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى، وإذا عنت له حاجة تدافعوه، فهو متحير في أمره، قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره، لا يدري أيهم يرضى بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته. وفي آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له، فهو معتنق لما لزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه، فهمه واحد وقلبه مجتمع، أي هذين العبدين أحسن حالًا وأجمل شأنًا؟ والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهةً شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعى كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا، كما قال تعالى: {ولعلا بعضهم على بعض} ويبقى هو متحيرًا ضائعًا لا يدرى أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه؟ وممن يلتمس رفقه؟ وحال من لم يثبت إلا إلهًا واحدًا، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب في آجله).[2]

١ – تفسير الطبري: ٢٨٣/٢١.

٢ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣- ١٤٠٧ هـ-، ١٢٦/٤

المبحث الثاني

ما يتعلق بالجماعة

تعرضت في المبحث الأول للحديث عن ضعف الفرد في خاصية ذاته وما يلحق بالنفس البشرية من ضعف، وسنقف في هذا المبحث عند الضعف الذي يلحق بالجماعة في بعض أحوالها.

وينقسم إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول: **الضعف الاجتماعي**.

المطلب الثاني: **ضعف الأمة**.

المطلب الثالث: **الضعف العسكري**.

المطلب الرابع: **الضعف السياسي**.

المطلب الاول

الضعف الاجتماعي

يوضح القرآن الكريم في كثير من المواضع حقيقة ضعف الإنسان أمام عاطفة الميل إلى الأهل والقرابة والعشيرة، ولذلك يأتي التنبيه لهذا الكائن البشري بأن لا يتخلى عن قيمه ومبادئه أمام سلطان القرابة، قال الله تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [الأنعام: ١٥٢].

وهنا نجد الإسلام يرقى بالضمير البشري إلى درجة عالية ومنزلة رفيعة؛ لأن ههنا مزَلّة من مزَلّات الضعف البشري، الذي يجعل شعور الفرد بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد بما أنه ضعيف ناقص، ويجد في قوة القرابة سندًا لضعفه، ومن ثم يجعله ذلك ضعيفًا

تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس، فعليه أن يحكم بالعدل، فالعدل هو الأساس للحكم السليم.[1]

وكذلك لمّا أعلن الله براءته وبراءة رسوله من المشركين وآذنهم بنبذ عهودهم، عز ذلك على بعض المسلمين وتبرأ منه ضعفاء الإيمان، وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبيُّ يوم فتح مكة. وكان موطن الضعف نصرةَ القرابة وعصبية النسب. فجاء الكتاب هنا يجرد المشاعرَ والصلات في قلوب المؤمنين، ويمحّصها فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة. ثم إنه يجمع لذائذ البشر، ووشائج الحياة فيضمها في كفّةٍ، ويضع حبّ الله ورسوله وحب الجهاد في الكفّة الأخرى ويدعو المسلمين للخيار.[2]

وأيضًا يظهر الضعف الاجتماعي حينما تقل امتيازات الفرد أو الأفراد عن الآخرين اجتماعيًا أو اقتصاديًا أو غير ذلك من الأمور التي هي ميزان التفاضل عند البشر.

وقصة حاطب التي ذكرت في القرآن والمسندة في الصحيحين[3] خير دليل وشاهد على ذلك، ملخصها: أن حاطبًا كتب كتابًا لقريش يخبرهم فيه باستعداد النبي ﷺ للزحف على مكة، إذ كان يتجهز لفتحها، وكان يكتم ذلك، ليباغت قريشًا على غير استعداد منها، فتضطر إلى قبول الصلح – وما كان يريد حربا – وأرسل حاطب كتابه مع جارية وضعته في عقاص شعرها، فأعلم الله نبيه بذلك، فأرسل في إثرها عليًا والزبير والمقداد، وقال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها"، فلما أتي به، قال: "يا حاطب ما هذا؟" فقال: يا رسول الله، لا تعجل علي! إني كنت حليفًا لقريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت أن أتخذ عندهم يدًا يحمون

---

١ – مجلة البحوث الإسلامية: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ٣٣١/٤٤.

٢ – في ظلال القرآن: ١٦١٥/٣.

٣ – صحيح البخاري: ١٤٥/٥، صحيح مسلم: ١٩٤١/٤.

بها قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال عليه الصلاة والسلام: "أما إنه قد صدقكم".[1]

وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب، وهو المسلم المهاجر، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله ﷺ على سر الحملة.. وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها؛ وأنْ لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها.

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول ﷺ وهو لا يعجل حتى يسأل: "ما حملك على ما صنعت؟" في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق، ومن ثَم يكف الصحابة عنه: "صدق لا تقولوا إلا خيرًا". ليعينه وينهضه من عثرته، فلا يطارده بها ولا يدع أحدًا يطارده. بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر: "إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؛ فدعني فلأضرب عنقه". فعمر ﷺ إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم. أما رسول الله – ﷺ – فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها، ومن كل جوانبها، مع العطف الكريم الملهم الذي تنشئه المعرفة الكلية. في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابسات والظروف.[2]

وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة: ١]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ...} [التوبة: ٢٣].[3]

---

١ – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: د.وهبة بن مصطفي الزحيلي: دار الفكر المعاصر – دمشق، ط٢ – ١٤١٨ هـ–، ٢٠٢/٣.

٢ – في ظلال القرآن: ٣٥٣٩/٦.

٣ – تيسير التفسير إبراهيم القطان (المتوفى: ١٤٠٤هـ)[الكتاب مرقم آليا غير موافق للمطبوع، وهو ضمن خدمة مقارنة التفاسير]، ١٢٦/٢.

ومن هنا نبه الله على هذا الضعف أمام عاطفة القرابة بالمثل الذي ضربه بالذي ينفق ماله بقصد الرياء والسمعة فلا ينتفع من إنفاقه بشيء.

فقال تعالى: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} [البقرة: ٢٦٦]، {أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء} يعني: أنّ صاحب الجنة أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء صغارٌ أطفال {فأصابها} يعني: فأصاب الجنة {إعصار فيه نار فاحترقت} يعني بذلك: أنّ جنته تلك أحرقتها الريح التي فيها النار، في حال حاجته إليها، وضرورته إلى ثمرها بكبره، وضعفه عن عمارتها، وفي حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها، فبقي لا شيء له، أحوج ما كان إلى جنته وثمارها، بالآفة التي أصابتها من الإعصار الذي فيه النار.[١]

من خلال ما تقدم نجد أن الإنسان يضعف بشكل كبير أمام قرابته وعصبته ؛وذلك بسسب الولاء والمصلحة التي تربط بين القرابة والأهل والعشيرة.

المطلب الثاني

ضعف الأمة

إن من أبرز الأمور التي يتسرب إليها الضعف في الأمة هو فقدانها لهويتها وانبهارها بغيرها من الدول والحضارات الأخرى، وانبهار الأمة بحضارة الغالب وتقليدها ناجم عن ضعف الذات وقلة ثقتها بفكرها ومبدئها، يقول ابن خلدون في مقدمته: المغلوب مولع دائمًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده والسبب في ذلك أن النفس أبدًا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه.[٢]

---

١ - تفسير الطبري: ٥/٥٤٣.

٢ - مقدمة ابن خلدون: ط٥، بيروت- دار القلم. ١٩٨٤ص ٢٦٠.

والضعف الذي يلحق بالمجموع سببه التقاعس والتكاسل والبخل بالنفس والمال في سبيل ريادة الأمة وعزتها، يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة: الآيات ٢٤٣ الى ٢٤٥].

من خلال البيان القرآني يتبين أن عزة الأمم وحياة الشعوب الكريمة تتطلب أمرين مهمين لهما الأثر البالغ في الحياة، وهما الجهاد والكفاح في سبيل الله والحق، والإنفاق السخي في سبيل المصلحة العامة للوطن والأمة، فإذا ضعفت الأمة وتخلفت عن هذين الأمرين، أصابهما الذل والهوان، وتغلب عليها الأعداء، وعاشت عيشة العبيد، فلا حرية ولا كرامة، ولا ملكية لشيء، وإنما الملك للسيد الظلوم الغاشم الذي تسلط على هؤلاء المتخاذلين الجبناء.

وتصبح الأمة في هذه الحالة أشبه بالأموات، لأن موت الأمم غالبا له سببان: الجبن وضعف العزيمة والتخاذل، والثاني: البخل وعدم الإنفاق في سبيل الله والأمة والصالح العام.

وقد أخبر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ إخبارًا في غاية التحذير والتنبيه عن قوم من البشر، خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، إما بسبب الخوف من العدو، أو بسبب وباء عام كالطاعون ونحوه، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، ليروا هم وكل من خلف بعدهم أن الإماتة إنما هي بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار مغتر، وأنزل الله تعالى آيات قرآنية تمهد أمره للمؤمنين من أمة مُحَمَّد بالجهاد والإنفاق في سبيل الله، حتى لا يكونوا كالأمم الميتة الذين تولوا عن الإنفاق وأعرضوا عن الجهاد وانتحلوا المعاذير الواهية.[1]

ومن سنن الله في الأمم والجماعات أنها تكون قوية في البدايات ثم تضعف وتنهار وتزول في النهايات وذلك بسبب الإعراض والترف الذي يتعاطونه، يقول الله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ

١ – التفسير الوسيط: د وهبة بن مصطفي الزحيلي: دار الفكر – دمشق، ط: ١– ١٤٢٢ هـ–، ١٣٧/١.

الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ} [هود: ١١٦].

فقوله تعالى: {أولوا بقية} أي: أولو بقية من عقل وتمييز ودين ينهون عن الفساد وإنما قيل: {بقية} لأن الشرائع والدول ونحوها، قوتها في أولها، ثم لا تزال تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف، فهو بقية الصدر الأول.[1]

وبالتالي يتبين أن من أعظم أسباب ضعف الأمة والذي قد يؤدي بها إلى الزوال والانهيار والظلم والإفساد، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة ومنها قوله تعالى: {ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين} [يونس: ١٣]، يقول صاحب المنار رحمه الله: (وإهلاك الله الأمم بالظلم نوعان:

أحدهما: هو مقتضى سننه في نظام الاجتماع البشري، وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية منها على الضعيفة استيلاء مؤقتًا، إن كان إفساد الظلم لها عارضًا لم يجهز على استعدادها للحياة واستعدادتها للاستقلال، كما في قوله: {فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم} [البقرة: ٢٤٣]. أو دائمًا إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم في الغالبة. كما قال تعالى في سورة الأنبياء: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الأنبياء: ١١]، وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في البشر، وهو قسمان: ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق، وظلم الحكام الذي يفسد بأس الأمة في جملتها. وهذه السنة دائمة في الأمم، ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها.

ثانيهما: عذاب الاستئصال للأقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلًا لهدايتها بالإيمان والعمل الصالح وأعظم أركانه العدل، فعاندوا الرسل وكفروا).[2]

---

١ - تفسير الثعالبي ٣/٣٠٧.

٢ - تفسير المنار: ١١/٢٥٨

وبذلك نخلص أن ضعف الأمة له أسباب كثيرة، منها:

- الانبهار بالحضارات الأخرى إلى حد الذوبان وعدم الالتزام بالمبادئ والقيم.

- الشح بالنفس والمال والوقت في سبيل عزة الأمة والنهوض بها.

- الترف والانغماس في المغريات.

- عدم تكاثف الجهود في سبيل عزة الأمة وريادتها.

- والظلم الذي هو مؤذن بضعف الأمة وزوال العمران.

المطلب الثالث

الضعف العسكري

اهتم القرآن الكريم بذكر صور الضعف العسكري، وذلك لأهمية القوة في حياة البشرية لأنه بها يصان الدين وتصان البلاد والنفوس والأموال والأعراض، وبالتالي فأي تأخر أو خلل في صلاحية هذه المؤسسة سيجعل الأمة ضعيفة الجانب واهنة الإرادة. وقد عُرّفت العسكرية: «بأنها مجموعة المبادئ التي تشكل قواعد السلوك الحربي الهادف لإحراز النصر، والرافض لتقبل الهزيمة».[1]

فمن صُور الضعف العسكري: قلة العدد والعتاد، وقد تمثل هذا الضعف في غزوة بدر وعبر عن هذا بالكناية في قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ} [آل عمران: ١٢٣] عن ضعف حالتهم وضآلة عَددهم وعُددهم: ذكر التاريخ أنهم خرجوا يَعتقب النّفر منهم على البعير الواحد، وما كان معهم إلا فرس واحد يوم بدر.[2]

---

١ - مقال بعنوان التعليم العسكري ومبادىء الحرب. العميد عيسى بن ابراهيم الرشيد، مجلة كلية الملك خالد العسكرية.عدد٧١/١-١٢-٢٠٠٢م.

٢ - إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفي درويش (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، دار ابن كثير - دمشق - بيروت، ط٤ - ١٤١٥ هـ، ٤٨/٢.

- ومن صوره: التنازع والاختلاف الذي يؤدي للفشل، قال الله تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]، قال ابن زيد: (الفشل هو الضعف عن جهاد العدو والانكسار لهم فذلك الفشل).[١]

- ومن صوره دخول المرجفين والمثبطين والمخذلين بين صفوف الجيش وعدم الاعتداد بالنفس لمجابهة العدو. وقد ذكر البيان القرآني أمثلة لهذه الصورة، ومنه مشهد القتال الذي حصل بين طالوت وجالوت. قوله تعالى: {فلما فصل طالوت بالجنود}: يعني فتجهز طالوت وخرج بالجنود وهم سبعون ألفًا، فصاروا في حرّ شديد، فأصابهم عطش شديد، فسألوا طالوت الماء، فقال لهم طالوت: {إن الله مبتليكم بنهر} وهو بين الأردن وفلسطين، وإنما كان الابتلاء ليظهر عند طالوت من كان مخلصًا في نيته من غيره، وأراد أن يميز عنهم من لا يريد القتال، لأن من لا يريد القتال إذا خالط العسكر، يدخل الضعف والوهن في العسكر، لأنه إذا انهزم وهرب ضعف الباقون.[٢]

- ومن صوره أيضًا: الوهن الذي يخالج صفوف الجيش عند احتدام المعركة والتقاء الصفين، يقول الله تعالى واصفًا مشهدًا كهذا {إِذْ هَمَّتْ طائفَتان منْكُمْ أَنْ تَفْشَلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون} [آل عمران: ١٢٢] أي والله سميع عليم حين همت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس -وكانا جناحي عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم- أن تضعفًا وتجبنا عن القتال حين رأوا انخزال عبد الله بن أبيّ ومن معه عن رسول الله. وهذا الهمّ لم يكن عزيمة ممضاة، ولكنها كانت حديث نفس، وقلما تخلوا النفس عند الشدة من بعض الهلع فإن ساعدها صاحبها ذمّ وإن ردها إلى الثبات والصبر فلا بأس بما فعل ومما يدل على أن ذلك الهمّ لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُما} أي متولي أمورهما لصدق إيمانهما، لذلك

---

١ - تفسير الطبري ٥٧٧/١٣.

٢ - بحر العلوم للسمرقندي: أبو الليث نصر بن مُحَمّد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، دار الفكر - بيروت ت: د.محمود مطرجي، ١٦٣/١.

صرف الفشل عنهما وثبتهما فلم يجيبا داعي الضعف الذي ألمّ بهما عند رجوع المنافقين وكانوا نحو ثلث العسكر، بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين فوثقا به وتوكلا عليه.[1]

المطلب الرابع

الضعف السياسي

عُرّفت السياسة بأنها «القيام على الأمر بما يصلحه»، وبأنها «خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا».[2]

وعَرّفها الفقهاء بقولهم: «السياسة ما كان فعلًا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح، وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول – ﷺ –، ولا نزل به وحي».[3]

وعُرّفت بأنها «ما يتعلق بأمور الدولة أو انتظام علاقات الناس في مكان ما سواء أكان الأمر معنيًّا بتحديد طبيعة الناس في هذا المكان وفي المكان نفسه، أو كان الأمر معنيًّا بالعلاقات بين الحاكمين والمحكومين، وإنْ في بناء العلاقة أو في التناوب على نظمها وإدارتها».[4]

وقد ذكر القرآن الكريم العديد من النماذج في هذا ا النوع من أنواع الضعف البشري، وذلك باعتبار أن السياسة راجعة إلى اجتهادات البشر وتقديراتهم وموازناتهم، وليست راجعة إلى الوحي، ومن هذه النماذج قوله تعالى في قصة موسى وهارون: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ

---

١ – يراجع تفسير المراغي: أحمد بن مصطفي المراغي (المتوفي: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط: ١، ١٣٦٥ هـ– ١٩٤٦ م، ٤/٥٥، والمنار: ٤/٩٠.

٢ – الأحكام السلطانية والولايات الدينية: الماوردي، مصطفي الحلبي، ص ١٣٨٦/٥هـ.

٣ – الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: ابن القيم الجوزية، مطبعة المدني – القاهرة، ت: د. مُحَمَّد جميل غازي ١٧/١.

٤ – مدخل إلى العلم بالسياسة: فارس إشتي، ط٢٠٠١م–، دار بيسان – بيروت، ص٧.

أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠].

والمعنى: أنه لما رجع موسى من الطور إلى قومه غضبان على أخيه هارون إذ رأى أنه ضعف في سياسته لهم، ولم يكن ذا عزيمة في خلافته فيهم، إذ رأى أنه لم يكن فيهم صليب الرأي قويّ الشكيمة نافذ الكلمة، حزينا على ما وقع منهم من كفر الشرك وإغضاب الله – عز وجل –: قال: {بئسما خلفتموني من بعدي} أي: بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابي عنكم إلى مناجاة الرب – تعالى – من بعد ما كان من شأني معكم أن لقنتكم التوحيد، وكففتكم عن الشرك، وبينت لكم فساده وبطلانه وسوء عاقبة أمره؛ حيث رأيتم القوم الذين يعكفون على أصنام لهم من تماثيل البقر – فكان الواجب عليكم أن تخلفوني باقتفاء سيرتي، ولكنكم خلفتموني بضدها، إذ صنعتم لكم صنمًا، فحزن على ما وقع منهم من كفر الشرك وإغضاب الله والتفريط في جنبه.[١]

والسبب في غضبه الشديد الذي عبر عنه البيان الإلهي فقال تعالى: {ولما رجع موسى إلى قومه غضبان}، أي أنه غضب غضبًا شديدًا، لأن التعبير بغضبان تدل على امتلاء النفس بالغضب، فكأنهم خانوه مرتين: مرة بهذا العمل الفاسد الضال المشرك، ومرة بأنهم انتهزوا فرصة غيبته وفعلوا ما فعلوا، فكانوا آثمين إثمين: إثم العمل، وإثم أنهم خانوه في غيبته.[٢]

ومن الضعف السياسي الضعف في تقدير المواقف وذلك كالموقف من الأسرى بعد غزوة بدر: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٧].

ومعنى {ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض}: ما كان من شأن نبي من الأنبياء ولا من سنته في الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المن والفداء إلا بعد أن يثخن في الأرض، أي حتى يعظم شأنه فيها ويغلظ ويكثف بأن تتم له القوة والغلب، فلا

١ – انظر تفسير المراغي: ٧٠/٩، وتفسير المنار ١٧٨/٩.

٢ – زهرة التفاسير: ٢٩٥٧/٦.

يكون اتخاذه الأسرى سببًا لضعفه أو قوة أعدائه، وهو في معنى قول ابن عباس ﷺ: «حتى يظهر على الأرض»، وقول البخاري رحمه الله: «حتى يغلب في الأرض». وفسره أكثر المفسرين بالمبالغة في القتل، وروي عن مجاهد، وهو تفسير بالسبب لا بمدلول اللفظ. وفي التفسير الكبير للرازي: (قال الواحدي رحمه الله: الإثخان في كل شيء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتدت. فقوله: حتى يثخن في الأرض معناه: حتى يقوى ويشتد ويغلب ويبالغ ويقهر. ثم إن كثيرًا من المفسرين قالوا: المراد منه حتى يبالغ في قتل أعدائه. قالوا: وإنما حملنا اللفظ عليه؛ لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتل. قال الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

ولأن كثرة القتل توجب الرعب وشدة المهابة، وذلك يمنع من الجرأة ومن الإقدام على ما لا ينبغي فلهذا السبب أمر الله بذلك اه).

وأقول: إن من المجربات التي لا شك فيها أن الإثخان في قتل الأعداء في الحرب سبب من أسباب الإثخان في الأرض، أي التمكن والقوة وعظمة السلطان فيها.[1] وعدم ذلك هو سبب في الضعف.

وقد يكون الضعف في تقدير الإمكانيات والموازنات بين القوتين عند من يمتلك السلطان والقوة، ولذلك قيل: (آفة الزعماء ضعف السياسة، وآفة العلماء حب الرياسة)[2]، ويظهر هذا جليًا في جواب الملأ من قوم بلقيس حينما أعلمتهم برسالة نبي الله سليمان فكان ردهم يدل عل ضعف رأيهم في أمور سياسة المملكة، حينما قالوا: {قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين} [النمل: ٣٣]، قالوا مجيبين لها {نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد}: أرادوا بالقوة قوة الأجساد والآلات، وبالبأس النجدة والبلاء في الحرب {والأمر إليك} أي: موكول إليك، ونحن مطيعون لك فمرينا بأمرك نطعك ولا نخالفك فردت عليهم رأيهم قالت: {إن الملوك إذا دخلوا قرية} أي: عنوة وقهرًا {أفسدوها} أي: خربوها {وجعلوا أعزة أهلها أذلة} أي: أذلوا أعزتها، وأهانوا أشرافها، وقتلوا وأسروا، {وكذلك

---

١ - تفسير المنار: ٧٣/١٠.

٢ - تفسير النيسابوري: ٢٢٩/١.

يفعلون}، فأقنعتهم بحنكتها بألا طاقة لهم بمواجهة جنود سليمان، وآثرت بكمال عقلها وفطنتها السلمَ والمصالحة والمسالمة والموادعة على الحرب والقتال، بالرغم من توافر قوة عسكرية كبيرة عندها. أو أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة، وأنت ذات الرأي والتدبير. {فانظري ماذا تأمرين} أي: فانظري ماذا ترين نتبع رأيك، وهذا يدل على أنهم كانوا واثقين من رأيها، واعتراف بضعفهم في أمور السياسة وإدارة الدولة.[1]

١ – انظر الأساس في التفسير: سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ)، دار السلام – القاهرة ط٦– ١٤٢٤ هـ– ص ٤٠١١/٧، والتفسير المنير: ٣١٢/١٩بتصرف.

الفصل الثالث

أسباب الضعف البشري من خلال القرآن الكريم

المبحث الأول: الأسباب الداخلية.

المبحث الثاني: الأسباب الخارجية للضعف البشري.

الفصل الثالث

أسباب الضعف البشري من خلال القرآن الكريم

بعد أن تعرفنا في الفصل الثاني على أنواع الضعف البشري، سوف نتعرف في هذا الفصل على أبرز أسباب الضعف البشري سواء أكان هذا الضعف مصدره النفس البشرية من الداخل، أو مصدره ما يلحق بالنفس البشرية من خارجها.

المبحث الأول: الأسباب الداخلية، وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: الانقياد والتبعية.

المطلب الثاني: التنازع والفرقة والاختلاف.

المطلب الثالث: الركون إلى الدنيا والميل إليها.

المطلب الرابع: كراهية القتال وترك الجهاد في سبيل الله.

المطلب الخامس: الانفعالات والعوارض الداخلية.

أولًا: **الخوف.**

ثانيًا: **النسيان.**

ثالثًا: **الحزن.**

المطلب السادس: الحاجات والدوافع.

المطلب السابع: الذنوب والمعاصي.

المطلب الثامن: الكفر والإشراك بالله.

المبحث الأول

الأسباب الداخلية

هناك أسباب للضعف البشري تنبع من داخل الإنسان وذلك لاعتبارات شتى، وسوف أبين في هذا المبحث ان شاء الله أهم الأسباب الداخلية للضعف البشري والتي تنبع من داخل النفس الإنسانية.

المطلب الأول

الانقياد والتبعية

وصف الله سبحانه وتعالى حالة الضعف كحالة تعتري النفس البشرية وذلك بسبب الانقياد والتبعية للآخر المستكبر فقال تعالى: {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} [ابراهيم: ٢١].

وهذا الضعف الذي هو سبب في التبعية قد يكون ضعف رأي[١]، وقد يكون الضعف الذي يكون سببًا في امتثال أوامر المستكبرين ضعفَ الأرواح والقلوب في النخوة والكرامة، فيخضع أصحاب هذه النفوس المريضة للمستكبرين، يخضعون لضعف أرواحهم وسقوط همتهم، وتنازلهم عن كرامتهم.[٢]

يقول صاحب الظلال رحمه الله: (والضعفاء هم الضعفاء، هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية في التفكير والاعتقاد والاتجاه، وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة، ودانوا لغير الله من عبيده، واختاروها على الدينونة لله).[٣]

١- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي: ١٩٦/٣.

٢ - تفسير الظلال ٢٠٩٦/٤.

٣ - تفسير الظلال ٢٠٩٦/٤.

والضعاف ليسوا بأصحاب شخصية وليسوا بأصحاب قرار ينطلق من ذواتهم وذلك بسبب ذوبانهم بأسيادهم واتّباعهم، يقول الضعفاء للمستكبرين {إنا كنا لكم تبعا} أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا)[1]، فهم سادة في التطبيق والامتثال من فرط ضعفهم وذلهم وعبوديتهم، فهم لشدة تبعيتهم كأنهم عين التبعية.[2]

والذي يدفعهم لهذه التبعية هي اتّباعهم لأهوائهم وشهواتهم واحتقارهم لأتباع الرسل، ومن الأمثلة على ذلك قوم نوح عليه السلام الذين كانوا يرون التبعية هي فقط فيما يحقق مصالحهم وشهواتهم الدنيوية، فكانوا يتذرعون ويتعللون بذلك حتى لا ينقادوا لمنهج الأنبياء وهذه هي النظرة الخاطئة في عقولهم لمفهوم التبعية، قال تعالى: {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} [الشعراء: ١١١].

يقول صاحب إعراب القرآن وبيانه رحمه الله: (وهذا ضرب من السخافة؛ يقيسون كفاءة الأتباع بمقدار ما يتمتعون به من مال وحطام، أو بما يتميزون به من حسب وجاه ولكن الإسلام سوى بين المسلمين كافة).[3] وكأنهم يتخذون قوة الحق من قوة معتنقيه وحالهم، ولأنهم لا يريدون أن يتساووا بهم، ودعوة الرسل هي المساواة بين القوي والضعيف، والغني والفقير. والاستفهام إنكاري لإنكار الوقوع، أي لا يقع منا اتّباع لك، بحيث نتساوى مع الأرذلين الذين اتبعوك. وكذلك فعلت قريش مع النبي ﷺ.[4]

فقالوا ردًا لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} [الشعراء: ١١١]، أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس، وأراذلهم، وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا – إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته –: بيّن لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك. ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه هم الأعلون، خيار الخلق، أهل

١ – تفسير ابن كثير ٤/٤٨٨.
٢ – روح المعاني للألوسي: ١٢/٣٢٧.
٣ – إعراب القرآن وبيانه: محي الدين درويش ٧/١٠٠.
٤ – زهرة التفاسير: ١٠/٥٣٧٨.

العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها، ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكُمّل.[1]

ومن هنا جاء التحذير الإلهي لأهل الإيمان من اتباع الكفار لأن الضعف متحقق في اتباعهم؛ ضعف الدين، وضعف الرأي، وضعف العزيمة: {إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران: ١٠٠].

وفي ذلك نجد صاحب الظلال –رحمه الله– يفسر لنا ظاهرة التبعية ويرجعها إلى النفس البشرية فيقول: (إن طاعة أهل الكتاب والتلقي عنهم، واقتباس مناهجهم وأوضاعهم، تحمل ابتداء معنى الهزيمة الداخلية، والتخلي عن دور القيادة الذي من أجله أنشئت الأمة المسلمة، كما تحمل معنى الشك في كفاية منهج الله لقيادة الحياة وتنظيمها والسير بها صعدًا في طريق النماء والارتقاء وهو بذاته دبيب الكفر في النفس، وهي لا تشعر به ولا ترى خطره القريب).[2]

المطلب الثاني

التنازع والفرقة والاختلاف

وهذه الأمور من أهم الأسباب المؤدية إلى الضعف، فقد جعل الله التنازع والتدابر والاختلاف والتغابن محلًا للضعف، وداعيًا للسقوط في هوة العجز والكسل عن كل مصلحة دنيوية وأخروية، فالتنازع يؤدي إلى التفرق، والتفرق يؤدي إلى الضعف، ومن أعظم التوجيهات القرآنية قوله تعالى: {وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٠٥]. يقول السعدي في تفسيره: (بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام).[3]

---

١ – تفسير السعدي: ١/٥٩٤.

٢ – في ظلال القرآن: سيد قطب، ٤/٣٤٨.

٣ – تفسير السعدي: ١/١٤١.

وبهذه الأسباب علل الله تقهقر المسلمين وتراجعهم في يوم أحد يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٥٢].

أي: {ولقد صدقكم الله وعده} بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولّوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلًا حتى صرتم سببًا لأنفسكم، وعونا لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور {وتنازعتم في الأمر} الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم، فمن قائل نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور، فعصيتم الرسول، وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون وهو انخذال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره.[1]

فالتنازع والاختلاف هو من أعظم الأسباب التي تسبب الضعف الذي ينخر في جسد الأمة فيؤدي بها إلى الهلاك، قال تعالى: {وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال: ٤٦] أي: ولا يكن منكم تنازع واختلاف، فإن ذلك مدعاة للفشل، قال الجصاص: (والفشل: هو ضعف القلب من فزع يلحقه).[2]

وكذلك يؤدي - أي التنازع والاختلاف - إلى الخيبة والهزيمة وذهاب القوة، فيتغلب عليكم العدو. قال ابن القيم: (أمر الله المجاهدين بخمسة أشياء، وذكر منها: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها).[3]

---

١ - تفسير السعدي ١٥٢.

٢ - أحكام القرآن: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، ت: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ١٤٠٥ هـ-، ٤ /٢٥١ش

٣ - الفروسية: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان: دار الأندلس - السعودية - حائل، ط١، ١٤١٤ — ١٩٩٣، ٥٠٦.

ولذلك ينبه الله في القرآن أن التنازع والاختلاف هو ذهاب الريح. (وأصل الريح الهواء المتحرك ثم استعيرت للقوة والغلبة، لأنه لا يوجد في المكونات ما هو أقوى منها، فهي تهيج البحار وتقتلع الأشجار وتهدم الدور والقلاع، ومن ثم يقال: «هبت رياح فلان» إذا جرى أمره على ما يريد كما يقال: «ركدت رياحه» إذا ضعف أمره وولّت دولته).[١]

يقول السعدي في تفسيره: (وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين، والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم).[٢]

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}: (فإن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة؛ فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة).[٣]

فالترابط والتوحد هو من صفات المؤمنين، والاختلاف والتفرقة من صفات المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، كما دل على ذلك قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣].

{ولا تفرقوا} أي: ولا تتفرقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما اختلفت اليهود والنصارى، أو كما كنتم متفرقين في الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضًا ويحاربه. أو ولا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع والألفة التي أنتم عليها مما يأباه جامعكم والمؤلف بينكم، وهو اتباع الحق والتمسك بالإسلام. كانوا في الجاهلية بينهم الإحن والعداوات والحروب المتواصلة، فألف الله بين قلوبهم بالإسلام).[٤]

---

١ – تفسير المراغي بتصرف: ص٩ ج١٠.

٢ – تفسير السعدي: ١/١٢٦.

٣ – الجامع لأحكام القرآن: القرطبي ٤/١٥٩.

٤ – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: ١/٣٩٤-٣٩٥

المطلب الثالث

الركون إلى الدنيا والميل إليها

لقد بين القرآن الكريم أن حب الدنيا والركون إليها مما يضعف القلب ويوهنه، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ} [التوبة ٣٨].

يحذر الله في هذه الآية الكريمة من التثاقل إلى الأرض والإخلاد إليها أمام الواجبات التي تضمن عزة الأمة وريادتها وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله، فيقول: {يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إذا قيلَ لَكُمُ انْفِرُوا} أي: اخرجوا للقتال {في سَبيل اللَّه اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْض} أي: تثاقلتم، أي: تباطأتم وملتم إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم، {أَرَضيتُمْ بالْحَياة الدُّنْيا منَ الْآخرَة} أي: بدَل-ها {فَما مَتاعُ الْحَياة الدُّنْيا في الْآخرَة} أي: في جنب الآخرة {إِلَّا قَليلٌ}.[1] وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال "ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم فلينظر بم يرجع؟" وأشار بالسبابة.[2]

عاتبهم على ترك البِدار عند توجيه الأمر، وانتهاز فرصة الرخصة. وأمرهم بالجد في العزم، والقصد في الفعل فالجنوح إلى التكاسل، والاسترواح إلى التثاقل أمارات ضعف الإيمان إذ الإيمان غريم ملازم لا يرضى من العبد بغير ممارسة الأشق، وملابسة الأحق.

قوله {أرضيتم بالحياة الدنيا}: وهل يجمل بالعابد أن يختار دنياه على عقباه؟ وهل يحسن بالعارف أن يؤثر هواه على رضا مولاه؟[3] وهل يليق بالعاقل ترك الثواب العظيم في الآخرة

---

١ - - الأساس في التفسير: سعيد حوّى (المتوفي ١٤٠٩ هـ): دار السلام – القاهرة، ط٦ - ١٤٢٤ هـ- ٢٢٩٥/٤

٢ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ٢١٩٣/٤،السنن الكبرى: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، ت: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م، ٣٨٧/١٠، والترمذي، ٥٦١/٤.

٣ - لطائف الإشارات: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، ت: إبراهيم البسيوني : الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط: ٣، ٢٥/٢.

لأجل المنفعة اليسيرة الحاصلة في الدنيا؟. والدليل على أن متاع الدنيا في الآخرة قليل: أن لذات الدنيا خسيسة في أنفسها ومشوبة بالآفات والبليات ومنقطعة عن قريب لا محالة.[1]

قال الحسن ومجاهد رحمهما الله: (دُعوا إلى غزوة تبوك فتثاقلوا فنزل ذلك فيهم. وفي قوله {اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ} ثلاثة أوجه: أحدها: إلى الإقامة بأرضكم ووطنكم. والثاني: إلى الأرض حين أخرجت الثمر والزرع. قال مجاهد: «دعوا إلى ذلك أيام إدراك النخل ومحبة القعود في الظل». الثالث: اطمأننتم إلى الدنيا، فسماها أرضًا لأنها فيها، وهذا قول الضحاك[2]. وقد بينه قوله تعالى: {أَرَضيتُم بالْحَيَاة الدُّنْيَا منَ الأَخرَة} يعني بمنافع الدنيا بدلًا من ثواب الآخرة).[3]

لقد حذَّرنا رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- من الركون والميْل إلى الدنيا ونسيان الآخرة، وأخبرَنا أنَّ الميل إلى الدنيا وحُبها وشدة التعلُّق بها، يؤدي بالإنسان إلى الضَّعف الشديد والذي عبر عنه الحديث الشريف بالوهن والذي هو الانكسار بعد القوة؛ مما يؤثّر على الأُمَّة كلّها؛ فعن ثَوْبان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: "يُوشك الأُمَم أنْ تدَاعى

---

١ - تفسير الرازي: ٤٨/١٦.

٢ .. الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم ويقال أبو محمد الخرساني روى عن الأسود بن يزيد النخعي وأنس بن مالك وزيد بن أرقم وأبي سعيد الخدري وسعيد بن جبير وطاووس بن كيسان وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعطاء بن أبي رباح وأبي هريرة وقيل لم يثبت له سماع من أحد من الصحابة روى عنه خلق كثير ،كان الضحاك يعلم الصبيان ببلخ بقرية يقال لها بروقان يعني يعلمهم حسبة ،وقال مالك بن سعيد البلخي كنا عند الضحاك ثلاثة آلاف غلام وكان له حمار فإذا أعيي ركبه ودار في الكتاب، وقال أبو نعيم عن سفيان عن مزاحم بن زفر سمعت الضحاك بن مزاحم يقول لو دخلت على أمي لقلت لها أيتها العجوز غطي عني شعرك ،كان الضحاك بن مزاحم إذا أمسى بكى فيقال له ما يبكيك قال لا أدري ما صعد اليوم من عملي ،عن ميمون أبي عبد الله عن الضحاك في قوله تعالى كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب قال حق على كل من يعلم القرآن أن يكون فقيها ،وقال العباس بن مصعب المروزي قدم الضحاك مرو وسمع منه التفسير عبيد بن سليمان مولى عبد الرحمن بن مسلم الباهلي ، وذكره بن حبان في كتاب الثقات وقال لقي جماعة من التابعين ولم يشافه أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم ومن زعم أنه لقي ابن عباس فقد وهم ،كان أصله من بلخ وكان يقيم بها مدة وبسمرقند مدة وببخارى مدة وكانت أمه حاملا به سنتين وولد وله أسنان وكان معلم كتاب يعلم الصبيان ولا يأخذ منهم شيئا، مات سنة ست ومئة وقال أبو نعيم مات سنة خمس ومئة .ينظر تهذيب الكمال: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي ، ت : د. بشار عواد معروف ،مؤسسة الرسالة — بيروت ،ط:١، ١٤٠٠ — ١٩٨٠، ٢٩١/١٣.

٣ - النكت والعيون للماوردي ٣٦٢/٢.

عليكم، كما تداعى الأَكَلة إلى قَصْعتها"، فقال قائل: ومن قلَّة نحن يومئذٍ؟ قال: "بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكم غثاءٌ كغُثاء السَّيْل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهَنَ"، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهَن؟ قال: "حُبُّ الدنيا وكراهية الموت".[1]

والمراد أن الكفار وأمم الضلالة تَقْرُب أن يدعو بعضها بعضًا إلى الاجتماع لقتال المسلمين وكسر شوكتهم ليغلبوا على ما ملكوه من الديار، وحالهم كحال الفئة الآكلة عندما تتداعى إلى قصعة الطعام للأكل من غير مانع فيأكلونها صفوًا من غير تعب، ونفي عليه الصلاة والسلام أن يكون هذا التداعي بسبب قلة العدد، بل بيّنَ أن السبب هو الغثاء الذي يصيب الأمة. والغثاء: هو ما يحمله السيل من زبد ووسخ. وشبههم به لقلة الشجاعة ودناءة القدر. والوهن: هو الضعف.[2]

يقول الثعالبي رحمه الله:(إن أصل الوهن والضعف عن الجهاد، ومكافحة العدو هو حب الدنيا، وكراهية بذل النفوس لله، وبذل مهجها للقتل في سبيل الله ألا ترى إلى حال الصحابة –ﷺ– وقلتهم في صدر الإسلام، وكيف فتح الله بهم البلاد، ودان لدينهم العباد، لما بذلوا لله أنفسهم في الجهاد، وحالنا اليوم كما ترى، عدد أهل الإسلام كثير ونكايتهم في الكفار نزر يسير، فهل هذا الزمان إلا زماننا بعينه، وتأمل حال ملوكنا، إنما همتهم جمع المال من حرام وحلال، وإعراضهم عن أمر الجهاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون على مصاب الإسلام).[3]

---

١ – سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ت: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، رقم الحديث (٤٢٧٩)، ٤/١١١

٢ – عون المعبود شرح سنن أبي داود: مُحَمَّد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية – بيروت ط٢، ١٤١٥، ١١/٢٧٣ /٢٧٤.

٣ – تفسير الثعالبي: ٢/١٢٠.

قال البيضاوي رحمه الله في شرح الحديث: (والمعنى: ولكنكم تكونون متفرقين، ضعيفي الحال، خفيفي العقل، دنيئي القدر، كغثاء السيل).[1]

ففي الحديث: التحذير من الكثرة التي سببت فشل الأمة الإسلامية وجرأت أعدائها عليها، ليس لمجرد الكثرة بل لكراهية كل فرد باندماج الأعداء والمرجفين فيهم واتحادهم مع الجبناء فيصعب التحري، ويتكل كل فاقد العزيمة على غيره لتسلم له حياة قصيرة وإن كانت تعسة، فنزع الله من قلوب العدو المهابة من المسلمين، وهي أقوى دواعي النصر وسبب سرعة انتشار الدين في بادىء أمره.[2]

ومن لطائف علم المناسبات: مجيء سورة التكاثر بعد خاتمة القارعة، قال السيوطي: (هذه السورة التكاثر واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها كأنه لما قال هناك: {فأمه هاوية} [القارعة ٩] فإن قيل لم ذلك؟ فقال: لأنكم {ألهاكم التكاثر} فاشتغلتم بدنياكم وملأتم موازينكم بالحطام فخفت موازينكم بالآثام).[3]

ويبين القرآن الكريم أن حب الدنيا هو أحد أسباب الهزيمة وذلك مما ينتج عنه من الوقوع في الوهن والذي بدوره يسبب الفشل والضعف، قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢].

فتبين أن السبب الحقيقي للتنازع والفشل هو إيثار الدنيا والركون إليها.

ولقد وضح الغزالي –رحمه الله– هذه النقطة بقوله: (ولم تجئ هزيمة أحد من سوء التخطيط كما يظن البعض، بل جاءت من التفريط في إنفاذ الأوامر الصادرة. ولو أدى كل

---

١ – تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة: المحقق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، عام النشر: ١٤٣٣ هـ– ٢٠١٢م، ص٣/٣١٣

٢ – سر انحلال الأمة العربية والإسلامية، مُحَمَّد سعيد العرفي، دمشق ك مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٦٦م، ص١٥٢

٣ – أسرار ترتيب القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، ص ١٦٧

جندي دوره المرسوم له ما وقع المكروه، ولكن البعض نسي واجبه المكلف به لسوء تصرف منه أو لطمع طارئ عندما تحقق للمسلمين النصر في المرحلة الأولى من المعركة، فإن الرماة مرت بهم فترة ضعف وذهول، تيقظت خلالها بقية في أنفسهم من حب الدنيا، والإقبال على عرضها الزائل فكان إثر ذلك ما كان).[1]

وبالتالي يتبين أن الوهن في المعركة سببه هو التعلق بالدنيا والركون إليها، ولذلك جاء النهي الصريح عن هذا الوهن الذي سببه الحرص على الدنيا والتعلق بها: {فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...} [محمد: ٣٥-٣٦] (يقول: لا تهن فتضعف، فيرى أنك تدعو إلى السلم وأنت فوقه، وأعز منه)[2]، ثم أعقب الله هذا النهي ببيانِ أن الحياة الدنيا لهو ولعب فكيف للمؤمنين أن يهنوا ويضعفوا لأجل هذا الغرض، قال الرازي في تفسيرها: (يعني كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد).[3]

وذكر ابن عاشور أن قوله تعالى: {إنما الحياة الدنيا لعب ولهو} تعليل لمضمون قوله: {فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم} [محمد: ٣٥] الآية.[4]

ولذلك جاء التحذير من أن يدفع التعلق بمتاع الدنيا ترك النهوض بمصالح الدين من دعوة وجهاد ونصرة وهجرة، يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [سورة التوبة: ٢٤].

١ – فقه السيرة: محمد الغزالي، ت: محمد ناصر الألباني، دار الكتب الحديثة –مصر، ط: ٦، ١٩٦٥، ٢٨٨.
٢ – تفسير الطبري: ١٨٩/٢٢.
٣ – مفاتيح الغيب:٦٢/٢٨.
٤ – تفسير ابن عاشور: ١٣٣/٢٦.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة: {إن كان آباؤكم} وذلك أنه لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: «إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجاراتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا»، فنزل: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم}.[1]

قال ابن كثير رحمه الله: (أي إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله {فتربصوا} أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: {حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين}).[2]

وبهذا يتبين أن حب الدنيا والانغماس فيها والانشغال بها عن الهدف الكبير هو مرض معنوي يصيب الإنسان فيجعله من أهل الخسارة والانتكاس. قال أرباب المعاني: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أي: بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها. وقوله: {فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} أي: وكلهم إلى أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين.[3]

المطلب الرابع

كراهية القتال وترك الجهاد في سبيل الله

جاء في نصوص القرآن والسنة بيان النتيجة السلبية في حال تخلت الأمة عن دفع الظلم والعدوان والاضطهاد الواقع عليها، وتركت فريضة الجهاد الذي يضمن للأمة بقاءها وقوتها واستقرارها، فقال تعالى: {إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شيئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٩] أي: إلا تخرجوا للقتال في سبيل الله حين يطلب منكم

---

١ - تفسير البغوي: ٣٢٨/٢.

٢ - تفسير ابن كثير: ١٢٤/٤.

٣ - تفسير القرطبي: ١٩٧/١.

الخروج إليه، يعذبكم الله عذابًا شديدا بما يصيبكم به في الدنيا من البلايا والمحن، ويأْت بقوم آخرين بدلا منكم، يسارعون إلى نصرة الحق وتأْييد رسوله ويؤثرون الآخرة على الدنيا.[١]

وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: "إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم".[٢]

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: (وسبب هذا الذل والله أعلم: أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كل دين، عاملهم الله بنقيضه وهو إنزال الذلة بهم فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان).[٣]

يقول صاحب الظلال رحمه الله: (إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة. وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين. وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة.. هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة. إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة. يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون، ومن هؤلاء أولئك الذين {رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨٧]).[٤]

---

١ - التفسير الوسيط: مجمع البحوث: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر : الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط: ١، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م)، ١٧٠٢/٣

٢ - سنن أبي داود: ٣٣٢/٥.

٣ - نيل الأوطار: مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ت: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، ط: ١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، ٢٤٦/٥.

٤ - في ظلال القرآن: ١٦٨٤/٣.

وهذا بخلاف أهل الإيمان الراسخ والعقيدة السليمة، أما أصحاب النفوس الضعيفة الواهنة الواهمة فهم يتقاعسون ويضعفون أمام هذا الواجب، يقول صاحب الظلال أيضًا رحمه الله تعالى: (وما يُحجم ذو عقيدة في الله عن النفرة للجهاد في سبيله إلا وفي هذه العقيدة دَخَن[1] وفي إيمان صاحبها بها وهن).[2]

لذلك يقول الرسول ﷺ: "من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق".[3]

وقد تكون كراهية القتال والتولي عنه والتي تسبب الضعف أمام العدو هي نتيجة المعاصي والذنوب التي يقترفها الصف المسلم وبالتالي يسهل على الشيطان استدراجهم وتخويفهم من المواجهة {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران: ١٥٥].

(ولقد كان التولي نتيجة استدراج من الشيطان، ونتيجة خطأ أو معصية أورثت وهنًا في القلب، وضعفًا في الإيمان أدى إلى التولي يوم الزحف، ومن فضل الله عليهم أن عفا عنهم، وكفاهم من العقوبة الجزع النفسي، والندم الداخلي العميق).[4]

وقد تكون هذه الكراهية ناشئة عن حب الدنيا والمتاع والإخلاد إلى الأرض وذلك كما جاء في سبب نزول قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥]، قال ابن عباس: (ليست التهلكة أن يقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله).[5]

---

١ – الدخن: فساد في الباطن انظر: المصباح المنير للفيومي١٩١.

٢ – في ظلال القرآن: ١٦٥٥/٣.

٣ صحيح مسلم: باب ذم من مات، ولم يغزو، ولم يحدث نفسه بالغزو، رقم (١٩١٠)، ١٥١٧/٣.

٤ – من معين التربية الإسلامية: منير مُحَمَّد الغضبان، مكتبة المنار الأردن، ط ٢ (١٤٢٠-١٩٨٢).ص٨٦.

٥ – الدر المنثور في التفسير بالمأثور: ٤٩٩/١.

وعن أسلم أبى عمران[1] قال: "كنا بالقسطنطينة، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، وصففنا لهم صفًا عظيمًا من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بهم، ثم خرج إلينا مقبلًا، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله، الفتى ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب صاحب رسول الله ﷺ: يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله دينه وكثر ناصريه قلنا بيننا بعضنا لبعض سرًا من رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنّا أقمنا فيها وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تبارك وتعالى في كتابه يرد علينا ما هممنا به قال: {وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...} [البقرة: ١٩٥]، فكانت التهلكة الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا فنصلحها، فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب غازيًا في سبيل الله حتى قبض".[2]

وبالتالي يتبين أن كراهية القتال والتثاقل عن الجهاد، والتقاعس عن نصرة الحق يكون دافعه إما الجبن أو الخوف أو المصلحة فيما تتراءى له، أو بسبب الذنوب التي يقترفها وهذا كله يرجع إلى الضعف الذاتي في هذا الكائن البشري.

---

١ – أسلم بن عمران أبو عمران التجيبي مولى تجيب يروى عن عقبة بن عامر روى عنه يزيد بن أبي حبيب، انظر الثقات لابن حبان: ٤٦/٤.

٢ – أخرجه النسائي في السنن الكبرى: ٢٨/١٠، والمستدرك على الصحيحين: أبوعبد الله الحاكم النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفي: ٤٠٥هـ)، ت: مصطفي عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية – بيروت ،ط١، ١٤١١ – ١٩٩٠، ٣٠٢/٢، كذلك أخرجه الترمذي في سننه في باب سورة البقرة ،وقال أبو عيسى وهذا حديث حسن صحيح غريب ٢١٢/٥،وقال الإمام الحاكم في مستدركه أيضاً في باب بسم الله الرحمن الرحيم من سورة البقرة :هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .٢٠٢/٢.

المطلب الخامس

الانفعالات والعوارض الداخلية

أولًا: الخوف:

(وهو نوع من الانفعال، ولا يمكن أن تخلو منه نفس بشرية، فمن الطبيعي أن يخاف الإنسان الخطر ويخشاه، وهو شيء فطري ينبع من أعماق ذاته، ولا يمكن اعتبار الخوف عيبًا أو نقصًا في حياة الإنسان، ولكن شريطة أن لا يحدث فيه إفراط، وأن يوجه تجاه الأخطار الحقيقية التي تهدد حياته بالفعل، لا باتجاه الأمور التافهة الصغيرة، بحيث لا يقف الخوف حائلًا دون السير والتقدم في الحياة).[1]

ومن خلال استقراء آيات القرآن الكريم يمكن إرجاع سبب الخوف إلى عاملين مهمين لهما علاقة بطبيعة البشر: أما العامل الأول فهو العامل الاقتصادي المعاشي، وأما العامل الآخر فهو ما يتعلق بأمن الإنسان واستقراره.

وهذا يؤخذ من قوله تعالى وقد ذكر إنعامه لأهل مكة بهاتين النعمتين: {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: ٤]، وقد كانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته، فلا يتعرض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم.[2]

وهناك آية أخرى توضح هذين العاملين حينما رد الله على أهل مكة تعليلهم عدم الإيمان بالخوف من فقدان هذين العاملين، وهي قوله تعالى: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [القصص: ٥٧].

---

١ – أمراض النفس وعلاجها بالذكر: آمال سعدي قطينة، جمعية الحديث الشريف وإحياء التراث، ط: ١، ٢٠٠٣

٢ – الكشاف: ٨٠١/٤.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله في قوله تعالى: {ولكن أكثرهم لا يعلمون}: (أي: لا يعقلون، أي: هم غافلون عن الاستدلال، وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم، وذلك أن العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضًا، وأهل مكة آمنون حيث كانوا بحرمة الحرم، فأخبر أنه قد أمنهم بحرمة البيت ومنع عنهم عدوهم فلا يخافون أن تستحل العرب حرمة في قتالهم).[1]

وهذا الخوف له آثاره الحسية والمعنوية على النفس البشرية، ومنها قوله تعالى في شأن المنافقين: {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [الأحزاب: ١٩] أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال {فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد} أي: فإذا كان الأمن تكلموا كلاما بليغا فصيحا عاليا، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك.[2]

ولا يستلزم نزول الخوف في قلوب الناس أن يكون لذنب ارتكبوه، أو محرم انتهكوه، ولكنه قد يقع أحيانًا للابتلاء وتمحيص المؤمنين، كما قال ربنا تبارك وتعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٥].

فقوله تعالى: {ولنبلونكم} أي: لنصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم أتصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء. وقوله تعالى: {بشيء من الخوف والجوع} أي: بقليل من ذلك، فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة، وكذا ما يصيب به معانديهم، وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة حميدة.[3]

---

١ - تفسير القرطبي: ١٣/٣٠٠.

٢ - تفسير ابن كثير: ٦/٣٩٠.

٣ - تفسير أبي السعود: ١/١٨٠.

ثانيًا: النسيان:

عرفه الإمام الفخر الرازي رحمه الله بقوله: (النسيان عبارة عن السهو الحادث بعد حصول العلم).[1]

والنسيان هو تأكيد للضعف الإنساني، ومسايرة للجبلات المودعة في باطن النفس. وتأييدًا لهذا الضعف يقول تعالى: {وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨].

وللنسيان درجات: أوله ما يكون مصدره الضعف، وعدم القدرة على مجاهدة النفس والشيطان جميعا فتخور إرادة الإنسان، ويفتر عزمه، فيسقط في لحظة الضعف في النسيان ويقع بذلك الإثم والعدوان.

إلا أن النسيان إذا ما تطبعت به النفس الإنسانية، واستسلمت له وأسلمت قيادها للهوى الذي هو مصدره الأول اتصفت بحال الغفلة، لطول عهدها في النسيان قال الله تعالى: {فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي...} [المؤمنون: ١١٠].[2]

ومدار البحث هنا: الدرجة الأولى من درجات النسيان، وهو النسيان الفطري المودع في هذا الإنسان، والذي يؤكد ذلك وجوده في الإنسان الأول آدم عليه السلام؛ فقد استغل الشيطان نقطة الضعف هذه وهي النسيان في إغواء آدم وذلك لمعرفته بطبيعة هذا الكائن البشري.

يقول الأستاذ البهي الخولي موضحًا ذلك: (إن وسيلة الشيطان في إغواء الناس ودفعهم إلى نسيان ذكر الله، ونسيان ما فيه خيرهم وصلاحهم على وجه عام، هو التأثير عليهم من ناحية دوافعهم وشهواتهم وهي نقطة الضعف في الطبيعة الإنسانية، إذ أن الإنسان يميل بطبيعته إلى إشباع دوافعه، وإلى الحصول على اللذة والمتعة ومن تلك الناحية كان مدخل الشيطان إلى

---

١ - تفسير الرازي: ٤٨٨/٣.

٢ - التربية النفسية في المنهج الإسلامي: د.حسن الشرقاوي، ٥٧.

نفس آدم عليه السلام)[1]، (إذ منّاه بالخلد، والملك الذي لا يبلى إذا ما أكل من الشجرة فنسي آدم ما نهاه الله عنه فوقع في الخطيئة)[2]؛ لذلك وصفه الله تعالى بقوله {وَلَمْ نَجِدْ لَه عَزْمًا} والعزم في اللغة توطين النفس على الفعل والتصميم عليه والمضي على المعتقد في أي شيء كان، وقد كان آدم عليه السلام قد وطن نفسه على أن لا يأكل من الشجرة وصمم على ذلك؛ فلما وسوس إليه إبليس لانت عريكته وفتر عزمه وأدركه ضعف البشر. وقيل العزم: الصبر أي لم نجد له صبرًا عن أكل الشجرة.[3]

والحق المعول عليه وهذا ما أميل إليه: أن معصية آدم وغوايته، أي بعده عن الرشد، لم تكن بتصميم وعزم، وإنما صدرت منه في حال النسيان للأمر الإلهي، ليترتب على ذلك الإخراج من الجنة، وتوالد البشرية، وعمارة الكون بالناس. فالإنسان يخطئ ويصيب، بسبب نسيانه وضعفه وتغلب شهواته عليه، ولكن المؤمن العاقل سرعان ما يبادر إلى التوبة والإنابة، والاستقامة والاستغفار من سوء فعله، وتورّطه في مخالفة أمر ربه، والله تعالى بلطفه وكرمه وفضله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وهكذا حدث لآدم عليه السلام، عصى ربه نسيانًا لا عمدًا، ليتم تقدير الله، ولكن كان جزاؤه بالحق والعدل، ثم اجتباه ربه وهداه لصالح الأقوال والأفعال، وأنزله من علياء الجنان إلى قيعان الدنيا ومعكراتها.[4]

ثالثًا: الحزن:

الحُزْن والحَزَن: خشونة في الأرض وخشونة في النفس لما يحصل فيه من الغم، ويضاده الفرح، ولاعتبار الخشونة بالغم قيل: خشّنت بصدره: إذا حزنته.[5]

---

١ – البهي الخولي: آدم عليه السلام (فلسفة تقويم الإنسان وخلافته)، ط٣، مكتبة وهبة – القاهرة، ١٩٧٤م ١٨٤.

٢ – القرآن وعلم النفس: ٢١٣.

٣ – فتح البيان في مقاصد القرآن ٢٨٤/٨، وينظر أيضًا تفسير روح البيان: ٣٣٣/٥.

٤ – التفسير الوسيط للزحيلي ٣/ ١٥٥٦.

٥ – المفردات في غريب القرآن: ٢٣١/١.

وأما تعريفه اصطلاحًا، فقد عرفه صاحب المنار بقوله: (والحزن ضد السرور، وهو ضرب من آلام النفس يجده الإنسان عند فوت ما يحبه.[1]

وهو يحدث إذا فقد الإنسان شخصًا عزيزًا، أو شيئًا ذا قيمةٍ كبيرة، أو إذا حلت به كارثة ما، أو فشل في تحقيق أمر هام، وقد أشار القرآن إلى حزن أم موسى عليه السلام حينما ابتعد عنها ابنها بعد أن وضعته في صندوق وألقت به في النهر وقذف به الموج بعيدًا عنها. {فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ} [القصص: ١٣]، ووصف القرآن حزن يعقوب من فقد ابنه يوسف عليه السلام {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [يوسف: ٨٤-٨٦].

ووصف القرآن حالة الحزن التي أصابت المؤمنين الفقراء الذين جاءوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلبون الخروج معه للجهاد، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام قال لهم إنه لا يجد ما يحملهم عليه فتولوا عنه يبكون من الحزن.[2] فالحزن إما أن يكون على أمرٍ فائت أو على مصيبة نازلة، قال تعالى: {لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: ١٥٣]، فالحزن يوهن القلب، ويملؤه بالغم والكرب، ويهلك نفس الإنسان، ويذهب قوته، ويسقم جسده، ويبلي روحه، فيتضعضع ويستكين، ويصرف الإنسان عن تحقيق أهدافه، ويقعده عن القيام برسالته.[3]

ولم يأت الحزن في القرآن إلا منهيا عنه، أو منفيا. فالمنهي عنه كقوله تعالى {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا} [آل عمران: ١٣٩] وقوله: {ولا تحزن عليهم} [الحجر: ٨٨] في غير موضع، وقوله: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠] والمنفي كقوله: {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٣٨].

١ – تفسير المنار: ٦/٣٢٠.

٢ – القرآن وعلم النفس: ١٠٠/١٠١.

٣ – الوهن في القرآن: عبد المجيد مُحَمَّد علي الغيلي، موقع رحى الحروف، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م.

وسرّ ذلك أن الحزن موقف غير مُسِرّ، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلى الشيطان أن يحزن العبد ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه، قال الله تعالى {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [المجادلة: ١٠] ونهى النبي ﷺ الثلاثة أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث، لأن ذلك يحزنه. فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه النبي ﷺ، فقال: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن"[١]، فهو قرين الهم، والفرق بينهما أن المكروه الذي يرد على القلب، إن كان لما يستقبل أورثه الهم، وإن كان لما مضى أورثه الحزن، وكلاهما مضعف للقلب عن السير، مفتر للعزم.[٢]

المطلب السادس

الحاجات والدوافع في الإنسان

جاء الإسلام معترفًا بالحاجات والدوافع التي فطر عليها البشر بسبب ضعفهم، سواء ما يتعلق بها بالجسد أو النفس حيث إن (العلاقة بين النفس والجسم علاقة تأثير متبادل، فالنفس تؤثر على الجسم، والجسم يؤثر على النفس، ولا توجد صحة الجسم في معزل عن صحة النفس ولا صحة النفس في معزل عن صحة الجسم، فالجسم السليم في العقل السليم، والعقل السليم في الجسم السليم، فما ينمي الجسم ينمي النفس، وما يضعف الجسم يضعف النفس).[٣]

قال تعالى: {يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١].

هذا خطاب لجميع بني آدم وإن كان واردًا على سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والزينة: ما يتزين به الناس من الملبوس، أُمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف، قوله: و{كلوا واشربوا ولا تسرفوا}: أمر الله سبحانه عباده بالأكل

---

١ - أخرجه البخاري: ٣٦/٤.

٢ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: محمد المعتصم بالله البغدادي: دار الكتاب العربي – بيروت، ط: ٣، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م، ٥٠١/١.

٣ - السعادة وتنمية الصحة النفسية: د.كمال إبراهيم مرسي، دار النشر للجامعات، ط: ١، ٢٠٠٠م، ج١، ص١٥٥.

والشرب، ونهاهم عن الإسراف فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من أهل النار، كما صح في الأحاديث الصحيحة، والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعي على نفسه، وعلى من يعول، مخالفًا لما أمر الله به وأرشد إليه، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير، مخالف لما شرعه الله لعباده، واقع في النهي القرآني، وهكذا من حرم حلالًا أو حلل حرامًا، فإنه يدخل في المسرفين ويخرج عن المقتصدين.[1]

وبالتالي فالإنسان بحاجة إلى الطعام والشراب والهواء واللباس والثياب والسكن والزواج، وهذه تسمى الدوافع الفسيولوجية أو الأولية والتي عبر عنها البيان الإلهي مخاطبًا الإنسان الأول: {إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تَضْحَى} [طه: ١١٨-١١٩].

قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن والعري ذل الظاهر، وقرن بين الظمأ لأنه حر الباطن وهو العطش وبين الضحى الذي هو حر الظاهر، دل ذلك على أن الإنسان يحتاج إلى الطعام والشراب واللباس والسكن.[2]

وبالتالي فإن هذه الوظائف (تؤدي جانبًا هامًا للإنسان والحيوان؛ فهي تقوم بتلبية حاجات البدن، وتسد كل ما يطرأ عليه من نقص، وتقاوم كل ما يطرأ عليه من خلل أو اضطراب أو فقدان الاتزان).[3]

وحتى الأنبياء عليهم السلام وصفهم الله تعالى ببشريتهم وحاجتهم إلى ما يقيم حياتهم من المطعم والمشرب والمسكن والزواج؛ فالأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- هم بشر قبل أن يكونوا أنبياء ورسلًا، والنبوة والرسالة، لم تنزع عنهم ثوب البشرية، وإنْ ألبستهم النبوةُ والرسالة حللَ الصفاء، والنقاء، والطهر، ولكنها مع هذا، لم تسلبهم نوازع البشرية، وضروراتها.. وإلا

١ - فتح القدير: ٢/٢٢٨.

٢ - الأساس في التفسير: سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ): دار السلام – القاهرة، ط٦- ١٤٢٤ هـ-، ٧/٣٠٤٨

٣ - النفس المطمئنة: د.سيد مرسي، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٨٣م، ص٢٤١.

لكانوا خلقا آخر غير خلق الناس، ولكانوا أبعد من أن يعيشوا في دنيا الناس، وأن يألفهم الناس ويألفوا الناس.[1]

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} [الفرقان: ٢٠].

فقوله تعالى: {يأكلون الطعام} أي: مفتقرون إليه في قيام بنيتهم، ويمشون في الأسواق في طلب حوائجهم، {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة} أي: محنة، وهو كالتعليل لما قبله، أي: إنما جعلت الرسل مفتقرين للمادة، وفقراء من المال، يمشون في الاسواق لطلب المعاش ابتلاءً، وفتنةً، واختبارًا لمن تبعهم، من غير طمع، ولم يعرض عنهم لأجل فقرهم.[2]

وفي هذا الرد على جدال المشركين في شأن بشرية الرسول حينما قالوا: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [الفرقان: ٧].

والمعنى: أنهم بعد ما افتروا على القرآن ما افتروه قالوا: أي سبب لهذا الذي يزعم أنه رسول جعله يأكل الطعام كما نأكل، ويمشى في الأسواق ساعيًا على رزقه كما نسعى؟، فلو كان رسولًا من عند ربه لخالفنا في أسلوب معاشنا، فَهَلاَّ مَيزه الله علينا فأنْزَلَ معه ملكًا يكون معه نذيرًا لنا، ليجعلنا مطمئنين إلى إرساله إلينا.[3]

ويوضح لنا القرآن صورة واضحة في بشرية النبي عيسى عليه السلام لرد ما ادعوه فيه من أن فيه صفات الألوهية كما قال الله تعالى: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ} [المائدة: ٧٥].

يقول الدكتور وهبة الزحيلي -رحمه الله- في تفسيره: (وكل من المسيح وأمه من جنس البشر ونوعهم، بدليل أنهما يأكلان الطعام للحفاظ على معيشتهما وحياتهما، ويقضيان

---

١ - التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفي: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي - القاهرة ١٠٦١/١٢

٢ - البحر المديد: ٨٦/٤.

٣ - التفسير الوسيط: مجمع البحوث، ١٤٨٧/٦.

حاجتهما من البول والغائط، ومن صدر منه مثل ذلك، واتصف بالتركيب والضعف والحاجة إلى الطعام والشراب والنوم وقضاء الحاجة، لا يمكن أن يكون إلهًا، ولا أن يتصف بأي صفة من صفات الألوهية والربوبية.

وما المسيح في حقيقته، وإن ظهرت المعجزات أو الآيات على يديه، كما جاءت بها بقية الرسل، إلا عبد الله ورسوله من عنده، فإن كان إلهًا فليكن كل رسول إلهًا. ومن تتمة الحجة أن المسيح وأمه الصديقة كانا يأكلان الطعام، أي أنه مولود مربوب، ومن ولدته النساء، وكان يأكل الطعام مخلوق محدث كسائر المخلوقين، فمتى يصلح المربوب أن يكون ربا؟! وفي هذا دلالة على أنهما بشران).[1]

ثم إن دلالة أحوال عيسى على العبوديَّة أقوى من دلالتها على الربوبيَّة؛ لأنَّه كان مجتهدًا في العبادة، والعبادةُ لا تليقُ إلا بالعبد، وأنَّه كان في نهاية البُعْد عن الدُّنْيَا، والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى: إنَّ اليهُود قتلُوه، ومن كان في الضعف هكذا، فكيف يليقُ به الرُّبُوبيّة؟.[2]

المطلب السابع

الذنوب والمعاصي

بين الله تعالى طبيعة هذا الكائن البشري وغريزته في هذه الحياة وضعفه فقال: {وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ} [الشورى: ٤٨].[3]

---

١ – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: ٦/٢٧٣– ٢٧٤

٢ – اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)

ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي مُحَمَّد معوض: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان

ط١– ١٤١٩ هـ– ١٩٩٨م، ١٣ /٥٧.

٣ – تيسير التفسير: ٣/٢١١

وسبب وقوع الإنسان في الذنوب والمعاصي، كما يقول الإمام الشعراوي: الضعف في الإنسان هو أن تستميله المغريات ولا يملك القدرة على استصحاب المكافأة على الطاعة أو الجزاء على المعصية، لأن الذي تتفتح نفسه إلى شهوة ما يستبعد غالبا - خاطر العقوبة، وعلى سبيل المثال، لو أن السارق وضع في ذهنه أن يده ستقطع إن سرق، فسيتردد في السرقة، لكنه يقدر لنفسه السلامة فيقول: أنا أحتال وأفعل كذا وكذا كي أخرج.[1]

وبالتالي لو وقع الإنسان في الذنوب والمعاصي فإن من عواقب هذه الذنوب والمعاصي: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطوا إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما يسير الى الله بقوته فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه.[2]

ولذلك تَوّجت امرأة عزيزِ مصرَ أقوالها واعترافاتها أمام الملك بقولها المعبّر عن ضعف الإنسان وتورّطه بالمساوئ، وهو: أنني لئن برّأت يوسف، فما أبرئ نفسي من الزّلل والخطأ، إن النفس ميّالة بالطبع إلى الشهوات والأهواء. {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: ٥٣].

وهو اعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر عادة من الشهوات، كأنها قالت: وما هذا ببدع ولا ذلك بنكير على البشر، فأبرئ أنا منه نفسي، والنفوس أمّارات بالسوء، مائلة إليه، إلا النفوس التي يرحمها الله، فيحميها من التورّط في الفواحش، وإن الله ربّي غفّار للذنوب، رحيم بالعصاة إذا تابوا وأنابوا إلى الله.[3]

---

١ - تفسير الشعراوي: ١٤٦٠/١

٢ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار المعرفة – المغرب، ط: ١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ٧٣.

٣ - التفسير الوسيط للزحيلي: ١١١٥/٢

ومن أجل هذا فتح الله باب التوبة والمغفرة عن الذنوب وإن كانت من الكبائر، إن كان السائق والدافع إليها الضعف البشري؛ قال تعالى: {وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥] أي: ولم يقيموا على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة، فالآية تومئ إلى أن المتقين الذين أعد الله لهم الجنة لا يُصِرّون على ذنب يرتكبونه صغيرًا كان أو كبيرًا، لأن ذكرهم لله يمنعهم أن يقيموا على الذنوب. إذ الإصرار على الصغائر يجعلها كبائر، ورب كبيرة أصابها المؤمن بجهالة، وبادر إلى التوبة منها، فكانت مذكرة له بضعفه البشرى، ودليلًا على أن للغضب سلطانًا عليه، تكون دون صغيرة يقترفها مستهينًا بها مصرًا عليها مستأنسًا بها، فتزول من نفسه هيبة الشريعة، ويتجرأ بعد ذلك على ارتكاب الكبائر فيكون من الهالكين، ولذلك ومع وقوع الإنسان في مثل هذه الحالات في الذنوب فإن الله يشكره لأنه يعلم ضعفه، ويقال يشكره لأنه يعلم أنه لا يعصي وقصده مخالفة ربّه ولكنه يذنب لاستيلاء أحوال البشرية عليه من شهوات غالبة.

ويقال يشكره لأن العبد يعلم في حالة ذنوبه أن له ربًّا يغفر له.[1] فالذنوب والمعاصي التي يقع بها البشر تعبر بشكل صريح وواضح عن مدى ضعف هذا الكائن البشري.

وبالتالي فإن من عواقب الذنوب والمعاصي أيضًا على المستوى العام: وقوعهم بالضعف والشدة التي ينتج عنها تسلط البشر بعضهم على بعض.

ومن ذلك، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولي عليهم ظلمة، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين.[2]

وكذلك فالذنوب والمعاصي هي سبب للمعيشة الضيقة الحرجة والتي تجعل الإنسان ضعيفًا لا يستطيع مواجهة الحياة وأعبائها؛ {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه: ١٢٤].

---

١ - ينظر تفسير المراغي ٧٣/٤، ولطائف الإشارات ٣٨١/١

٢ - تفسير السعدي: ٢٧٣/١.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: ({ومن أعرض عن ذكري} أي: خالف أمري وما أنزلته على رسولي أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه؛ {فإن له معيشة ضنكًا} أي: ضنكًا في الدنيا، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تَنَعّم ظاهره ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد فهذا من ضنك المعيشة).[1]

المطلب الثامن

الكفر والإشراك بالله

إن عبادة غير الله تدل على خرق العقل، وسفاهة الرأي، وضعف التفكير، وطيش الإنسان لأن المعبود هو الذي يرجى منه النفع، ويخاف من عذابه عند التقصير في حقه والمخالفة لأمره، وكل من عدا الله من الكواكب والملائكة والأوثان والأنداد والأنبياء وزعماء البشر والقادة المتفوقين المنتصرين في معركة حربية فاصلة، وإن تأمل الإنسان تحقيق النفع منهم، ودفع الضرر والشر بواسطتهم، فذلك نوع من الوهم والسخف، وانتكاس الفطرة الإنسانية، ومغالطة المعقول والتفكير السليم.[2]

قال الله تعالى: {لاَّ تَجْعَل مَعَ اللَّهِ إِلَاهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا} [الإسراء: ٢٢]. يقول صاحب الظلال: (إنه النهي عن الشرك والتحذير من عاقبته، والأمر عام، ولكنه وجه إلى المفرد ليحس كل أحد أنه أمر خاص به، صادر إلى شخصه، فالاعتقاد مسألة شخصية مسؤول عنها كل فرد بذاته، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن يقعد مذمومًا بالفعلة الذميمة التي أقدم عليها، مخذولًا لا ناصر له، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه، ولفظ فتقعد يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعد، ويلقي ظل الضعف، فالقعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزًا، وهو يلقي كذلك ظل الاستمرار

---

١ - تفسير ابن كثير: ٣٢٣/٥.

٢ - التفسير المنير للزحيلي: ٢٧٦/٦.

في حالة النبذ والخذلان، لأن القعود لا يوحي بالحركة ولا تغير الوضع، فهو لفظ مقصود في هذا المكان).[1]

وبالتالي يعيش في الحيرة والتخبط والقلق، والحيران هو الذي لا يهتدي لجهة أمره يقال: حار يحار حيرة، فهو حائر وحيران، وتحير واستحار: إذا تبلّد في الأمر وتردّد فيه[2] وقد وصف الله حال هؤلاء المشركين في تحيرهم وتخبطهم فقال تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٧١].

يقول سيد قطب رحمه الله: (إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد، والآلهة المتعددة من العبيد، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال، وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء «حيران» لا يدري أين يتجه، ولا أي الفريقين يجيب، إنه العذاب النفسي يرتسم ويتحرك، حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير، ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرأت هذا النص، ولكن مجرد تصور، حتى رأيت حالات حقيقية يتمثل فيها هذا الموقف، ويفيض منها هذا العذاب، حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه – أيا كانت درجة هذه المعرفة وهذا التذوق – ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة، تحت قهر الخوف والطمع، ثم إذا هم في مثل هذا البؤس المرير، وعندئذ عرفت ماذا تعني هذه الحالة، وماذا يعني هذا التعبير).[3]

فالخوف والقلق والضعف الذي لحق بهم حقيقة سببه إشراكهم بالله، وذلك أنهم اتخذوا من دون الله – عز وجل – الأنداد والأصنام التي يدعونها ويطلبون حاجاتهم منها وهي لا تملك

---

١ – الظلال: ٢٢٢٠/٤.

٢ – انظر: الأصفهاني، المفردات مادة (حير)ص: ١٣٥، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٨/٧.

٣ – في ظلال القرآن: ١١٣١/٢.

لهم نفعًا ولا تدفع عنهم ضرًا، هكذا اتخذوها حسب أهوائهم وإراداتهم الفاسدة من غير دليل ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، ومن ثم كان المشرك دائمًا يعيش حالة القلق والرعب والخوف، لأنه لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، قال الله تعالى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٥١].

أي: بما نخلق فيها من أسباب الضعف والجبن، ونقرره فيها من مقدمات خذلانهم ونصر المؤمنين عليهم، وهو من مادة {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأولِي الأبْصَارِ} [آل عمران: ١٣] ونحوه.[١]

قال تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الحشر: ١٣] أي: يا أهل الإيمان، أنتم {أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون}، فمن غبائهم أنهم يخافون منكم -يا أهل الإيمان- أكثر من خوفهم من الله سبحانه وتعالى! فمن غباء اليهود وجهلهم، ومن جهل أهل النفاق، ومن جهل الكفار بصفة عامة أنهم يعملون للمؤمنين حسابًا أكثر من هذا الذي يعملونه لربهم سبحانه وتعالى! فهم يرهبون السيف ولا يرهبون الرب سبحانه وتعالى، ويرهبون البشر ولا يخافون من رب البشر، وهذا دليل على ضعف الإيمان في قلوبهم، وعلى جهلهم وقلة علمهم، كما قال تعالى: (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون).٢ . وبالتالي يتبين أن الإشراك بالله والمعاصي التي يقترفها الإنسان سبب رئيس في الضعف البشري بل أكاد أجزم أن أكثر الأمراض النفسية سببها الإشراك بالله والكفر به وعدم الانصياع لمنهجه .

---

١ – الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية: الإمام نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري الحنبلي (المتوفى: ٧١٦هـ)، ت: محمد حسن محمد حسن اسماعيل، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: ١، ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥م، ص ١٤٦.

٢ – سلسلة التفسير: أبو عبد الله مصطفي بن العدوى شلباية المصري، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http: //www.islamweb.net، ج٥٨، ص٩



المبحث الثاني

الأسباب الخارجية للضعف البشري

بعد أن تكلمنا عن الأسباب الداخلية للضعف البشري، يحسن بنا أن نتعرف على الأسباب الخارجية، فهناك أسباب تطرأ على النفس البشرية تأتي من خارجها فتجعلها في مواطن الضعف. وهي تندرج تحت هذه المطالب.

المطلب الأول: الجبروت والطغيان.

المطلب الثاني: وجود المخذلين والمنافقين والمرجفين، وأصحاب الأهواء والشهوات والمصالح في الأمة.

المطلب الثالث: العوارض الطارئة.

أولا: **المرض.**

ثانيًا: **الشيخوخة والكبر.**

المطلب الرابع: أصل نشأة الإنسان.

المبحث الثاني

الأسباب الخارجية

المطلب الأول

الجبروت والطغيان

من الأسباب الكبيرة والظاهرة والتي تؤدي بالبشر إلى الضعف والقهر والهزيمة وقد ذكر البيان الإلهي أمثلة كثيرة لعدد من الطواغيت الذين استضعفوا البشر وأهدروا كرامتهم وحريتهم وحاربوهم في معتقداتهم في القرآن الكريم ومن هذه الأمثلة قوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٤].

كان ذلك الفرعون الطاغية {علا في الأرض} وتكبر وتجبر، وجعل أهل مصر شيعًا، كل طائفة في شأن من شؤونه، وأوقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل، لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه؛ فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب. ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف، فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد؛ وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعًا.

وقوله: {يستضعف طائفة منهم} يعني: بني إسرائيل. وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدهم ليلًا ونهارًا في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقارًا، وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام، وبذلك يضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث، فوق ما يصبه عليهم من نكال وعذاب.

وروي أنه وَكّل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل، ليبادر بذبح الذكور، فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة، التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة.[1]

ففي سبيل إضعافهم سلك طرقًا شتى من المفاسد العظيمة:

الأولى: التكبر والتجبر، وهو مفسدة نفسية عظيمة، يتولد منها احتقار الناس، والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم، وبث العداوة بينهم، وعدم الاهتمام برعاية مصالحهم أو دفع الضرر عنهم، وابتزاز منافعهم لنفسه، وتسخير من استطاع منهم لخدمة أغراضه، ومعاملتهم بالغلظة، وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطش الحاكم، فهذه الصفة أم المفاسد وجماعها ولذلك قدمت على ما يذكر بعدها.

الثانية: اعتماد سياسة «فرِّق تَسُدْ»؛ حيث جعل الرعية شيعًا وفرقهم طوائف، لتفترق كلمتهم فلا يتمالؤوا عليه، وذلك فساد في الأمة لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض، ويجعل بعضها يتربص الدوائر ببعض، فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدح الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين. وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته فيجعلها محقرة مهضومة الجانب لا مساواة بينها وبين فرق أخرى ولا عدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض ما لغيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوها ونشؤوا فيها.

المفسدة الرابعة: أنه يذبح أبناءهم أي يأمر بذبحهم، فإسناد الذبح إليه مجاز عقلي. والمراد بالأبناء: الذكور من الأطفال وقصده من ذلك أن لا تكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

---

١ - انظر تفسير ابن كثير: ٦/ ٢٢٠، الظلال: ٥/ ٢٦٧٧

المفسدة الخامسة: أنه يستحيي النساء، أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال، فأطلق عليهم اسم النساء باعتبار المآل إيماء إلى أنه يستحييهن ليصرن نساء فتصلحن لما تصلح له النساء وهو أن يصرن بغايا إذ ليس لهن أزواج. وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كل ذلك اعتداء على الحق.[1]

وعلى هذا فإن وسائل الطغاة والجبابرة في سبيل استضعاف الجماهير وقهرهم كثيرة لا تنتهي، فهم ينتقلون من وسيلة لأخرى في سبيل تحقيق هذه الغاية، قال تعالى: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسقينَ} [الزخرف: ٥٤]، قال صاحب الظلال رحمه الله: (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها، ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين.

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان، فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسقينَ).[2]

ومتى استسلم إنسان بإرادته لذي إرادة قوية، ومكنه من السيطرة عليه، استطاع ذو الإرادة القوية حينئذ أن يتلاعب بمفاهيم فريسته وعقائده وسلوكه على ما يشتهي ويهوى.

وبهذا السبب نلاحظ الجمهور الكبير من الأتباع الذين تعطلت إرادتهم الشخصية يعتقدون ما يمليه عليه سادتهم وقادتهم، دون أن يُعملوا أفكارهم ببحث حر، أو مناقشة منطقية سديدة، سواء أكان ذلك حقًا أو باطلًا، خيرًا أو شرًا، وسوف لن يغنيهم من الحق شيئًا يوم القيامة أن يقولوا: {رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ} [الأحزاب: ٦٧].

---

١ - التحرير والتنوير: ٢٠/ ٦٨.

٢ - الأساس في التفسير ٥١٥٨/٩، وينظر الظلال٣٤٠/٧.

وينبئنا القرآن أن فرعون لما استطاع أن يؤثر على قومه بقوة إرادته ونفوذ سلطانه، استطاع أن يقول لهم كما جاء في سورة غافر: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٤٠].

ولما كان قوم فرعون في مستوى من الخفة وضعف الإرادة استطاع فرعون حينها أن يفرض عليهم طاعته وجبروته، قال الله في شأنه وشأنهم في سورة الزخرف: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمًا فاسقينَ} [الزخرف: ٥٤].[١]

ثم إن هذا الجبروت وهذا الطغيان أو كما عبر عنه ابن خلدون «بحب التأله والترفع على الآخرين» هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الضعف البشري لدى الطواغيت أنفسهم فضلًا عمن تحت سيطرتهم وقهرهم يقول ابن خلدون رحمه الله: (ويحصل له المقت من الناس لما في طباع البشر من التأله) ويقول أيضًا: (فقد تبين أن الجاه هو القدرة الحاملة للبشر على التصرف فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم، بالإذن والمنع، والتسلط بالقهر والغلبة).[٢]

ويدل على ذلك قوله تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٥٠]، فإن هذا التعبير يشعر بأمر آخر قد يكون من أسباب الضعف مع هذه القوة وهو أنهم جند لشخص واحد، يعملون لغايته بمصلحته وسلطانه، بل بشهواته ورغباته، فهم لا يعملون لأنفسهم وجماعتهم، بل يعملون لملكهم، وكأنهم مع دربتهم وقوتهم وغلبهم مسخرون لإرادة شخص وهواه، وذلك من أسباب ضعف الإرادات، وعدم الصبر عند الشدائد، وهكذا حكم الواحد المستبد، يحمل في داخله دائمًا عوامل ضعفه مهما يكن فيه من توحيد وتنظيم للقوى وجمع للقيادة.[٣]

---

١ – الأخلاق الإسلامية: ٨٢٩–٨٣٠.

٢ – فلسفة الإنسان عند ابن خلدون: الجيلاني بن التوهامي مفتاح، دار الكتيب العالمية، ص ٩٤.

٣ – زهرة التفاسير: ٩٠٥/٢بتصرف.

المطلب الثاني

وجود المخذلين والمنافقين والمرجفين، وأصحاب الشهوات والمصالح في الأمة

إن هذا الصنف من البشر هم (الذين يرفضون العبودية لخالقهم، فهم نقطة الضعف التي تنفذ منها جراثيم الخيانة إلى جسم الأمة، والحق أن جميع البلاء الذي أصاب أمتنا وحل بديار الإسلام كان وما يزال على أيدي هؤلاء الأسارى لشهواتهم، من عبيد الدرهم والدينار، وعبيد المركز والجاه والسلطان، ممن رفضوا العبودية لله عز وجل، فصاروا عبيدًا للدنيا وزينتها. فلما عرف العدو هؤلاء المرضى، وأدرك ما يعبدون من الشهوات، عرض عليهم قسطًا وافرًا منها، فأسال لعابهم، فساومهم على أوطانهم وأهلهم وأعراضهم، فدفعوها أثمانًا لما يطلبون من المراكز وزينة الحياة الدنيا، فاتخذ منهم عملاء وخونة وجواسيس، وفرض عليهم مناهج وشروطًا، فأطاعوه مقابل ما يضمن لهم من الهوى، وكانوا وبالًا على أمتهم ودمارًا).[1]

وفي سورة التوبة جاء في آيات كثيرة التحذيرُ من هذا الصنف من الناس، وأن وجودهم داخل الجماعة والصف المسلم يشكل عبئًا حقيقيًا عليهم؛ لذلك طلَب من الجماعة المسلمة أن تأخذ حذرها منهم، وبين أن خروجهم للجهاد مع المسلمين يتأتى منه الضرر والفساد والخطر؛ (فقد ذكر البيان الإلهي الحكمة في ذلك فقال: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا} أي: نقصًا، {وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ} أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ} [البقرة: ٤٦] أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم).[2]

وهؤلاء هم المنافقون أو المنتفعون: وهم فئة من الناس ضعاف الشخصية ومترددون لم يستطيعوا أن يتخذوا موقفًا صريحًا من الإيمان، ولعل ذلك بسبب أن المنافق شخصٌ جبان ضعيف الثقة بنفسه، يخشى المؤمنين، كما يخشى المشركين، فيتخذ موقفًا مترددًا بينهم لا يستطيع أن يصدر حكمًا واضحًا صريحًا إلى أية فئة منهم هو في الحقيقة ينتمي، وإن اتخاذ مثل

١ – أثر الإسلام في تكوين الشخصية الجهادية للفرد والجماعة: مُحَمَّد نعيم ياسين، دار الأرقم ط١، (١٤٠٤–١٩٨٤)، ص١٠.

٢ – تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن بتصرف: ٣٣٩

هذا الموقف يجعل المنافق يلجأ إلى الكذب والرياء والخداع وإخفاء مشاعره الحقيقية، من كراهيته للمسلمين وحقده عليهم وحسده لهم، ثم إنه شخص جبان إذا دعي إلى الاشتراك في القتال تملّكه الخوف، وتخلف عن القتال منتحلًا كثيرًا من الأعذار، وهو يحاول دائمًا خداع الناس، ولذلك فهو يحاول التأثير عليهم بحسن الكلام، وبحسن المظهر، وهو يحس في قرارة نفسه بضعفه ولذلك فهو يحاول الدفاع عن نفسه بتبرير أفعاله.[1]

والصور التي ذكرها القرآن في ضعف شخصية المنافقين وضعف إيمانهم كثيرة ومنها قوله تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} [المائدة: ٥٢]، فقد أخبر أن فريقًا من ضعاف الإيمان يفعل ذلك فقال: {فَتَرَى} أي: يا مُحَمَّد {الَّذينَ في قُلُوبِهِمْ} أي: شك ونفاق، وهذا المرض هو ضعف نفسي يحيط بالإنسان ويتغلغل في نفسه، أي: فترى المنافقين الذين اعتل إيمانهم بمرض النفاق كعبد الله بن أبيّ وأضرابه {يُسَارِعُونَ فيهِمْ} أي: يبادرون في مودة اليهود وموالاتهم ومناصحتهم، لأنهم كانوا أهل ثروة ويسار، فكانوا يغشونهم ويقرضونهم ويعينونهم على مهماتهم، ويخالطونهم لأجل ذلك {يقولون} أي: يقول المنافقون معتذرين عنها إلى المؤمنين؛ إنما نخالط اليهود لأنا {نخشى} ونخاف خوفًا شديدًا في المستقبل {أن تصيبنا دائرة} وتدور علينا حادثة من حوادث الدهر، ويقع علينا مكروه، وتصيبنا مصيبة من مصائب الدهر، كالهزيمة في الحروب، والقحط والجدب، فنحتاج إلى نصرتهم وإقراضهم لنا، فعلينا أن نتخذ لنا أيادي عندهم في السراء نتشفع بها إذا مستنا الضراء. قال ابن عباس: «معناه: نخشى أن لا يتم أمر مُحَمَّد، فيدور علينا الأمر»، وهكذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان، فكثير من وزراء بعض الدول الضعيفة يتخذ له يدًا عند دولة قوية، يلجأ إليها إذا أصابته دائرة، فتغلغل نفوذ هذه الدول في أحشاء هذه الدولة وضعف استقلالها في بلادها بعملهم. ولله الأمر من قبل ومن بعد.[2]

---

١ – القرآن وعلم النفس: ٢٤٥ –٢٤٦.

٢ – ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي القرآن: الشيخ العلامة مُحَمَّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١ هـ– ٢٠٠١ م، ٣٤٢/٧–٣٤٣ وتفسير المراغي ١٣٧/٦، وزهرة التفاسير: ١٢٥/١.

وذكر الله ضعفهم حينما يدعون للجهاد في سبيل الله: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نزلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ} [محمد: ٢٠].

قال البغوي: (وكل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشد القرآن على المنافقين. وهو مروي عن قتادة، وقوله: {رأيت} أي بالعين والقلب {الذين في قلوبهم مرض} أي ضعف في الدين أو نفاق من الذين أقروا بالإيمان وطلبوا تنزيل القرآن، وكانوا قد أقسموا بالله جهد أيمانهم: لئن أمرتهم ليخرجن {ينظرون إليك} كراهة لما نزل عليك بعد أن حرضوا على طلبه {نظر المغشي عليه} ولما كان للغشي أسباب، بين أن هذا أشدها فقال تعالى: {من الموت} الذي هو نهاية الغشي فهو لا يطرف بعينه بل هو شاخص لا يطرف كراهة للقتال من الجبن والخور).[1]

وقال ابن قتيبة والزجاج: (يريد أنهم يشخصون نحوك بأبصارهم وينظرون إليك نظرًا شديدًا كما ينظر الشاخص بصره عند الموت).[2] فمن خلال الحديث عن هذا الصنف في القرآن يتبين أن هذا الصنف سبب رئيس في الخلل وضعف الأمة.

المطلب الثالث

العوارض الطارئة

أولًا: المرض:

جاء للمرض كثيرًا من التعاريف اللغوية ونذكر أهمها:

---

١ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ٢٣٧/١٨.

٢ – فتح البيان في مقاصد القرآن: ٦٩/١٣.

– يأتي بمعنى الضعف: يقول ابن منظور: (وكُلّ ما ضعف، فقد مرض. وليلة مريضة إذا تغيمت السماء فلا يكون فيها ضوء.

– ويأتي بمعنى النقص: أصل المرض النقصان، وهو بدن مريض ناقص القوة، وقلب مريض ناقص الدين. وليلة مرضت أظلمت ونقص نورها.

– ويأتي بمعنى الشك والانحراف، يقال رأي مريض: فيه انحراف عن الصواب، والمرض: الشك؛ ومنه قوله تعالى: في قلوبهم مرض أي شك ونفاق وضعف يقين).[1]

– ويأتي بمعنى التعب: مرض الحيوان مرضًا من باب تعب، والمرض: حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل ويعلم من هذا أن الآلام والأورام أعراض عن المرض.[2]

وأما تعريفه اصطلاحًا فله عدة تعاريف أيضًا ومنها: عرفه ابن فارس بقوله: (ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة في أي شيء كان من علة أو مرض أو نقصان أو نفاق).[3]

يقول ابن القيم رحمه الله: (ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل، وإما أن ينقص إدراكه لضعف في آلات الإدراك مع استقامة إدراكه، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هي عليه، كما يدرك الحلو مرًا، والخبيث طيبًا، والطيب خبيثًا.

وأما فساد حركته الطبيعية: فمثل أن تضعف قوته الهاضمة، أو الماسكة، أو الدافعة أو الجاذبة، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة. وسبب هذا الخروج عن الاعتدال: إما فساد في الكمية أو في الكيفية).[4]

---

١ – لسان العرب: ٧/ ٢٣١، ٢٣٢.

٢ – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للفيومي ٥٦٨/٢.

٣ – مقاييس اللغة: ٣١١/٥.

٤ – إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ابن القيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: مُحَمّد حامد الفقي : مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٦/١.

ويرى الباحث أن المرض هو: ما يعرض للإنسان فيجعله ضعيفًا عاجزًا عن المقاومة بحاجة إلى معاونة الآخرين. وبالتالي "فالمرض هو ما يؤذي النفس، ويلقي بها في الضعف".[1]

ومن هذه التعاريف نستطيع أن نقول: تظهر في الإنسان حالات الضعف إذا نزل به المرض، أو حلّ به البلاء؛ وحسب الإنسان ضعفًا أنه يمرض بعد كمال الصحة فالمرض في الكائن البشري شيء حتمي، وحينما يقرن القرآن المرضى بالضعفاء في معرض التخفيف في الأحكام فإنما ذلك لحكمة يقول الله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٩١].

وذكر المرضى بعد الضعفاء مع أن المريض ضعيف لعلة وحكمة، يقول صاحب المنار: (فقال: {ليس على الضعفاء} الضعفاء: جمع ضعيف وهو ضد القوي، أي: من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنهم من الجهاد، قال ابن عباس: «يعني الزمنى والشيوخ والعجزة»، وقيل: هم الصبيان، وقيل: النسوان. ذكره البغوي، ومنها الكُساح بالضم، والعمى والعرج، وقدم ذكر هؤلاء؛ لأن عذرهم دائم لا يزول. {ولا على المرضى} جمع مريض، وهم الذين عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد كالحميات، وعذرهم ينتهي بالشفاء منها).[2]

ولما كان المرض من الأسباب التي تضعف الإنسان عن القيام بالواجبات أو بعضها شرع الإسلام أحكامًا كثيرة تتناسب مع هذا الطارئ الذي ينزل بالبشر.

ومنها على سبيل المثال وليس الحصر إباحة التيمم للمريض كما في قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِط أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا} [النساء: ٤٣].

---

١ - زهرة التفاسير: ١/١٢٥.

٢ - المنار: ١٠/٥٠٦.

ورد عن مجاهد قال: (نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان مريضًا فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم يناوله فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله {وإن كنتم مرضى}).[1] وهذه رخصة التيمم لأصحاب الأعذار.[2]

ومنها التخفيف في صلاة الليل، كما قال السعدي بعد أن ذكر حال النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه في قيام الليل ثم ذكر بعدها بعض الأسباب المناسبة للتخفيف ومنها: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى} الآية [المزمل: ٢٠]: (يشق عليهم صلاة ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه، فليصل المريض ما يسهل عليه، ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها، وله أجر ما كان يعمل صحيحا).[3]

ثانيًا: الشيخوخة أو الكبر:

يبين القرآن الكريم بأن الإنسان في مراحله العمرية الثلاثة يمر بطورين من أطوار الضعف: الضعف الأول والذي هو ضعف الطفولة والصبا، والضعف الثاني والذي هو ضعف الشيخوخة والذي يأتي بعد مرحلة الرشد والقوة كما يحددها القرآن الكريم بقوله: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً...} [سورة الروم: ٥٤].

ويعبر عنه أيضًا بمرحلة الانتكاس أو النكوص والاعتماد (ومعنى ذلك أن المرء إذا بدأ في افتقاد استقلاله السيكولوجي وتوجه نموه نحو الانتكاس وإلى الاعتماد من جديد فهذا هو المؤشر على التحول السيكولوجي نحو الشيخوخة، ومع التقدم فيها – أي الشيخوخة – يزداد

---

١ - ينظر كتاب تفسير القرآن: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ)، ت: سعد بن محمد السعد، دار المآثر - المدينة النبوية، ط: ١ ١٤٢٣ هـ-، ٢٠٠٢ م ٢/ ٧٢٥، ولباب النقول في أسباب النزول: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): دار الكتب العلمية بيروت — لبنان، ٥٨.

٢ - التفسير المنير ٥/٨٣.

٣ - تفسير السعدي: ١/٨٩٤.

الاعتماد الذي يصبح حينئذ علامة بارزة على التدهور، بل قد يظهر النكوص أو العودة إلى أنماط مبكرة من السلوك ومستويات أبسط من النشاط).[1]

(فأهم ما يتسم به هذا الطور بصفة عامة هو بدء تحول النمو الإنساني في الاتجاه العكسي فبينما كان النمو الإنساني في المراحل السابقة يتجه نحو التحسن والترقي والتنمية بمعدلات مختلفة، فإنه مع بدء الشيخوخة يبدأ التدهور بمعدلات بطيئة في البداية، ثم يتسارع هذا المعدل تدريجيًا حتى يصل إلى أقصاه في طور أرذل العمر. وأكثر التغيرات وضوحًا في المظهر الجسمي للشيخوخة تتمثل في شيب الشعر وانحناء القامة بسبب ضعف العضلات وأوتار هذه العضلات، ووهن العظم المتمثل في التكلس المتزايد في أربطة العظام وضمور فقرات العمود الفقري، وزيادة نحافة العظام ورقتها. وقد يؤدي وهن العظام إلى نقص حقيقي في الطول، وليس مجرد نقص ظاهري نتيجة لانحناء القامة).[2]

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} [يس: ٦٨] يتضمن التعبير الإخبار بأسلوب معجز بليغ عن حالة عامة من التدهور والارتداد تتسع لتشمل كافة التغيرات الخفية للشيخوخة التي لم يعرف أحد عنها شيئًا عند التنزيل وكشفتها الدراسات العلمية الحديثة، والنص الكريم ورد ضمن منظومة من النصوص تعالج موضوع مراحل العمر عامة أو الشيخوخة خاصة في تكامل وائتلاف بلا اختلاف، والعجيب أنه التزم بتمييزه عن الضعف الأول بإضافة الشيب[3]، كما قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً...} [الروم: ٥٤]. وقال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: ٤].

---

١ – نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين: د.آمال صادق، د.فؤاد أبو حطب، مكتبة الأنجلو المصرية ط٤عام ١٩٩٩، ٥١١

٢ – نفس المرجع السابق ك١٢٩–١٣٠.

٣ – الشيخوخة تنكيس في الخلق: د.محمد دودح، مجلة الإعجاز العلمي الهيئة العامة للكتاب والسنة، العدد الثاني عشر.

فقوله تعالى {نُنَكِّسْهُ في الخلق} أي: نقلبه فيه فلا يزال يتزايد ضعفه وانتقاص بنيته وقواه عكس ما كان عليه بدء أمره، وفيه تشبيه التنكيس المعنوي بالتنكيس الحسي واستعارة الحسي له.[١] قال البغوي: (أي: نضعف جوارحه بعد قوتها ونردها إلى نقصانها بعد زيادتها).[٢]

وذهب الألوسي إلى أن زمان ابتداء الشيخوخة يختلف بحسب المتغيرات يقول: (والحق أن زمان ابتداء الضعف وانتقاص البنية مختلف لاختلاف الأمزجة والعوارض كما لا يخفي).[٣]

وهناك الكثير من الآيات التي تحدثت عن هذه المرحلة، والضعفِ الذي يعرض للإنسان فيها، سواء في قدراته الجسمية، أو في قدراته العقلية، كما قال الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شيئًا...} [النحل: ٧٠]، قال السدي: (ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفل في النسيان وعدم التذكر. وقيل: لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئًا أي لا يعلم زيادة علم على علمه).[٤]

المطلب الرابع

أصل نشأة الإنسان

وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تشير إلى أن أصل خلق هذا الإنسان ابتدأ من الضعف بحسب المادة التي خلقه الله منها، وقد جاء التأكيد الإلهي في قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤].

فهذه الآية تدل على أن خلق الإنسان كان من ضعف، أي من عنصر الضعف لا من عنصر القوة، وما خلق من ضعف فلابد أن تستمر فيه جذور الضعف، ولو منح شيئًا من القوة

---

١ - تفسير الألوسي: ٢٦/١٧.

٢ - تفسير البغوي: ٢٦/٧.

٣ - تفسير الألوسي: ٢٦/١٧.

٤ - تفسير النيسابوري: ٢٨٢/٤.

بعد ذلك. فأصله الضعف والشيء يرجع إلى أصله، وتنزع فيه باستمرار عوامل أصله. والقوة القليلة المحدودة التي يملكها حينما يبلغ مرحلة النضج في تكوينه لا تزيل جذور الضعف في أعماق نفسه، فعناصر الضعف الكثيرة فيه لا تفارقه.[1]

قال الله تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ} [النجم: ٣٢] فقوله: {إذ أنشأكم} ظرف متعلق بـ «أعلم» أي هو أعلم بالناس من وقت إنشائه إياهم من الأرض وهو وقت خلق أصلهم آدم.

والمعنى: أن إنشاءهم من الأرض يستلزم ضعف قدرهم عن تحمل المشاق مع تفاوت أطوار نشأة بني آدم، فالله عَلِم ذلك، وعَلِم أن آخر الأمم وهي أمة النبي – ﷺ – أضعف الأمم. وهذا المعنى هو الذي جاء في حديث الإسراء من قول موسى لمحمد –عليهما الصلاة والسلام – حين فرض الله على أمته خمسين صلاة: "إن أمتك لا تطيق ذلك ارجع إلى ربك فسأله التخفيف".[2]

أي وهم أشد من أمتك قوة، فالمعنى أن الضعف المقتضي لسعة التجاوز بالمغفرة مقرر في علم الله من حين إنشاء آدم من الأرض بالضعف الملازم لجنس البشر على تفاوت فيه.

وأيضًا من مقتضيات خلق الإنسان من الضعف أن مادة خلقه الأولى هي التراب أو الأرض، وكذلك الصلصال وهو الطين الذي جففته الشمس، فهو لا يملك المحافظة على ذاته لهشاشته وطراوته، قال تعالى: {وخلق الإنسان ضعيفا} [النساء: ٢٨]، فإن إنشاء أصل الإنسان من الأرض وهي عنصر ضعيف يقتضي ملازمة الضعف لجميع الأفراد المنحدرة من ذلك الأصل.

---

١ – الأخلاق الإسلامية وأسسها: ٣٧٢.

٢ – مسند أبي يعلى: أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، ت: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، ط: ١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، ٦ /٢١٦، قال حسين سليم أسد : إسناده صحيح .

وقوله: {وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم} يختص بسعة المغفرة والرفق بهذه الأمة وهو متقضى قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].[١]

ويقول الله تعالى أيضًا: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ} [الصافات: ١١]، وخلْقُهم من طين لازب إما شهادةٌ عليهم بالضعف والرخاوة لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة، أو احتجاجٌ عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب مثله حيث قالوا: {أئذا كنا ترابًا؟}.[٢]

وأيضًا فيه دعوة الإنسان إلى التفكر في أصل خلقه في قوله تعالى {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} [الطارق: ٥]، فبين الله في هذه الآية ضعفه الفطري وإن كان مستغنيًا بماله أو جاهه أو سلطانه، يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (وقوله تعالى: {فلينظر الإنسان ممّ خلق}: تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]).[٣]

وهذا ينصرف إلى كل إنسان. وإن كان كثير من المفسرين صرفها فقط إلى الكفار. ولذا فليس في وصف خلق الإنسان من ماءٍ مهين تنقيص؛ لأن معنى مهين هنا ينصرف إلى عدة معانٍ، ومنها أنه رقيق أو قليل جدًا أو ضئيل أو ضعيف. وغالب كلام أهل التفسير يدور في فلك هذه المعاني.[٤]

---

١ – التحرير والتنوير: ١٢٤/٢٧.

٢ – الكشاف: ٣٧/٤.

٣ – تفسير ابن كثير: ٣٧٥/٨.

٤ – ينظر: تفسير مجاهد ٥٤٤: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ) ت: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط: ١، ١٤١٠ هـ- ١٩٨٩ م ، تفسير الطبري: ١٨ /٦٠٠، تفسير القرآن العظيم لابن أبي زمنين: ٥٨/٢، تفسير ابن فورك: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (المتوفى: ٤٠٦هـ)، ت: علال عبد القادر بندويش – المملكة العربية السعودية ط: ١، ١٤٣٠ – ٢٠٠٩ م، ١١٨/٣، الوسيط للواحدي: ٤٣٨/٣، ابن كثير: ٢٩٨/٨، البحر المحيط: أبو حيان محمد بن

وعند القشيري: (مهين أي حقير ذكّرهم أصل خلقتهم لئلا يعجبوا بأحوالهم، فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بني آدم، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان في أصله).[1]

وإن هذه الأطوار التي يمر بها الجنين، ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال. إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع {لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئًا} فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان.[2]

المطلب الخامس

قلة الأسباب

لقد تقرر في القرآن الكريم أن قلة الأسباب سواء المادية منها والمعنوية هي من جملة الابتلاءات التي تصيب البشر والتي تؤدي بهم إلى الضعف والحاجة: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

يقول النسفي في تفسيرها: ({ولنبلونكم} ولنصيبنكم بذلك إصابة تشبه فعل المختبر لأحوالكم هل تصبرون على ما أنتم عليه من الطاعة أم لا {بشيءٍ} بقليل من كل واحدة من هذه البلايا وطرف منه، وقلل ليؤذن أن كل بلاء أصاب الإنسان وإن جل ففوقه ما يقل إليه،

يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، ت: صدقي محمد جميل: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ-، ٨٣/٩.

١ - لطائف الإشارات: ٣٣/١.

٢ - الظلال: ٢٤١١/٤.

ويريهم أن رحمته معهم في كل حال. وأعلمهم بوقوع البلواء قبل وقوعها ليوطنوا نفوسهم عليها {مِنَ الخوف} خوف الله والعدو {والجوع} أي القحط).[1]

({ونقص من الأموال} وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق، وضياع، وأخذ الظلمة للأموال من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق وغير ذلك. {والأنفس} أي: ذهاب الأحباب من الأولاد، والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، {والثمرات} أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر ببرد، أو برد، أو حرق، أو آفة سماوية، من جراد ونحوه).[2]

هذه القلة في الأسباب اجتمعت في جيش المسلمين يوم بدر فوصفهم الله بالضعف ومع ذلك نصرهم الله مع ضعفهم وكان نصرهم دليل على قدرته سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار} [آل عمران: ١٣].

وقوله تعالى: قوله: {ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون} [آل عمران: ١٢٣]، ومعنى «أذلة»: قليلون، في غير منعة من الناس.[3]

ثم إن العلماء ذكروا في تفسير كون تلك الواقعة آية بينة وجوهًا:

منها: أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف عن المقاومة أمور، منها: قلة العدد، فعن البراء ﷺ، قال: "كنا نتحدث: أن أصحاب بدر ثلاث مائة وبضعة عشر، بعدة أصحاب طالوت، الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن"[4]، فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، والمشركون يومئذ ألف أو راهقوا ذلك، ومنها: أنهم خرجوا غير قاصدين للحرب فلم يتأهبوا، ومنها قلة السلاح والفرس، ومنها أن ذلك ابتداء غارة في الحرب لأنها أول غزوات

---

١ - تفسير النسفي: ١/١٤٤.

٢ - تفسير السعدي: ١/٧٥.

٣ - تفسير الطبري: ٧/١٦٩.

٤ - صحيح البخاري: ٥/٧٤.

رسول الله ﷺ. وكان قد حصل للمشركين أضداد هذه المعاني منها: كثرة العدد، ومنها أنهم خرجوا متأهبين للحرب، ومنها كثرة سلاحهم وخيلهم، ومنها أن أولئك الأقوام كانوا ممارسين للمحاربة، والمقاتلة في الأزمنة الماضية، وإذا كان كذلك فلم تجر العادة أن مثل هؤلاء العدد في القلة والضعف وعدم السلاح وقلة المعرفة بأمر المحاربة يغلبون مثل ذلك الجمع الكثير مع كثرة سلاحهم وتأهبهم للمحاربة، ولما كان ذلك خارجًا عن العادة كان معجزًا.[1]

وذكر جانبا آخر من هذه القلة في موقعة أخرى من مواقع المسلمين مع عدوهم، فقد ذكر في هذه الموقعة أصنافًا من الضعفاء والذين أعذروا بسبب ضعفهم، وقد قيل في معنى الضعفاء هم الذين يبرئون أنفسهم من الحول والقوة.[2] ومن هؤلاء الذين ذكرهم القرآن في قوله تعالى: {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ} [التوبة: ٩٢].

«الواو» هنا عاطفة عطفت ما بعدها على قوله تعالى: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى...} فهو من عطف الخاص على العام، وتكرارها لتأكيد نفي القدرة، وتحقق العذر وثبوته. فهؤلاء الأصناف أربعة: الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقونه من زاد، والصنف الرابع الذين لا يجدون ما يحملون عليه، وكان الرجل كما قال ابن عباس يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه، وبعير يحمل الزاد والماء في هذه الرحلة الشاقة.

وقد قال في هؤلاء مبينا حالهم: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه} وهذا يدل على أنهم لا يجدون ما يحملهم، ويدل على أنهم شكوا حالهم لرسول الله – ﷺ –، وأن الرسول لم يجد ما يحملهم، وذلك صريح.

وعلى الرغم من أن هذه الأعذار معتبرة لأصحابها إلا أن بعض الضعفاء الذين رفع عنهم الحرج بسبب ضعفهم، لم يرضوا بأن يكونوا قاعدين، وإخوانهم يجاهدون، بل ذهبوا

---

١ – انظر تفسير الرازي: ١٦٥/٧، اللباب في علوم الكتاب: ٦٨/٥، تفسير الطبري: ١٨/٦.

٢ – ينظر: لسان العرب (٢٠٤/٩)، النهاية في غريب الحديث: (٨٩/٣).

وجاهدوا، وتقدم أحدهم وهو أعرج، قال لابد أن أكون بعرجي في الجنة، ولم يتراخ ولم يرض بالقعود، وذهب بعضهم وهو يهادى بين رجلين، حتى وصل إلى الصف ليموت مجاهدًا، ﷺ.

ثم بين حال هؤلاء بعد جواب الرسول لهم بيانًا مستأنفًا فقال: {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع} أي: انصرفوا من مجلسك وهم في حال بكاء شديد هاجه حزن عميق فكانت أعينهم تمتلئ دمعًا، فيتدفق فائضًا من جوانبها تدفقًا، حتى كأنها ذابت فصارت دمعًا، فسالت همها {حزنًا} منهم وأسفًا {ألا يجدوا ما ينفقون} أي: على عدم وجدانهم عندك ولا عندهم ما ينفقون، ولا ما يركبون في خروجهم معك جهادًا في سبيل الله، وابتغاء مرضاته.

أخرج ابن جرير وابن مردويه[1] عن ابن عباس – ﷺ – قال: أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الناس أن ينبعثوا غازين، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني، فقالوا: يا رسول الله احملنا، فقال: "والله لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملًا، فأنزل الله عذرهم {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم} الآية. وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب[2] قال: جاء ناس من أصحاب

---

١ . ابن مردويه : الحافظ المجود العلامة، محدث أصبهان، أبو بكر، أحمد بن موسى ابن مردويه صاحب " التفسير الكبير "، و " التاريخ "، والأمالي الثلاث وله مصنفات كثيرة غيرها ، مولده في سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة، قال أبو بكر بن أبي علي – وذكر أبا بكر بن مردويه –: هو أكبر من أن ندل عليه وعلى فضله، وعلمه وسيره، وأشهر بالكثرة والثقة من أن يوصف حديثه، مات لست بقين من رمضان سنة عشر وأربع مئة عن سبع وثمانين سنة. سير أعلام النبلاء :١٧/٣٠٨.

٢ – محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي أبو حمزة المدني من حلفاء الاوس وكان أبوه من سبي قريظة، سكن الكوفة ثم المدينة. روى عن العباس بن عبدالمطلب وعلي بن ابي طالب وابن مسعود وعمرو بن العاص وأبي ذر وأبي الدرداء، قال ابن سعد كان ثقة عالما كثير الحديث ورعا وقال العجلى مدني تابعي ثقة رجل صالح عالم بالقرآن، قال الترمذي سمعت قتيبة يقول بلغني ان محمد ابن كعب ولد في حياة النبي ﷺ، وقال يعقوب بن شيبة ولد في آخر خلافة علي سنة اربعين، وقال ابن حبان كان من افاضل أهل المدينة علما وفقها وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى اصحابه سقف فمات هو وجماعة معه تحت الهدم، قال ابن سعد وغيره: مات سنة عشرين وقيل غير ذلك. ينظر : رجال صحيح مسلم: أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم، أبو بكر ابن مَنْجُويَه (المتوفى: ٤٢٨هـ) ،ت :عبد الله الليثي ،دار المعرفة – بيروت، ط:١، ١٤٠٧، ٢/٢٠٤. وتهذيب التهذيب: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) ،مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند ،ط:١، ١٣٢٦هـ، ٩/٤٢٢.

رسول الله – ﷺ – يستحملونه فقال: "لا أجد ما أحملكم عليه" فأنزل الله: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم} الآية.[1]

وقد تكون القلة من حيث النظر إلى قوة العصبية والعشيرة والمنعة، فينظر للقليل على أنه ضعيف كما كان ينظر من أرسل عليهم نبي الله شعيب إلى شعيب النبي عليه السلام. نقل ابن كثير في تفسيره عن السدي: {وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا} [هود: ٩١]: (قال: «أنت واحد»، وقال أبو روق[2]: {وإنا لنراك فينا ضعيفا} «يعنون: ذليلًا؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك، فأنت ذليل ضعيف»).[3]

{وإنا لنراك فينا ضعيفًا} لا قوة لك فتمتنع منا إن أردنا بك سوءًا، أو مهينًا لا عز لك.[4] وقيل: كان ضعيف البصر. وقيل: المراد بالضعف العجز عن الكسب والتصرف. وقيل: هو الذي يتعذر عليه المنع عن نفسه، ويدل على صحة هذا القول ما بعده وهو قوله: {ولولا رهطك} يعني جماعتك وعشيرتك.[5] أي: قصدوا بأنك ضعيف في نفسك، لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين.[6]

---

١ – زهرة التفاسير: ٧/ ٣٤١٢–٣٤١٣، تفسير المنار: ٥٠٩/١٠.

٢ . أبو روق :عطية بن الحارث أبو روق الهمداني الكوفي ،روى عن إبراهيم التيمي وأنس بن مالك والضحاك بن مزاحم وعامر الشعبي وعطية بن سعد العوفي وعكرمة مولى بن عباس وأبي إسحاق الشيباني وأبي عبد الرحمن السلمي، روى عنه إبراهيم بن الزبرقان وبشر بن خالد الكوفي وبشر بن عمارة الخثعمي وخالد بن يزيد بن أبي مالك الشامي وخالد بن يزيد القسري وسفيان الثوري وغيرهم ،قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه ليس به بأس وكذلك قال النسائي وقال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين صالح وقال أبو حاتم صدوق وذكره بن حبان في كتاب الثقات ،روى له أبو داود والنسائي وابن ماجة، توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر تهذيب الكمال: يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي ، ت : د. بشار عواد معروف ،مؤسسة الرسالة – بيروت ،ط:١، ١٤٠٠ –١٩٨٠،٢٠/١٤٣.تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام : شمس الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) ،ت: الدكتور بشار عوّاد معروف ،دار الغرب الإسلامي ،ط:١، ٢٠٠٣ م، ٩٢٨/٣.

٣ – تفسير ابن كثير: ٢٩٨/٤.

٤ – تفسير البيضاوي: ١٤٦/٣.

٥ – تفسير الخازن ٢٤٩/٣.

٦ – تفسير السعدي ٣٨٨/١.

الفصل الرابع
مظاهر الضعف البشري في القرآن الكريم

المبحث الاول: مظاهر الضعف الجبلي.

المبحث الثاني: مظاهر الضعف البشري أمام التكاليف والمغريات.

المبحث الثالث: الضعف أمام الأحداث والأمور العظام.

الفصل الرابع

مظاهر الضعف البشري في القرآن الكريم

تنقسم مظاهر الضعف البشري من خلال هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول

مظاهر الضعف الجبلي

هناك العديد من المظاهر التي فطر الله البشر عليها تدلل بشكل واضح وصريح عن ضعفهم وحاجتهم، وتفصيل هذه المظاهر يندرج تحت المطالب التالية:

المطلب الأول

الضعف أمام النوم

الإنسان عاجز عن دفع الطبيعة التي خلقه الله عليها، ومن هذه الطبيعة التي خلقها الله فيه هي النوم، وبالتالي فالإنسان هو ضعيف عاجز عن مقاومة النوم ومدافعته إذا هجم عليه، بل ومن رحمة الله على البشر أن جعل النوم جزءًا من حياتهم من أجل تحقيق السكن والهدوء والراحة.

قال الله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص: ٧٣].

هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليبتغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار ليزول عنكم

التعب والكلال فيه بما تقاسون في نهاركم من تعب التردد في المعاش، فهذا من فضله ورحمته بعباده.[1]

وقد وصفه الله -تعالى- النوم في آية أخرى بالسبات كما في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا} [النبأ: ٩]، {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا} [الفرقان: ٤٧].

والسُّبَاتُ أن يَنْقطع عن الحركة والروحُ في بدنه، أي جعلنا نومكم راحة. والسبت والسبات: هو السكون، ولذلك سمي السبت سبتًا، لأنه يوم راحة ودعة.[2]

ومن معاني السبات أن النوم يأخذك بالقهر والقوة، حتى الجبابرة والسلاطين يأخذهم النوم أخذًا، ثم يرمي بهم في مهاجعهم، حيث النفَس يتردد، بلا حس ولا إدراك، ولا يسمع أحدهم السؤال، ولا يرد الجواب، ولا يعي ما حوله، وهذه أعجوبة. وهي من كمال قدرة الله وضعف القدرة البشرية.[3]

فالنوم هو من صفات المخلوقين الضعفاء، وهو من خلق الله الذي لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، ولذلك وصف الله ذاته بالحياة والقيومية، ومن كمال حياته وقيوميته أنه {لا تأخذه سنة} أي: نعاس {ولا نوم}؛ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.[4]

وأما قوله تعالى: {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ} [البقرة: ٢٥٥]، هذا وصف سلبي يؤكد الوصف الإيجابي السابق؛ فإن قيامه سبحانه وتعالى على الكون وكلاءته له يقتضي ألا تأخذه سنة ولا نوم، لأن الحركة المستمرة للعالم، والبنيان الذي ارتبطت به أجزاؤه يقتضيان ألا تعرض غفلة للقائم عليه: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر: ٤١]. ولأن السِّنة والنوم من أعراض الجسم

---

١ - انظر تفسير السعدي ٦٣٣/١، السراج المنير: ٢٥/٢

٢ - ينظر تفسير الطبري: ١٥١/٢٤، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢٧٢/٥

٣ - إشراقات قرآنية: سلمان بن فهد العودة، مؤسسة الإسلام اليوم – السعودية، ١٤٣٣هـ، ٤٩/١ بتصرف.

٤ - تفسير السعدي: ٩٥٤.

الحيواني، سواء أكان ناطقًا أم كان غير ناطق، والله سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة الحوادث، وليس سبحانه وتعالى جسمًا، وليست له أعراض أي جسم.

والسِّنة: هي النعاس، وهو ما يسبق النوم من فتور. وقيل إن السنة أسبق من النعاس، وذلك أنه تَحْدُث ثلاثُ مراتب عند وجود أسباب النوم: أن يحس الشخص بفتور ويبتدئ يفقد سيطرته على أعضائه، ثم يجيء النعاس فتتراخى العين وتبتدئ الأعضاء كلها في التراخي، ثم يحصل النوم، وبه يفقد الشخص وعيه، ولذا قال المفضل: «السِّنة من الرأس، والنعاس في العين، والنوم في القلب» ولقد كان مقتضى النسق أن ينفي عنه سبحانه النوم، ثم ينفي السنة، لأن نفي النوم لا يقتضي نفي السنة، وعلى العكس نفي السنة يقتضي نفي النوم.

ولكن عدل عن ذلك، بنفي السنة ثم نفي النوم لمعنًى بلاغي. ذلك أن الترتيب الطبيعي لهذه الحقائق في الوجود أن السنة تسبق النوم، وإن ذلك الترتيب الطبيعي يعطي للقارئ صورة حية للتالي لكتاب الله تعالى، إذ يتصور الذين يعرض لهم النوم كيف يبتدئ بالسنة ثم النعاس ثم النوم، وإذا تصور ذلك المنظر الطبيعي تصور معه الضعف الإنساني أمام سلطان النوم بمقدماته.[1]

المطلب الثاني

الضعف أمام فتنة النساء

الإنسان بفطرته التي خلقه الله عليها خلقه محتاجًا إلى من يكمل نقصه وضعفه، وبالتالي تجده يضعف أمام المرأة التي خلقها الله تعالى لتجبر ضعفه.

قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}. [سورة آل عمران: ١٤].

١- زهرة التفاسير: ٢/٩٣٦.

قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: {من النساء} بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن والمقصود بالتزيين هو إنشاء الجبلة على الميل إلى هذه الأشياء؛ لأنهن حبائل الشيطان وفتنة الرجال. عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء"[١]. ففتنة النساء أشد من جميع الأشياء.[٢]

قال أهل التفسير: ذكر أربعة أصناف، كل نوع من المال يتمول به صنف من الناس، أما الذهب والفضة فيتمول به التجار، وأما الخيل المسَوَّمة فيتمول بها الملوك، وأما الأنعام فيتمول بها أهل البوادي، وأما الحرث فيتمول به أهل القرى والأرياف، فيكون فتنة كل صنف في النوع الذي يتمول به، وأما النساء والبنين فهي فتنة للجميع.[٣]

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم "إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه".[٤]

شبهها بالشيطان في صفة الوسوسة والإضلال، فإن رؤيتها من جميع الجهات داعية للفساد . قال الإمام النووي: (الإشارة إلى الهوى والدعاء إلى الفتنة بها؛ لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بنظرهن وما يتعلق بهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه له).[٥] (والمرأة فتنة إلا فيما جبل الله عز وجل النفوس عليه من النفرة عن محارم النسب).[٦]

---

١ – أخرجه البخاري: ٨/٧، ومسلم: ٢٠٩٧/٤.

٢ – ينظر تفسير القرطبي: ٢٨/٤، تفسير ابن كثير: ١٥/٢.

٣ – انظر تفسير القرطبي: ٣٦/٤، اللباب في علوم الكتاب: ٨٠/٥، تفسير السمرقندي: ٩٩/١، المنير للزحيلي: ١٦٩/٣

٤ – صحيح مسلم: ١٠٢١/٢.

٥ – المنهاج شرح النووي على مسلم: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) : دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط: ٢، ١٣٩٢هـ، ١٧٨/٩.

٦ – إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: ابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، ٥٦/٢.

ولذلك ذكر الله ضعف الإنسان في معرض الحديث عن فتنة النساء، فقال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨].

ذكر طاووس والكلبي وأكثر المفسرين: يعني في أمر الجماع لا يصبر على النساء ولا يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء. قال سعيد بن المسيب: «ما أيس الشيطان من بني آدم إلّا أتاه من قبل النساء، وقد أتى عليّ ثمانون سنة وذهبت إحدى عينيّ وأنا أعشى بالأخرى، وأن أخوف ما أخاف عليّ فتنة النساء». وذكر مالك بن شرحبيل قال: قال عبادة بن الصامت: ألا ترونني لا أقوم إلّا رفدًا ولا آكل إلّا ما لوق لي وقد مات صاحبي منذ زمان، وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحل لي وأن لي ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتيني الشيطان فيحكيه عليّ أنه لا سمع له ولا بصر.[1]

ولأجل ذلك شرعت بعض الأحكام التي تتناسب وطبيعة البشر ومنها قوله تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا} [البقرة: ٢٣٥].

فرفع الله الجناح عمن أراد تزوج المعتدة مع التعريض ومع الإكنان، ونهى عن المواعدة التي هي تصريح بالتزويج وبناء عليه واتفاق على وعد. ورخص لعلمه -تعالى- بغلبة النفوس وطمحها وضعف البشر عن ملكها.[2]

المطلب الثالث

المراحل والأطوار التي يمر بها خلق الإنسان

من مظاهر الضعف البشري تلك المراحل والأطوار التي ذكرها القرآن الكريم في وصف خلق البشر.

---

١ - تفسير الثعلبي: ٢٩١/٣.

٢ - تفسير القرطبي: ١٩٣/٣

قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤].

(يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته، ابتدأ خلق الآدميين من ضعف وهو الأطوار، الأول من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيوانًا في الأرحام إلى أن ولد، وهو في سن الطفولة وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم).[1] (وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة[2]، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة، ولهذا قال تعالى: {ثم جعل من بعد قوة ضعفًا وشيبة يخلق ما يشاء} أي يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد).[3] (وهذا الترديد في الأحوال المختلفة، والتغيير من هيئة إلى هيئة وصفة إلى صفة: أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر).[4]

وقد جاء التأكيد على ذلك كما في قوله تعالى: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ} [الانشقاق: ١٩]. والطبق في اللغة الحال، قال الشاعر:

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره   وساقني طبق منه إلى طبق[5]

---

١ – تفسير السعدي =تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٤٤.

٢ . اللّمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن (ج) لمم ولمام ،يراجع المعجم الوسيط :٢/٨٤٠.

٣ –: تفسير ابن كثير= تفسير القرآن العظيم: ٦/٣٢٧.

٤ – تفسير الكشاف: الزمخشري٣/٤٩٣.

٥ – الكشف والبيان: ١٠/١٦٢. : الأقرع بن حابس التميمي المجاشعي الدرامي وفد على النبي صلى الله عليه و سلم وهو من المؤلفة قلوبهم وقد حسن إسلامه فلما قدم وفد تميم كان معهم فلما قدموا المدينة قال الأقرع بن حابس حين نادى : يا مُحَمَّد إن حمدي زين وإن ذمي شين فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ذلكم الله سبحانه . وقيل : بل الوفد كلهم نادوا بذلك فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه و سلم وقال : ذلكم الله ، وقد كان الأقرع بن حابس شهد مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فتح مكة وحنينا وحضر الطائف ، وشهد الأقرع بن حابس مع خالد بن الوليد حرب أهل العراق وشهد معه فتح الأنبار وهو كان على مقدمة خالد بن الوليد ، قال ابن دريد : اسم الأقرع : فراس ولقب الأقرع لقرع كان به في رأسه والقرع : انحصاص الشعر وكان شريفا في الجاهلية والإسلام واستعمله عبد الله بن عامر على جيش سيره إلى خراسان فأصيب بالجوزجان هو والجيش وذلك في زمن عثمان، وجوزجان: اسم كورة واسعة من كور بلخ.

وعن ابن عباس قال: {لتركبن طبقًا عن طبق}: «حالًا بعد حال». وقيل: حال الإنسان حالًا بعد حال رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم كهل ثم شيخ.[1] قالت الحكماء: يشتمل الإنسان من كونه نطفة إلى أن يهرم ويموت على سبعة وثلاثين حالًا.[2]

وهذا كله يستفاد من قراءة من قرأ بالفتح، فقد يراد به النبي – عليه الصلاة والسلام – وارتقاؤه من حال إلى حال أو من سماء إلى سماء، أو يراد به جنس الإنسان وكيف أنه ينتقل من حال إلى حال، أو تتداوله النقائص والأحوال من الصحة والمرض والفقر والغنى والعز والذل، والقوة والضعف. وهذا التداول والتغير سنة إلهية في هذا الإنسان الضعيف. وكذلك جاء في تفسير «الشفع» بالأحوال التي يمر بها الإنسان والتي تبرهن بما لا يدع مجالًا للشك على ضعف هذا الإنسان وحاجته.

وقد نقل الإمام البغوي رحمه الله في تفسير الشفع والوتر فقال: (الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والبصر والعمى، والحياة والموت. والوتر: انفراد صفات الله عز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف. وعلم بلا جهل، وحياة بلا موت).[3]

المطلب الرابع

الخوف على الذرية

من طبيعة الإنسان أنه يخاف على من هم تحت ولايته من أهل وولد، ويشتد هذا الخوف عند مفارقة الحياة الدنيا. والغاية من الخوف هي خلاص الإنسان من آثاره ومترتباته

ينظر أسد الغابة أسد الغابة في معرفة الصحابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ) ،ت: علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود ،دار الكتب العلمية،ط:١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م، ٢٦٤/١،الإصابة في تمييز الصحابة ١٠١/١.

١ – تفسير الخازن: ٢٢٥/٧.

٢ – الكشف والبيان: ١٦١/١٠.

٣ – تفسير البغوي: ٢٤٧/٥.

على النفس البشرية، وعلى المجتمعات والدول والأمم، قال الله تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا} [النساء: ٩].

(يحذر الله من ظلم اليتامى الذين جعلهم الله تحت أيديهم ويقول لهم: إنكم تخافون على أولادكم أن يظلمهم أحد إذا فارقتم الدنيا وخلفتموهم وراء ظهوركم وهم صغار، وإذا كنتم تخافون على أولادكم أن يظلمهم أحد إذا فارقتم الدنيا فاتقوا الله في اليتامى، وعاملوهم بالعدل والإحسان، وقوموا سلوكهم وتصرفاتهم بما يصلح شأنهم في دنياهم وآخرتهم حتى تأمنوا على القول الذي يرشدهم إلى محاسن الآداب وكريم الأخلاق).[١]

وحقيقة هذا التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنًا، تأتي فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها، مما يحقق كمال التكامل الاجتماعي بأبهى معانيه، المنوّه عنه في الآية الكريمة {وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا} فجعل كافل اليتيم اليوم، إنما يعمل حتى فيما بعد لو ترك ذرية ضعافًا، وعبر هنا عن الأيتام بلازمهم، وهو الضعف إبرازًا لحاجة اليتيم إلى الإحسان، بسبب ضعفه فيكونون موضع خوفهم عليهم لضعفهم، فليعامِلوا الأيتام تحت أيديهم كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم.

وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلًا اجتماعيًا في كفالة اليتيم، بل إن اليتيم نفسه، فإنه يتيم اليوم ورجل الغد، فكما تحسن إليه يحسن هو إلى أيتامك من بعدك، وكما تدين تدان، فإن كان خيرًا: كان الخير بالخير والبادئ أكرم، وإنْ شرًّا: كان بمثله والبادئ أظلم.[٢]

وهكذا تمس اللمسة الأولى شغاف القلوب. قلوب الآباء المرهفة الحساسية تجاه ذريتهم الصغار. بتصور ذريتهم الضعاف مكسوري الجناح لا راحم لهم ولا عاصم. كي يعطفهم هذا التصور على اليتامى الذين وكلت إليهم أقدارهم بعد أن فقدوا الآباء. فهم لا يدرون أن تكون

---

١ – تفسير آيات الأحكام، زلط، المجد للثقافة والعلوم، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨ م، ج ٢، ص١٨٠٦.

٢ – أضواء البيان للشنقيطي: ٥٦٩/٨.

ذريتهم غدًا موكولة إلى من بعدهم من الأحياء كما وكلت إليهم هم أقدار هؤلاء.. مع توصيتهم بتقوى الله فيمن ولّاهم الله عليهم من الصغار لعل الله أن يهييء لصغارهم من يتولى أمرهم بالتقوى والتحرج والحنان. وتوصيتهم كذلك بأن يقولوا في شأن اليتامى قولًا سديدًا وهم يربونهم ويرعونهم كما يرعون أموالهم ومتاعهم.[١]

١ - في ظلال القرآن: ٥٨٨/١

المبحث الثاني

مظاهر الضعف البشري أمام التكاليف والمغريات

إن الإنسان مهما أوتي من قوة وعظمة يبقى ذلك الإنسان الضعيف، الذي تذله أقل الشهوات والنزوات، وتضعفه أدنى المؤثرات والمغريات، وتبعاً لذلك فإن النفس البشرية كثيراً ما تضعف أمام التكاليف الإيمانية بكافة مستوياتها، وسنفرد الحديث في هذا المبحث حول ضعف النفس البشرية أمام التكاليف والمغريات وذلك ضمن المطالب التالية.

المطلب الأول

الضعف أمام الغنيمة والمال

خلق الله الإنسان وفطره على حب التملك وحب الحياة وقد تقرر هذا في كثير من المواضع في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [سورة آل عمران: ١٥٢].

يقول صاحب الظلال: (إن التعبير القرآني هنا ليرسم مشهدا كاملا لمسرح المعركة ولتداول النصر والهزيمة. مشهدا لا يترك حركة في الميدان ولا خاطرة في النفوس ولا سمة في الوجوه ولا خالجة في الضمائر إلا ويثبتها {ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه}.

وكان ذلك في مطالع المعركة حيث بدأ المسلمون يحسون المشركين أي يخمدون حسهم أو يستأصلون شأفتهم. قبل أن يلهيهم الطمع في الغنيمة. وكان رسول الله – ﷺ – قد قال لهم: "لكم النصر ما صبرتم"[1] فصدقهم الله وعده على لسان نبيه.

{حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}. وهو تقرير لحال الرماة. وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة، ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله – ﷺ – وانتهى الأمر إلى العصيان. بعد ما رأوا بأعينهم طلائع النصر الذي يحبونه. فكانوا فريقين: فريقا يريد غنيمة الدنيا وفريقا يريد ثواب الآخرة. وتوزعت القلوب فلم يعد الصف وحدة ولم يعد الهدف واحدًا. وشابت المطامعُ جلاءَ الإخلاص والتجرد الذي لا بد منه في معركة العقيدة. فمعركة العقيدة ليست ككل معركة. إنها معركة في الميدان ومعركة في الضمير. ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير. إنها معركة لله فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له.

والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم.. فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما كنت أرى أن أحدًا من أصحاب رسول الله – ﷺ – يريد الدنيا، حتى نزل فينا يوم أحد: {منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة}[2].. وبذلك يضع قلوبهم أمامهم مكشوفة بما فيها، ويعرفهم من أين جاءتهم الهزيمة ليتقوها.

---

١ . في نقل المفسر قوله ﷺ (لكم النصر ما صبرتم) ولم أجده حديثاً بهذا اللفظ ،لعله أراد أن يذكر معنى الحديث الذي رواه البراء ﷺ قال : جعل رسول الله ﷺ على الرماة يوم أحد ، وكانوا خمسين رجلا عبد الله بن جبير ﷺ ، فوضعهم مكانا ، فقال : "إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا قد هزمنا القوم ووطيناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم...." يحضهم بذلك على الصبر وهذا الحديث جاء في كتاب الآحاد والمثاني : أحمد بن عمرو بن الضحاك أبو بكر الشيباني ،ت :د. باسم فيصل أحمد الجوابرة ، دار الراية – الرياض ،ط:١، ١٤١١ – ٥١٤/٣،١٩٩١.

٢ – المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: دار الحرمين – القاهرة، ١٤١٥ ت: طارق بن عوض الله بن مُحَمَّد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ١٠٦/٢

وفي الوقت ذاته يكشف لهم عن طرف من حكمة الله وتدبيره، وراء هذه الآلام التي تعرضوا لها، ووراء هذه الأحداث التي وقعت بأسبابها الظاهرة: {ثم صرفكم عنهم ليبتليكم}..

لقد كان هناك قدر الله وراء أفعال البشر. فلما أن ضعفوا وتنازعوا وعصوا صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين وصرف الرماة عن ثغرة الجبل وصرف المقاتلين عن الميدان فلاذوا بالفرار، وهكذا تقع الأحداث مرتبة على أسبابها وهي في الوقت ذاته مدبرة بحسابها. بلا تعارض بين هذا وذاك. فلكل حادث سبب ووراء كل سبب تدبير، من اللطيف الخبير، ولذلك عقب على ما وقع منهم مبينًا أن سبب ذلك هو ضعفهم تجاه المال والغنيمة، بقوله: {ولقد عفا عنكم} عفا عما وقع منكم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان، وعفا كذلك عما وقع منكم من فرار وانقلاب وارتداد، عفا عنكم فضلًا منه ومنة وتجاوزًا عن ضعفكم البشري الذي لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار على الخطيئة، عفا عنكم لأنكم تخطئون وتضعفون في دائرة الإيمان بالله والاستسلام له وتسليم قيادكم لمشيئته: ثم ختم الآية بقوله: {والله ذو فضل على المؤمنين} ليؤكد حال البشر أمام فتنة المال والدنيا، يقول: ومن فضله عليهم أن يعفو عنهم ما داموا سائرين على منهجه مقرين بعبوديتهم له، لا يدعون من خصائص الألوهية شيئًا لأنفسهم ولا يتلقون نهجهم ولا شريعتهم ولا قيمهم ولا موازينهم إلا منه، فإذا وقعت منهم الخطيئة وقعت عن ضعف وعجز أو عن طيش ودفعة.. فيتلقاهم عفو الله بعد الابتلاء والتمحيص والخلاص).[1]

- ومن المشاهد التي ذكرها البيان القرآني في الضعف البشري أمام فتنة المال، ذلك المشهد الرهيب في قصة قارون وكيف اغتر به ضعاف النفوس حينما خرج ذات يوم على قومه بني إسرائيل في زينته، في مهرجانه، فقد خرج معه كذا وكذا ألفًا من الرجال والشباب والغلمان، والجواري على أنواع من الخيول والبغال في حرير وديباج وذهب وفضة وأنواع من الطرب والموسيقى، وهو يتيه بنفسه، ويأشر بماله، ويطغى بما يكسب، ويتعالى بذلك على قومه، وإذا

---

١ - في ظلال القرآن: ١/٤٩٢-٤٩٤.

بضعاف النفوس من قومه ممن يريدون الحياة الدنيا ولا يريدون الآخرة يقولون: {يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ} [القصص: ٧٩].

فلما رأوا هذا المنظر تمنوا على ربهم أن يكون لهم مالقارون من المال والجاه والزينة، وأنواع ما يتيه به ذوو المال والجاه العريض في الأرض. وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [القصص: ٧٩]. أي: إنه لذو مال وجاه عظيم فقد أدركه الحظ والذِّكر الحسن بين قومه.[1]

وقد يدفع هذا الضعف أمام سلطان المال تلك النفس البشرية الضعيفة إلى الجحود والكفر والنكران، قال تعالى: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى} [فصلت: ٥٠].

فالإنسان ضعيف أمام سلطان المال، وتسلطه عليه، فإذا لم يحضّ نفسه على مراقبة الله، وإذا لم يقم على نفسه وازعًا يزعه من غلبة الهوى، استبدت به شهوة المال، وصرفته عن الله، وأرته الحياة الآخرة سرابًا خادعًا، لا ينبغى له أن يدع هذا الحاضر الذي بين يديه، ويتعلق بهذا السراب الخادع الذي لا يدرى ما وراءه!! والإنسان هنا، هو مطلق الإنسان، إلا من عصم الله، وهم قليل.[2]

ويبين الله طبيعة هذا الإنسان وضعفه حينما يكون المال بين يديه فتراه يبخل ويشح في الإنفاق والعطاء {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا} [الإسراء: ١٠٠] قال مقاتل رحمه الله:أي لأمسكتموه مخافة الفقر والفاقة.[3] (ومعنى «قَتُورًا»: قال قتادة رحمه الله: بخيلًا ممسكًا. فإن قيل: قد حصل في الإنسان الجواد، والكريم؟ فالجواب من وجوه:

---

١ – تفسير المنتصر الكتاني ج١٥٦ ص٢.

٢ – التفسير القرآني للقرآن: ١٥٥٦/١٦.

٣ – تفسير مقاتل: ٥٥٣/٢.

الأول: أن الأصل في الإنسان البخلُ؛ لأنَّه خلق محتاجًا، والمحتاج لا بد وأن يحبَّ ما به يدفع الحاجة، وأن يمسكه لنفسه، إلا أنَّه قد يجود به لأسبابٍ من خارج، فثبت أنَّ الأصل في الإنسان البخل.

الثاني: أنَّ الإنسان إنَّما يبذلُ؛ لطلب الحمدِ، وليخرج من عهدة الواجب، ثم للتَّقرُّب إلى الله تعالى، فهو في الحقيقة إنَّما أنفق ليأخذ العوض، فهو بخيلٌ).[1]

وقد ذكر القرآن الكريم بعض الحالات التي تدل على ضعف النفس البشرية أمام فتنة المال كما في قوله تعالى: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا} [النساء: ٦].

فهاتان الحالان: الإسراف والبدار ومسابقة كبر اليتيم ببعض التصرف، هما من مواضع الضعف التي تعرض للإنسان، فنبه الله – تعالى – عليهما، ونهى عنهما ليراقب الولي ربه فيهما إذا عرضتا له.[2] مما سبق يتبين لنا أن الإنسان يضعف إلى حد كبير أمام سلطان المادة والمال باعتباره عصب الحياة أو شقيق الروح.

---

١ – اللباب في علوم الكتاب: ٣٩٧/١٢.

٢ – تفسير المنار: ٣١٨/٤.

المطلب الثاني

الضعف أمام الأهواء والشهوات ووساوس الشيطان

الإنسان يميل بفطرته إلى حب الشهوات كالتي ذكرها الله في قوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...} [آل عمران:١٤]

وهذا الميل هو جزء من تكوينه الأصيل وهو ضروري للحياة البشرية كي تنمو وتتأصل يقول ابن الجوزي رحمه الله: إن الله لما خلق الإنسان ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بهما ما ينفعه، ووضع فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه، وأعطاه العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب، وخلق الشيطان محرضًا له على الإسراف في اجتلابه واجتنابه فالواجب على الإنسان أن يأخذ حذره من هذا العدو.[١]

قال تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [مُحَّد: ١٤] يقول: كمن حسّن له الشيطان قبيح عمله وسيئه، فأراه جميلًا فهو على العمل به مقيم.[٢]

والملاحظ أن التزيين سابق لاتباع الهوى، فبعد تزيين الشيطان يأتي إتباع الهوى فهو تمهيد لتمكين الهوى في القلوب، قال أبو السعود: (كمن زين له سوء عمله من الشرك وسائر المعاصي مع كونه في نفسه أقبح القبائح، واتبعوا بسبب ذلك التزيين أهواءهم الزائفة وانهمكوا في فنون من الضلالات من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه فضلًا عن حجة تدل عليه)[٣]، وهذا يدل على ضعف النفس البشرية أمام تزيين الشيطان للشهوات والأهواء.

---

١ – تلبيس إبليس: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن مُحَّد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ): دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان، ط: ١، ١٤٢١هـ-/ ٢٠٠١م، ص٢٣.

٢ – الطبري: جامع البيان، ١٦٦/٢٢.

٣ – تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٩٥/٨.

ومن ثم فإن الإنسان إذا استجاب لنداء الشيطان، واتبع هواه، تسلط الشيطان عليه وصار قلبه عش الشيطان ومعدنه، لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه. وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه، وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام، صار قلبه مستقر الملائكة.[١]

قال تعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ} [الجاثية ٢٣] قال الثعالبي: (المعنى لا تتأسف عليهم ومعنى {اتخذ إلهه هواه} أي جعل هواه مطاعا فصار كالإله).[٢]

وقد وافق البيان الإلهي ما قالته امرأة العزيز حينما راودت يوسف عن نفسه فأبى واستعصم {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [يوسف: ٥٢]، أي: ليعلم زوجي أني لم أركب الفاحشة، وإنما راودت يوسف مراودة فامتنع مني {وما أبرئ نفسي} فإن نفوس البشر ضعيفة تغلب عليها الشهوات إلا ما رحم ربي {إن النفس لأمارة بالسوء}.[٣]

وإذا كان الإسلام قد جعل معيار الأخلاق وتقويمها إلى بصيرة الإنسان يحتكم فيها إلى قلبه ويرجع فيها إلى ضميره، فإنه لم يغفل عن الجانب الضعيف في الإنسان ذلك الجانب الذي تهب من جهته الأهواء الذاتية والشهوات الشخصية فتثير الاضطراب في كيان الإنسان وتنذره بالهلاك الذي يتهدد سفينته الضاربة في محيط الحياة، ففي كيان الإنسان نفس أمارة بالسوء ورغبات نزاعة إلى الهوى؛ لهذا كانت تعاليم السماء موجهة إلى تقوية هذا الجانب الضعيف في الإنسان ودعمه بكل ما يضمن للإنسان الأمن والسلام من هذا الجانب لو أنه اتبع وصايا الشريعة وعمل بها.[٤]

---

١ – إحياء علوم الدين للغزالي دار المعرفة، بيروت ٢٧/٣.

٢ – تفسير الثعالبي: الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٢١١/٤.

٣ – انظر تفسير القيم لابن القيم: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان: دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط: ١- ١٤١٠ هـ-
وتفسير ابن كثير ٤٨١/٢.

٤ – التفسير القرآني للقرآن ٨٩٣/٩.

وكذلك فإن إبليس يستغل مساحة الضعف في النفس البشرية من أجل إيقاعها في المعصية والإغواء (فقد أقسم إبليس بعزة الله سبحانه أن يغوي كل أبناء آدم إلا الذين استخلصهم الله لعبادته سبحانه وتعالى، فيتسلط على الإنسان فيما يعلم أنها نقطة ضعف فيه. فمن يحب المال يدخل الشيطان إليه من ناحية المال، ومن يحب الجمال يدخل له الشيطان من ناحية الجمال، ومن يحب الجاه يجد الشيطان وهو يزين له الوصول إلى الجاه بأية وسيلة تتنافى مع الأخلاق الكريمة ومنهج الله عز وجل.

وكل إنسان له نقطة ضعف في حياته يعرفها الشيطان ويتسلل منها إليه، وقد يجند إبليس وذريته أناسًا من البشر يعملون بهدف إغواء الإنسان لإفساده. فهناك إذن ثلاثة يطلبون أن ينصرف الناس عن منهج الله تعالى ودعوة الحق؛ وهؤلاء الثلاثة هم: إبليس، والعاصون من الجن أي: الشياطين، ثم البشر الذين يشاركون إبليس في الإغواء، وهم شياطين الإنس الذين يعملون أعمالا تناهض منهج الرسل).[1]

مستغلين ما جُبل الإنسان عليه من حب الشهوات والملاذّ الفانية كما قال الله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ والْقَنَاطِيرِ المقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ والْخَيْلِ المسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا واللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ المآبِ} [آل عمران: ١٤]، ولذلك يسعى أصحاب الأهواء والشهوات ويحرصون كل الحرص على إضلال الناس وأن يتبع الناس طريقهم، وذلك بإثارة الشهوات مستغلين ضعفهم البشري أمامها كما قال الله تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٧-٢٨].

١ - تفسير الشعراوي: ٥٨٨١/١١.

المطلب الثالث

الضعف أمام التكاليف

الطبيعة البشرية تنزع إلى الراحة والدعة وهي تتوافق مع متطلبات الجسم، أما التكليف فهو يناقض الطبع، والتكليف الرباني أقرب إلى الفطرة أو الصبغة الربانية التي ينبغي أن تتحقق في البشر، ومع هذا تجد البشر يضعفون أو يتثاقلون أمام التكاليف الإلهية.

يقول صاحب أضواء البيان رحمه الله: ومما هو جدير بالتنبيه عليه، أنه إذا كانت السماء مع عظم جرمها، والأرض مع مساحة أصلها قد أذنت لربها وحقت، مع أنها لم تتحمل أمانة، ولن تسأل عن واجب، فكيف بالإنسان على ضعفه؟! قال تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا} [النازعات: ٢٧] وقد تحمّل أمانة التكليف، {فأشفقن منها وحملها الإنسان}، فكان أحق بالسمع والطاعة في كدحه، إلى أن يلقى ربه لما يرضيه.[١]

قال الله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب: ٧٢]. أي: إنا عرضنا الأمانة -التي ائتمن الله عليها المكلفين من امتثال الأوامر واجتناب النواهي- على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وخفن أن لا يقمن بأدائها، وحملها الإنسان والتزم بها على ضعفه، إنه كان شديد الظلم والجهل لنفسه[٢] أي جهولًا بما يطيق حمله، وهو على ما هو عليه من الضعف وضغط الشهوات والميول والنزعات وقلة العلم، وقصر العمر.[٣]

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: لما نزل على رسول الله ﷺ: {لله ما في السماوات وما في الأرض، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه، يحاسبكم به الله} اشتد ذلك

---

١ - أضواء البيان: ٤٦٩/٨.

٢ - التفسير الميسر: نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩ م، ٤٢٧/١.

٣ - تيسير التفسير: ١١٧/٣.

على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: "أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟! بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير؟". فلما قرأها القوم وذلت «لانت» بها ألسنتهم، أنزل الله في إثرها: آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون.. الآية. فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} الآية [البقرة: ٢٨٦].[١]

فالإنسان تجده يضعف أمام أي تكليف، ومن التكاليف التي تجده يضعف أمامها الضعف أمام تكليف القتال، يقول تعالى: {فَلاَ تَهِنُواْ وَتَدْعُواْ إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...} [محمد: ٣٥-٣٦].

نهى سبحانه المؤمنين عن الوهن والضعف فقال: {فلا تهنوا} أي: تضعفوا عن القتال، والوهن: الضعف.[٢] قال سيد قطب: (إن هذا النهي يكشف عن وجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة، وتهن عزائمهم دونه ويرغبون في السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب).[٣]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لما فرض الله على المسلمين الجهاد شق عليهم وكرهوه"[٤]. والكره في الإنسان يستعمل على ضربين: أحدهما: ما يعاف من حيث الطبع، والثاني: ما يعاف من حيث الفعل وإن مال إليه الطبع. وهذا الكره من حيث المشقة الداخلة على النفس، ومن حيث نفور الطبع عنه لما فيه من مؤنة المال ومشقة النفس وخطر الروح، لا أنهم كانوا يكرهون فرض الله.[٥]

١- صحيح مسلم: ١/١٥.

٢ – فتح القدير: ٥/٤٩.

٣ – في ظلال القرآن: ٦/٣٣٠٢.

٤ – زاد المسير: ١/١٨٠.

٥ – ينظر الوسيط للواحدي: ١/٣١٩، الراغب الأصفهاني: ١/٤٤٥، البغوي: ١/٢٧٤.

ومنه الضعف أمام تكليف عدم مباشرة النساء والأكل والشرب في ليالي الصيام والتي لأجلها جاء التخفيف الإلهي وذلك لضعف هذه النفس البشرية وعدم قوتها وصمودها أمام هذا التكليف. قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَام الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ...} [البقرة: ١٨٧].

كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.[1]

وقوله تعالى: {هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ} [البقرة: ١٨٧] أي: تعليل حل الرفث إلى النساء ليلة الصيام لأن الزوج لا يستغني عن زوجه فهو لها بمنزلة اللباس، وكذلك هي له بمنزلة اللباس، وعبر سبحانه باللباس لما فيه من ستر العورة، والحماية، والصيانة ثم بيَّن الله عز وجل حكمة أخرى موجبة لهذا الحل، وهي قوله تعالى: {علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم} أي تخادعونها بإتيانهن، بحيث لا تصبرون، والظاهر – والله أعلم – أن هذا الاختيان بكون الإنسان يفتي نفسه بأن هذا الأمر هين، أو بأنه صار في حال لا تحرم عليه زوجته وما أشبه ذلك.[2]

فنجد أن النفس البشرية تضعف أمام التكاليف الربانية، وأنه تختلف ألوان الضعف من إنسان لآخر، فتجد إنساناً يضعف أمام الواجبات وآخر لا يصمد أمام المنهيات، وثالث لا يتماسك أمام المقدرات.

---

١ – تفسير السعدي: ٨٧/١.

٢ – تفسير العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ): دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤٢٣ هـ–، ٣٤٦/٢.

المبحث الثالث

الضعف أمام الأحداث والأمور العظام

المطلب الأول

الضعف البشري أمام عظمة القرآن

القرآن كلام الله الذي أعجز البشر أن يأتوا بمثله أو يأتوا بسورة منه. وإعجازه لهم من وجوه عدة: بلاغته، وبيانه، وما فيه من تعليمات شرعها الله لعباده، وما فيه من حقائق علمية، وغير ذلك من الوجوه الكثيرة والتي تبرهن على ضعف البشرية أمام هذا الكتاب المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول الشيخ سعيد حوى رحمه الله في كتابه الأساس في تفسير القرآن بعد استقراءه للعديد من السور والآيات في القرآن الكريم: (إن مما تراه بوضوح في القرآن أنك تجد الخطاب القرآني مظهرًا للعزة الإلهية، ومظهرًا للربوبية الكاملة، فهو مثلًا عند ما يخاطب رسول الله – ﷺ – يخاطبه خطابًا تظهر فيه عزة الربوبية، وعبودية المربوب، وهو موضوع يحسه كل عاقل يتأمل في هذا القرآن، وهذا وحده كاف ليعرف المنصف أن هذا القرآن من عند الله عزّ وجل).

ويقول أيضًا: (إن مما تراه بشكل واضح في هذا القرآن أنه خال من كل مظهر من مظاهر الضعف البشري الذي لا بد أن يظهر في كل أثر من آثار البشر، إنْ في الأسلوب أو في التعبير، أو في المعاني، فعِلْمُ البشر ما دام غير محيط بالزمان والمكان، والكون، والإنسان، ومفردات اللغة وطرق تركيبها، وأساليب العرض التي لا تتناهى، إنّ الإنسان ما دام غير محيط بهذا كله أو ببعضه، فإن آثار ذلك لا بد ظاهرةٌ في كل أثر يصدر عنه، فأن تجد النص القرآني خاليًا من القصور فذلك وحده دليل على أنه من عند الله، فليتفطن قارئ القرآن لهذا).[1]

---

١ – الأساس في التفسير ٦٢٥١/١١.

كما أنك لا تجد في هذا القرآن مظهرًا من مظاهر الإسفاف، لا في المعنى، ولا في اللفظ، كما أنك لا تجد فيه مظهرًا من مظاهر الضعف البشري إن في الأسلوب، أو في العرض، أو في تسجيل معان ضعيفة، أو في إثارة معنًى شهواني، أو في الاستفادة من غريزة بشرية نازلة، هذا مع كونه حقًّا، ومع كونه هو الأعلى في اللفظ والأسلوب، والعرض وطرق الانتقال، ودقائق الوحدة في السورة والسياق، إنّ كتابًا هذا بعض وصفه ليدل دلالة واضحة على أنه من عند الله، ولَيشهد شهادة كاملة على أن محمدًا - ﷺ - رسول الله.[1]

أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض أي: يعلم كل سر خفي في السماوات والأرض، يعني: أن القرآن لما اشتمل على علم الغيوب، التي يستحيل عادة أن يعلمها مُحَمَّد - ﷺ - من غير تعليم إلهي، دل على أنه من عند علام الغيوب، أي: ليس ذلك مما يفترى ويختلق، بإعانة قوم، وكتابة آخرين من الأحاديث والأساطير المتقدمة، بل هو أمر سماوي، أنزله الذي لا يعزب عن علمه شيء، أودع فيه فنون الحكم والأحكام، على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفهام، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بأمور مغيبات، وأسرار مكنونات، لا يهتدي إليها ولا يوقف عليها إلا بتوقيف العليم الخبير.[2]

ولذلك جاء وصف هذا القرآن في القرآن في أكثر من موضع بأنه كتاب مبين وبأنه معجز لا يستطيع البشر على اختلاف قدراتهم ومواهبهم وطاقاتهم أن يصلوا إلى مستواه. وكيف لهم ذلك وهو كلام العزيز العليم؟! {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا} [الإسراء: ٨٨-٨].

---

١ - الأساس: ٣٩٣٨/٧.

٢ - البحر المديد: ٧٩/٤.

المطلب الثاني

الضعف عند الحوادث والأزمات

من المظاهر الواضحة في هذا الإنسان أنه يضعف إذا اعترضته في حياته الحوادث أو الكوارث والنكبات، سواء ما يتعلق منها في الكون أو في النفس، والنماذج التي ذكرها القرآن كثيرة ومنها:

- موقف الصحابة رضوان الله عليهم حينما أشيع مقتل رسول الله ﷺ في غزوة أحد يقول ابن كثير رحمه الله: "لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قُتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمدًا قد قُتل. ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمدًا. وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشجه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال ففي ذلك أنزل الله -عز وجل- على رسوله ﷺ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...} [آل عمران: ١٤٤] أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

ثم قال تعالى منكرًا على من حصل منه الضعف: {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شيئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤]. أي: رجعتم القهقرى.[١] أنكر الله تعالى على من حصل له ضعف بأن من يرجع عن دينه والجهاد في سبيل الله ومقاومة الأعداء، فلن يضر الله شيئًا بما فعل، بل يضر نفسه. وكانت هذه تمهيدًا لموت النبي ﷺ، وتذكيرًا لأمثال عمر رضي الله عنه. وهذا يعني أن المصائب التي تحل بالإنسان لا مدخل لها في كونه على حق أو باطل.

- وفي حادثة أخرى أيضًا حصلت في نفس الغزوة تدل دلالة واضحة على وجود هذا الضعف في ساعة العسرة، يقول أنس بن النضر عم أنس بن مالك في ساعة اشتداد الأزمة على

١ - تفسير ابن كثير: ١٢٨/٢.

المسلمين في أحد، وحين شاع بين الناس أن النبي ﷺ قد قتل، وظهر على لسان بعض ضعفاء المؤمنين: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبي، فيأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان، وقال بعض المنافقين: إن كان مُحَّد قد قتل، فالحقوا بدينكم الأول، قال: "إن كان مُحَّد قد قتل، فإن رب مُحَّد لم يقتل، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟". [١]

- ويوضح القرآن مشهدًا من المشاهد الكونية العنيفة والتي تبرز ضعف الإنسان أمام قدرة الله تعالى وتحكمه في هذا الكون، يقول صاحب الظلال: (وبينما هم في هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول، وفي هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره، الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزًّا ويرجها رجًّا فإذا هي تمور. ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور.. يهز هذه الأرض في حسهم ويثير هذا الحاصب في تصورهم، لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: ١٦ -١٧].

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول، ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبَهم المعلوم! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب، في بعض الأحيان، عندما يأذن الله بأن تضطرب قليلًا فيرتج كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم! ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة - ذلك عند الزلازل والبراكين، التي تكشف عن الوحش الجامح، الكامن في الدابة الذلول، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر، ولا تجمح إلا ثواني معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها، أو يغوص في جوفها عندما تفتح أحد أفواهها وتخسف كسفة منها وهي تمور وحينها البشر لا يملكون من هذا الأمر شيئًا ولا يستطيعون .

وهم يبدون في هول الزلزال والبركان والخسف كالفئران الصغيرة محصورة في قفص الرعب، من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى الممسكة بالزمام، والبشر كذلك

---

١ - التفسير المنير ٤/١١٠.

يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التي تدمر وتخرب، وتحرق وتصعق. وهم بإزائها ضعاف عاجزون، بكل ما يعلمون وما يعملون. والعاصفة حين تزأر وتضرب بالحصى الحاصب، وتأخذ في طريقها كل شيء في البر أو البحر أو الجو يقف الإنسان أمامها صغيرًا هزيلًا حسيرًا حتى يأخذ الله بزمامها فتسلس وتلين.

والقرآن يذكّر البشر الذين يخدعهم سكون الدابة وسلامة مقادها، ويغريهم الأمان بنسيان خالقها ومروضها. يذكّرهم بهذه الجمحات التي لا يملكون من أمرها شيئًا.، يحذرهم وينذرهم في تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل).[1]

– وكما يضعف الإنسان أمام فعل الله في الأرض، كذلك تجد ضعفه أمام فعل الله في البحر حينما يهيج ويضطرب، قال تعالى: {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} [لقمان: ٣٢].

يقول الشيخ الزحيلي رحمه الله: (إن قدرة البشر محدودة ضعيفة، مهما ظن الإنسان بقوته وقدرته، فتراه مبهوتًا عاجزًا مشدوهًا أمام المخلوقات الكونية العظمى، لا يستطيع الإحاطة بها، أو إيجاد مثلها، أو التأثير فيها إيجادًا وإعدامًا، أو تغييرًا وتبديلًا لمسيرتها وحركتها).[2] قال الله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا} [النازعات ٢٧].

لقد عطف الله هذه الآية على ما سبق من قصة فرعون، وهي أن فرعون لما تعاظم في نفسه، وقال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: ٢٤].

جاءت هذه الآية مبينة لجانب من جوانب عجز الإنسان مهما طغى وتجبر. وجواب هذا السؤال معروف، فمن ذا الذي يستطيع أن يقرن نفسه بخلق السماوات والأرض؟!

فلو ذهبت إلى آثار الأمم الماضية من الفراعنة واليونان والرومان والإغريقيين والآشوريين وغيرهم، لوجدت من آثارهم شيئًا مدهشًا وعظيمًا، لكن ما نسبة هذا الذي رأيت من حيث

---

١ – تفسير الظلال: ٣٦٤٠/٦.

٢ – التفسير الوسيط: الزحيلي، ١٦٦/١.

عظمته وقوته إلى ما تشاهده في ملكوت السماوات والأرض؟! وقوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا} [النازعات ٢٧]، أي أقوتكم أشد وأجسامكم أمتن وأقوى أم السماء؟

والسماء تطلق على كل ما علا وارتفع[١]، وقد يكون المقصود: هذه القبة التي فوقنا، فيكون في هذا إشارة إلى مجراتها ونجومها وأقمارها وشموسها وأفلاكها الضخمة الهائلة.

والإنسان عاجز عن أن يحيط بأبعادها ونجومها ومجراتها، فضلًا على أن يقيس نفسه بها ولهذا قال: {بناها} أي: إن هذا الوصف في السماء إشارة إلى قوتها وإحكامها، فإذا كان البشر يبنون هياكل ومعابد وقبورًا وأهرامات، فالله تعالى قد بنى هذه السماء العظيمة.[٢]

المطلب الثالث

الضعف أمام مشاهد يوم القيامة وأماراتها

لقد وصف القرآن الكريم أحوالاً رهيبة لمجريات وأحوال يوم القيامة والتي يشيب لهولها الولدان وهذه الأهوال والأحوال لا تستقر أمامها المكونات من أفلاك وأجرام وجبال وغيرها فأولى بهذا الإنسان الضعيف أن يهتز ويضطرب أمام تلك المجريات والأحداث، يقول الله سبحانه وتعالى واصفًا حال الإنسان أمام المشاهد الرهيبة التي تحصل يوم القيامة: {يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ} [الحج: ١.٢].

أي: إن قلاقلها، وإن اهتزازها للنفس وللعقل والبدن، وإن هولها لشيء عظيم لا يكاد يوصف ولكن يوصف ما يحدث معها. قوله: {شَيْءٌ عَظيمٌ} عظيم بخطره، عظيم بزلزلته، عظيم ببلائه، عظيم بهزة النفس التي تكاد تفقد كل شيء ذهولًا وغفلة، وتكاد تنسى نفسها وكل ما يتعلق بها، فهذه الزلزلة شيء عظيم فظيع كبير لا تكاد النفس تتصوره، ولا تقوم له.

---

١ - ينظر لسان العرب (س م و)(٢٩٠/١)، وتاج العروس (س م و)(٣٠١/٣٨).

٢ - إشراقات قرآنية:، ١٠٩/١.

{تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت} أي: تغفل عنه؛ مع أن الطبيعة البشرية: تقتضي تمام الحرص من جانب الأم على وليدها، وتقتضي كامل الشفقة به، والحنو عليه؛ فيذهب جميع ذلك لشدة ما تلقاه في هذا اليوم من الهول، وما تجده من الرعب، {وتضع كل ذات حمل حملها} أي: تطرح كل حبلى ما في بطنها؛ لشدة ما ترى من الفزع {وترى الناس سكارى} أي: كالسكارى؛ في عدم الوعي، وفي الخلط، وفي التعثر، وفي الذهول، {وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد} حقيقة؛ ولكنه هول القيامة.[1] وعن الحسن رحمه الله أنه قال: تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام، وتضع الحامل ما في بطنها بغير تمام.[2] وهذا يدل على أن هذه الزلزلة تكون في الدنيا لأن بعد البعث لا يكون حمل.[3]

وفي التعبير بـ {شيء عظيم} إيذان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها. ثم هوَّل شأنها، فقال: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا} أي: الزلزلة، وتُشاهدون هول مطلعها، {تذْهَلُ كُلُّ مُرْضعَةٍ} أي: مباشِرة للإرضاع، {عَمَّا أَرْضَعَتْ} أي: تغفل وتغيب، من شدة الدهش عما هي بصدد إرضاعه من طفلها، الذي ألقمته ثديها. فالمرضعة، بالتاء، هي المباشِرة الإرضاع بالفعل، والمرضع -بلا تاء- لمن شأنها أن ترضع ولو لم تباشر الإرضاع. والتعبير عنه بـ «ما» دون «من» لتأكيد الذهول، كأنها من شدة الهول لا تدري من هو بخصوصه، وقيل: «ما» مصدرية، أي: تذهل عن إرضاعها. والأول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج[4].

ومن تلك المشاهد الآسرة الرهيبة والتي تعبر عن ضعف البشر أمام مشاهد البعث والنشور، وقد ذكر تعالى كيفية انبعاثهم من قبورهم وإسراعهم إلى موقف المحشر، فقال: {مهطعين} أي: مسرعين، كما قال تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} [القمر: ٨]، وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ

---

١ – أوضح التفاسير: ٤٠٠/١.

٢ – السراج المنير: ٤٢٢/٢.

٣ – البغوي: ٣٦٤/٥.

٤ . البحر المديد ٥٨٤/٤، تفسير أبي السعود ٩١/٦،روح المعاني ١١/١٧،فتح البيان في مقاصد القرآن ١٠/٩،فتح القدير :٦٢١/٣.

لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} إلى قوله {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: ١٠٨- ١١١]، وقال تعالى: {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} الآية [المعارج: ٤٣].

وقوله: {مقنعي رؤوسهم} قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: «رافعي رؤوسهم». {لا يرتد إليهم طرفهم} أي: أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم - عياذًا بالله العظيم من ذلك - ولهذا قال: {وأفئدتهم هواء} أي: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: «إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها»، ولذلك يصف الله حالهم في هذه الشدة بقولِه تعالى {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} [القارعة: ٤] والفَرَاشُ مَثَلٌ في الضعف.[١]

يقول النسفي رحمه الله: (شبّههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار، وسمي فراشًا لتفرشه وانتشاره).[٢]

ويصفهم بقوله: {يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا} [طه: ١٠٣]. يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى: والخفت: خفض الصوت، و«يتخافتون»: يتبادلون الصوت الخافت الذي يكون بين الجهر والإسرار والنجوى، فهو ليس إسرارًا ولا نجوى، ولكنه إعلان في خفت، وهذا التخافت من الهلع والفزع، فإن المفزوع الخائف الهالع يكون كلامه خفيضًا من شدة فزعه؛ إذ لا يستطيع أعلى منه، ولأنه يحسب أنه محسوب عليه قوله.

واللبث المتحدَّث عنه في أي حال هو؟ أهو اللبث في الحياة الدنيا؟ أم اللبث في القبور بين الموت والبعث؟ اتجه كثير من المفسرين إلى أنه اللبث في الحياة الدنيا مستمتعين بلذائذها

---

١ - ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، ت: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ١٠/١٩١، ابن كثير: ٤/٤٤٢

٢ - تفسير النسفي: ٣/٦٧٣

وزينتها وزخارفها، فإنهم يحسبونه زمنًا قليلًا ويجتمع عليهم ألَمان: ألم بشعور قلة متاعهم في الدنيا، والألم الثاني طول عذابهم في الآخرة، أي أنهم يدركون أن الدنيا متاع قليل بجوار عذاب الآخرة الطويل، ومهما تكن حالهم فإنهم يستقلون متعتهم التي يحاسبون فيها بجوار الشقاء الذي يلقونه في دار الجحيم التي يخلدون فيها، ويقوي هذا الرأي قوله تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ} [المؤمنون: ١١٢- ١١٣]. ويتجه بعض المفسرين إلى أنه اللبث في القبور إلى وقت البعث، وذلك أنهم يحسبون أنهم لبثوا وقتا قصيرًا ثم استيقظوا بالبعث، فإنهم وقت البعث لا يحسبون أنهم قضوا وقتًا طويلًا في القبور، وذلك من قدرة الله وضعف الإنسان.[١]

المطلب الرابع

الضعف أمام الموت

الموت حقيقة صادمة لا يستطيع الإنسان حيالها أي مقاومة أو دفع أو تأخير فهي تؤكد بشكل واضح وصريح مدى ضعف الكائن البشري أمام أمر الموت وهيبته.

ولم يؤكد الله تعالى في أمر من الأمور تأكيده أمر الموت، وذلك لأن من طبع الإنسان أنه يغفل ويلهى أو يتناسى هذه الحقيقة، فالموت حقيقة حاضرة غائبة في نظر الإنسان، ولذلك بعد أن ذكَر الله خلق الإنسان والأطوار التي يمر بها أكد الله هذه الحقيقة بقوله: {ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٥.١٦].

ولم يؤكد سبحانه أمر البعث تأكيده لأمر الموت مع كثرة المترددين فيه والمنكرين له اكتفاءً بتقديم ما يغني عن كثرة التأكيد، ويشيد أركان الدعوى أتم تشييد من خلقه — تعالى – الإنسان من سلالة من طين ثم نقله من طور إلى طور حتى أنشأه خلقًا آخر يستغرق العجائب ويستجمع الغرائب، فإن في ذلك أدل دليل على حكمته وعظيم قدرته عز وجل على بعثه وإعادته، وأنه جل وعلا لا يهمل أمره ويتركه بعد موته نسيًا منسيًّا مستقرًّا في رحم العدم، كأن

---

١ - زهرة التفاسير: ٤٧٨٦/٩

لم يكن شيئًا. ولما تضمنت الجملة السابقة المبالغة في أنه – تعالى شأنه – أحكَمَ خلقَ الإنسان وأتقنه، بالغ سبحانه عز وجل في تأكيد الجملة الدالة على موته مع أنه غير منكر له لما أن ذلك سبب لاستبعاد العقل إياه أشد استبعاد حتى يوشك أن ينكر وقوعه من لم يشاهده وسمع أن الله – ﷻ – أحكم خلق الإنسان وأتقنه غاية الإتقان، وهذا وجه دقيق لزيادة التأكيد في الجملة الدالة على الموت وعدم زيادته في الجملة الدالة على البعث.[١]

ثم إنه بولغ في تأكيد ذلك تنبيهًا للإنسان أن يكون الموت نصب عينيه ولا يغفل عن ترقبه، فإن مآله إليه فكأنه أكدت جملته ثلاث مرات لهذا المعنى، لأن الإنسان في الحياة الدنيا يسعى فيها غاية السعي، ويؤكد ويجمع حتى كأنه مخلد فيها فنبه بذكر الموت مؤكدًا مبالغًا فيه ليقصر، وليعلم أن آخره إلى الفناء فيعمل لدار البقاء.[٢]

إن النفس البشرية لها هوًى قد يستر عنها الحقائق ويغلق دونها باب اليقين ويدفعها إلى ذلك غرور الحياة، فإذا ما جاءت سكرة الموت بالحق، انتهى كل شيء يُبعد الإنسان عن منهج الحق واليقين؛ ولا تبقى إلا القضايا بحقها وصدقها ويقينها، وتستيقظ النفس البشرية لحظة تظن أنها ستلقى الله فيها ويسقط غرور الحياة، ويراجع الإنسان منهم نفسه في هذه اللحظة، ويقول: أنا اتبعت هوى نفسي. {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٩٠].

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: ٩٣]، وفي هذا العرض يبدو المصير الذي يصير إليه كل ظالم، حين تنتهي أيامه القصيرة في هذه الدنيا، بحلوها ومرها، وبلهوها وعبثها، وإذ هو على مشارف الحياة الآخرة، وملائكة الرحمن يمدّون أيديهم لانتزاع ثوب الحياة الذي يلبسه هذا الجسد، الذي كان يمشي في الأرض مختالًا فخورًا، يحسب أن ماله أخلده، وما هي إلا لحظات، يعالج فيها سكرات الموت،

١ – روح المعاني: ١٨/١٦–١٧.

٢ – البحر المحيط: ٦/٣٦٩.

حتى يكون جثة هامدة، كأنه لقي ملقًى على الطريق، بل إنه يصبح سوأة يجب أن تختفي وتتوارى عن الأنظار، وتغيّب في باطن الأرض.. وليس هذا فحسب، بل إن ذلك هو بدء لمرحلة جديدة، لحياة أخرى غير الحياة التي كان فيها، إنه سيبعث من جديد، ويلبس ثوب الحياة مرة أخرى، ولكن لا ليكون مطلق السّراح يلهو ويعبث، بل ليُلقى به في جهنم، وليكون وقودا لجحيمها المتسعر. وفي قوله تعالى: {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ} إشارة إلى هذا الأمر الملزم، الذي يحمله الملائكة، لقبض أرواح الظالمين، وأن الملائكة، وهم الموكلون بقبض هذه الأرواح، يحملون هؤلاء الظالمين حملًا على انتزاعها بأنفسهم، وإعطائها لهم بأيديهم، وفي هذا تنكيل بهم، وإذلال وقهر لهم، بأن يُحملوا حملًا على انتزاع حياتهم بأيديهم.. هكذا {أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ}.. وهل يعطي الإنسان نفسه بيده؟ إنه لأهون عليه كثيرًا أن ينتزعها أحد منه قهرًا وقسرًا، من أن يكون هو الذي يقدّم بيديه أعزّ شيء يملكه، بل كل شيء يملكه..[١]

ومما يدلل على ضعف الإنسان أمام سلطان الموت أنه لا يستطيع دفعه عنه ولا يستطيع غيره دفعه عنه مهما أوتي من قوة وعلم، قال تعالى: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: ١٩].

والمجيء مجاز في الحصول والاعتراء. وفي هذه الاستعارة تهويل لحالة احتضار الإنسان وشعوره بأنه مفارق الحياة التي أَلِفها وتعلق بها قلبه.

والسكرة: اسم لما يعتري الإنسان من ألم أو اختلال في المزاج يحجب من إدراك العقل فيختل الإدراك ويعتري العقل غيبوبة. وهي مشتقة من السَّكْر بفتح فسكون وهو الغلق لأنه يغلق العقل ومنه جاء وصف السكران.

والباء في قوله: {بالحق} للملابسة، وهي إما حال من سكرة الموت أي متصفة بأنها حق، والحق: الذي حق وثبت فلا يتخلف، أي السكرة التي لا طمع في امتداد الحياة بعدها. وإما حال من الموت، أي ملتبسًا بأنه الحق، أي المفروض المكتوب على الناس فهم محقوقون به،

---

١ - التفسير القرآني للقرآن: ٤/٢٤١.

أو الذي هو الجد ضد العبث كقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [التغابن: ٣] مع قوله: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا} [ص: ٢٧].

والخطاب المقصود منه الإنسان، وبالمقصود الأول منه وهم المشركون لأنهم أشد كراهية للموت لأن حياتهم مادية محضة فهم يريدون طول الحياة قال تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ} [البقرة: ٩٦] إذ لا أمل لهم في حياة أخرى ولا أمل لهم في تحصيل نعيمها، فأما المؤمنون فإن كراهتهم للموت المرتكزة في الجبِلّة بمقدار الإلف لا تبلغ بهم إلى حد الجزع منه.[١]

وكذلك فإن البشر عاجزون عن دفع هذا الموت عن غيرهم قال تعالى: {كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ *وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ *إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} [القيامة: ٢٧] أي: اذكروا- أيها الناس- وقت بلوغ الروح نهايتها، ووقت أن وقف من يهمهم أمرُ المريض مستسلمين لقضاء الله- تعالى- وملتمسين من كل من بيده شفاءُ مريضهم، أن يتقدم لإنقاذه مما هو فيه من كرب، ولكنهم لا يجدون أحدًا يحقق لهم آمالهم.[٢] وفي ذلك يقول الشاعر:

هل للفتى من بنات الدهر من واقِ   أم هل له من حمام الموت من راقِ[٣]

وقوله تعالى: {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [سورة الواقعة: ٨٦-٨٧] معناه: فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها في الجسد إن كنتم غير مدينين.[٤]

---

١ – التحرير والتنوير: ٣٠٦/٢٦

٢ – التفسير الوسيط للطنطاوي: ٢٠٥/١٥.

٣ – باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: أبو القاسم، الشهير بـ (بيان الحق) (المتوفى: بعد ٥٥٣هـ) ت: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى – مكة المكرمة: ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م ١٥٩٣/٣.

٤ – تفسير ابن كثير: ٣٤/٨.

فالإنسان ضعيف أمام الموت بكل حيثياته ضعيف أمام سكراته ضعيف أمام ملائكته، لا يستطيع في ذلك الموقف إلا أن يستسلم لمراد الله وقدره، ولا يملك هو ولا غيره دفعًا ولا تأجيلًا لأمر الله ومراده.

الفصل الخامس
منهجية القرآن الكريم في علاج الضعف البشري

المبحث الأول: العلاجات القلبية.

المبحث الثاني: العلاجات الشرعية.

المبحث الثالث: العلاجات الاجتماعية.

المبحث الرابع: العلاجات العامة.

الفصل الخامس

منهجية القرآن الكريم في علاج الضعف البشري

بعد أن تعرفنا على مفهوم الضعف البشري واشتقاقاته ومرادفاته ومقابلاته في الفصل الأول، ثم تعرفنا على أنواع هذا الضعف البشري في الفصل الثاني، ثم انتقلنا لنتعرف أسباب الضعف البشري في الفصل الثالث، وألقينا الضوء على بعض مظاهر الضعف البشري في الفصل الرابع، سنتعرف هنا على علاجات هذا الضعف البشري.

فالقرآن الكريم هو المنهج الإلهي الذي يعطي الحل الأمثل والدواء الأنجع، والذي يحكم بالحق في كل مشكلة من مشكلات الحياة الدنيا في كل عصر وبيئة. (فالمنهج الإلهي موضوع ليعمل في كل بيئة، وفي كل مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، وفي كل حالة من حالات النفس البشرية الواحدة، آخذًا في الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته، وقوته وضعفه، وحالاته المتغيرة التي تعتريه، والرجوع إلى الله له صورة واحدة وطريق واحد، إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم، إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها، والتحاكم إليه وحده في شؤونها، وإلا فالفساد في الأرض والشقاوة للناس، والارتكاس في الحمأة، والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله).[١]

ومن هنا حاولت جاهدًا استقراء آيات القرآن الكريم ألتمس من هديه الوصول إلى بعض العلاجات التي وردت فيه، والتي تقدم للبشرية العلاج الأمثل للضعف بكافة أنواعه ومستوياته، وقد ذكرت في هذا الفصل أربعة مباحث تتناول تقديم العلاجات للضعف البشري وهي:

المبحث الأول: العلاجات القلبية.

المبحث الثاني: العلاجات الشرعية.

المبحث الثالث: العلاجات الاجتماعية.

---

١ – الحياة في ظلال القرآن، عبدالله الطنطاوي، مُحَمَّد علي الهاشمي، أحمد أحمد جاد، مركز الحضارة للبحوث والدراسات والتدريب، طبعة اسطنبول الثانية، ١٤٤٠ هـ– ٢٠١٩م.

المبحث الرابع: العلاجات العامة.

المبحث الأول العلاجات القلبية

ويشتمل على ثمانية مطالب:

المطلب الاول: الإكثار من ذكر الله تعالى.

١- الاستغفار.

٢ - الاستعاذة.

المطلب الثاني: الاستعانة بالله سبحانه وتعالى والتحقق بالعبودية الخالصة، والالتجاء إليه والاعتصام به واستشعار معونة الله تعالى.

المطلب الثالث: الإيمان بالله تعالى.

المطلب الرابع: التوكل على الله.

المطلب الخامس: التقوى.

المطلب السادس: الصبر.

المطلب السابع: الثبات.

المطلب الثامن: رفع الروح المعنوية.

المطلب الأول

الاكثار من ذكر الله

إن من أعظم العلاجات القلبية التي نبه عليها القرآن الكريم، وحث على الإكثار منها، والتي من شأنها إبعاد الهم وطرد الغم وإزالة كدر الحياة، وأن تبعث في النفس الطمأنينة والسعادة والسرور، وأن تجعل في الوجه نورًا وبهجة: الاكثارَ من ذكر الله.

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} [الرعد: ٢٨] (أي: تسكن قلوبهم بذكر الله. وقيل: تستأنس قلوبهم بذكر الله، والسكون باليقين، والاضطراب بالشك، قال الله تعالى في شأن المشركين: {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [الزمر: ٤٥]. أي: اضطربت، وقال في المؤمنين: {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله}).[١] يقول ابن كثير: (أي تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولًى ونصيرًا، ولهذا قال: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} أي: هو حقيق بذلك).[٢]

{الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين قلوبهم إلى ذكر الله} [الزمر: ٢٣] وهذا إشارة إلى أثر من آثار القرآن على نفوس المؤمنين من الخشية والسكون والأدب "كما كان الصحابة ﵃ عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. ولم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة. هذا نعت أولياء الله نعتهم الله تعالى قال: تقشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى، ولم ينعتهم الله تعالى بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع وإنما هو من الشيطان.[٣]

فذكر الله هو الدواء الناجع، وهو الطاقة القوية في خضم الحياة، وهو من أهم الأمور التي تعين على مواجهة أعباء الحياة وإكمال الطريق.

قال تعالى مخاطبًا نبيه محمد ﷺ الذي كان يلاقي ما يلاقيه في طريق الدعوة {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} [الحج: ٩٧، ٩٨]. {ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون}، وتتحرج نفسك بما يعملون ولكن الدواء الناجح

---

١ – تفسير القرآن: أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار السمعاني، (المتوفى: ٤٨٩هـ)، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن – الرياض، ١٤١٨هـ-- ١٩٩٧م، ٩٢/٣

٢ – تفسير ابن كثير: ٣٩١/٤.

٣ – انظر: تفسير الدر المنثور (٢٢١/٧)، تفسير ابن كثير (٩٥/٧).

الذي به تطمئن القلوب وتهدأ النفوس، حتى تستعذب في سبيل الله كل عذاب، وتعده من أكبر النعم وتمام التطهير لها، هذا الدواء هو التسبيح والتقديس والركوع والسجود، والإكثار من العبادة والاتصال بالله؛ إذ هذه مطهرات للنفس مقويات للروح، ومتى قويت الروح ضعفت النفس المادية التي تشعر بالألم والتعب والنصب إذا عملت في سبيل الله.[1]

فهذا دليل على تأثير الروح في النطاق الجسمى؛ إذ الصلاة والتسبيح غذاء للروح قوي، وإذا قويت الروح كان الإحساس بالتعب الجسمى وبالألم البدني قليلًا بل يكاد ينعدم.[2] ويدل على ذلك حديث النبي –عليه الصلاة والسلام– وهو يصف العلاج لابنته فاطمة –رضي الله عنها– وذلك أن فاطمة –عليهما السلام– شكت ما تلقى في يدها من الرحى، فأتت النبي –صلى الله عليه وسلم– تسأله خادمًا فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء أخبرته، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت أقوم، فقال: "مكانك" فجلس بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: "ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟ إذا أويتما إلى فراشكما، أو أخذتما مضاجعكما، فكبرا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، فهذا خير لكما من خادم".[3]

ومن هذه الأذكار التي تمد الإنسان بقوة الروح وبروح القوة وتمنحه الطمأنينة والقوة والعون والثبات على مشاق الطريق:

أولًا: الاستغفار:

من طبيعة النفس البشرية أنها معرضة لارتكاب الذنوب والآثام، فهكذا جبلت نفس الإنسان على السهو والخطأ، فكان من رحمة الله بعباده أن فتح لهم باب الاستغفار لترميم النقص والضعف الحاصل في النفس البشرية الضعيفة، كما أن الاستغفار سبب في دفع البلاء الذي قد يصيب الإنسان، كما أنه بالاستغفار تحل الكثير من المشاكل والصعوبات التي قد

١ – التفسير الواضح: الدكتور / مُحَمَّد محمود حجازى، دار الجيل الجديد، ٢/٢٩٤.
٢ – نفس المرجع السابق: ٢/٥١٣.
٣ – صحيح البخاري: ٨/٧٠

تواجه الإنسان، ويصعب عليه حلها والمؤيدات لذلك في القرآن كثيرة ومنها قول الله تعالى على لسان هود عليه السلام: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود: ٥٢].

يبين سبحانه ما يترتب على الاستغفار من المنافع المادية والمعنوية، فقال تعالى: (يُرْسل السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مدْرَارًا)، المراد المطر، وعبر عنه بمكان نزوله من قبيل «إطلاق المحل وإرادة الحالّ»، ومدرارًا أي كثيرًا، ينبت به زرعكم ويكون قوام حياتكم، وفي ذلك الخير فائدتان:

الفائدة الأولى: أن القرب إلى الله وعبادته الخالصة يبسط الله بهما الرزق، كما قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ منَ السَّمَاء وَالْأَرْض وَلَكنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بمَا كَانُوا يَكْسبُونَ} [الأعراف: ٩٦].

الفائدة الثانية: تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم وهى توجب أن يؤمنوا بدل أن يشركوا، ويقول سبحانه على لسان نبيه هود {ويزدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتكُمْ} [هود: ٥٢] أي: يزيدكم قوة مضمومة إلى قوتكم، فشكر النعمة يزيدها {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئنْ شَكَرْتُمْ لَأَزيدَنَّكُمْ وَلَئنْ كَفَرْتُمْ إنَّ عَذَابي لَشَديدٌ} [إبراهيم: ٧].

فالقوة نعمة فاشكروها تزدادوا قوة إلى قوتكم. وينهاهم عن الفساد والإجرام بهذه القوة التي إن لم تُشكر كانت سببًا للإجرام، ولذا قال لهم نبي الله – ﷺ – {وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرمينَ} أي لَا تتولوا حال كونكم بهذه القوة فتكونوا قوما مجرمين.[1]

يقول صاحب المنار: (فهذه الآية وغيرها حجج على أعداء الإسلام من المنتمين إليه، ومن غيرهم الزاعمين أنه – وكذا كل دين إلهي – سبب للضعف والفقر).[2]

---

١ – زهرة التفاسير: ٣٧١٥/٧.

٢ – تفسير المنار: ٢٤/٩.

وفائدة الاستغفار المذكورة في الآية، لها ما يؤيدها في السنة النبوية، ففي الحديث الذي رواه ابن عباس عن النبي عليه الصلاة والسلام: "من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب"[1].

ويستفاد مما تقدم: أن الداعي إلى الله، عليه أن يذكر المدعوين بما يستثير مشاعرهم، ويحقق اطمئنانهم إليه، ويرغبهم في اتباع الحق، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدي إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم. وأن الانحراف عنه سيؤدي إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم.

انظر إلى قول هود – عليه السلام –: {وَيا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ، يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ، وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}، وأن الداعي إلى الله – تعالى– عندما يخلص لله دعوته، ويعتمد عليه – سبحانه – في تبليغ رسالته، ويغار عليها كما يغار على عرضه أو أشد، فإنه في هذه الحالة سيقف في وجه الطغاة المناوئين للحق، كالطود الأشم، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم، لأنه قد أوى إلى ركن شديد. وهذه العبرة من أبرز العبر في قصة هود عليه السلام.[2]

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان. ومعنى هذا الضعف: أنه قد يستولي عليه النفع العاجل، فيُذهبه عن خير آجلٍ أطول منه، فيقع في بعض من غفلات النفس.

لذلك بيَّن الحق –سبحانه– أن من وقع في بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحدٍ من خلقه. وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله، فسبحانه قد شرع التوبة، وهي الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى.

---

١ . أخرجه أبو داود: ٨٥/٢. وابن ماجه: سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر – بيروت ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ١٢٥٤/٢. يقول الشيخ شعيب الأرناؤوط :إسناده ضعيف لجهالة الحكم بن مصعب. ينظر سنن ابن ماجه ،ت الأرنؤوط ، دار الرسالة العالمية ،ط:١، ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م،٧٢١/٤.

٢ – التفسير الوسيط الطنطاوي: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط: ١، ٢٣٠/٧.

ولا يقع عبد في معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه، فإذا ما تاب واستغفر، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه، ويعمل على ألا يقع في ذنب جديد. وهنا يقول الحق سبحانه: {وَأَن استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ توبوا إِلَيْه} [هود: ٣].[١]

فلابد من ملازمة الاستغفار لما يترتب عليه من تطهير حياة المسلم وتنقيتها من المعاصي والسيئات أولًا بأول، فضلًا عن كونه سببًا في تفريج الهم والكرب، وإيجاد مخرج من كل ضائقة، وفتح لأبواب رزق لم تكن تخطر في البال.[٢]

ولذلك فتح الله أمام الإنسان أبواب التوبة، وأطمعه بالغفران والعفو إذا هو تاب واستغفر وأصلح، لأنه بسبب ضعفه أمام أواسر أهوائه وشهواته ومطالب جسده ونفسه قد يسقط في الخطيئة ويعصي ربه. {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [البقرة: ٢٣٥]، وهو سبحانه يعلم ضعف النفس البشرية وأنها قد تضعف في بعض الأحيان، فإن كان قد حدث منها شيء فالله يعطيها الفرصة في أن يتوب صاحبها ويستغفر لأنه سبحانه هو الغفور الحليم.[٣]

ثانيًا: الاستعاذة:

من لطائف الاستعاذة أن قول الإنسان «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» إقرار من العبد بالعجز والضعف، واعتراف من العبد بقدرة البارئ -عز وجل- وأنه هو الغني القادر على دفع جميع المضرات والآفات، واعتراف من العبد أيضًا بأن الشيطان عدو مبين، ففي الاستعاذة التجاء إلى الله تعالى القادر على دفع وسوسة الشيطان الغوي الفاجر، وأنه لا يقدر على دفعه عن العبد إلا الله تعالى.[٤]

---

١ - الشعراوي: ١٠/ ٦٣٠٧-٦٣٠٨.

٢ - توجيهات نبوية على الطريق: السيد مُحَمَّد نوح، مكتبة الوفاء، المنصورة، ط٨، ١ /١٠٩.

٣ - تفسير الشعراوي بتصرف: ١٠١٥/٢.

٤ - ينظر الخازن ١٥/١- وتفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن: ١٨/١.

ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه، استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان. والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر. والعياذة تكون لدفع الشر. واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله   ومن أعوذ به ممن أحاذره

ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»: أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه، فإن الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل، لأنه شرير بالطبع ولا يكفّه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة قوله في الأعراف: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِين} [الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال: {وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠].

وقال تعالى في سورةِ قد أفلح المؤمنون: {ادفع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} [المؤمنون: ٩٦ -٩٨]، وقال تعالى في سورة حم السجدة: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نزغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [فصلت: ٣٤ -٣٦].[١]

ولذلك ومن أجل أن يحافظ الإنسان على ما أودعه الله بين يديه أرشده القرآن الكريم أن يستعين بالله -تعالى- في حفظ ما أعطاه وجعله بين يديه وذلك لضعف المخلوق عن دفع ما يصيب الإنسان في نفسه وماله {ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله} أي: هلا قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، تحضيضًا له على الاعتراف بأنها وما فيها بمشيئة الله،

---

١ - ينظر تفسير ابن كثير: ١/١١٤، والأساس في التفسير: ١/٤٤.

إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، وعلى الاعتراف بالعجز، وأن ما تيسر له من عمارتها إنما هو بمعونة الله لا بقوته وقدرته.[1] قال ابن تيمية: (ولهذا يؤمر بهذا من يخاف العين على شيء).[2]

المطلب الثاني

الاستعانة به سبحانه تعالى والتحقق بالعبودية له سبحانه والالتجاء إليه والاعتصام به واستشعار معونة الله

جاءت الآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي تحث بني البشر على العبودية لله تعالى وما ينتج عنها من الاستعانة والاعتصام به والالتجاء إليه سبحانه دون غيره، ذلك لأن العبودية من البشر للبشر ذل وضعف وهوان، ومن البشر لله تعالى عز وتشريف، ولذلك وضح القرآن الكريم الهدف الأسمى من خلق الإنسان وهي عبادة الله تعالى.

يقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٦-٥٨].

هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى؛ فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.[3]

وأفضل وسيلة لمعرفة الله والتحقق بالعبودية له هي محبته، يقول ابن تيمية رحمه الله:(فكلما ازداد القلب حبًا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًا وفضله عما

---

١ - فتح القدير: ٣/٣٤٠

٢ - مجموع الفتاوى: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ت: أنور الباز – عامر الجزار، دار الوفاء، ط: ٣، ١٤٢٦ هـ- / ٢٠٠٥ م، ١٣/٣٢٣.

٣ - تفسير السعدي: ١/٨١٣.

سواه. والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقةِ {إياك نعبد وإياك نستعين} فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادة لله فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده وهو المحبوب له بالقصد الأول).[1]

من كون الله وحده نهاية مراده وغاية مَطالبه فإن فيه فقرًا ذاتيًا إلى ربه وإلهه، من حيث هو معبوده ومحبوبه وإلهه ومطلوبه، كما أن فيه فقرًا ذاتيًا إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبره. وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألهه لما سواه وعبوديته له.[2]

وتأتي هنا الحكمة من أن الله خلق الإنسان ضعيفًا، ولم يخلقه قويًا غنيًا وذلك لأن سعادة الإنسان لا تكون إلا بالله، وليكون ضعفه دافعًا إلى باب الله ليتصل به ويلوذ بحماه {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: ١٥].

فقوله تعالى: {يا أيها الناس أنتم الفقراء} المحتاجون {إلى الله} في الدنيا والآخرة[3]، في أنفسكم وفيما يعنّ لكم من أمر مهم أو خطب علم. وتعريف {الفقراء} للمبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وأن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى

---

١ – العبودية لابن تيمية تحقيق: محمد زهير الشاويش: المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص١٠٨.

٢ – إغاثة اللهفان لابن القيم الجوزية تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٥ – ١٩٧٥، ص١٩٧/١٩٨

٣ – فتح البيان في مقاصد القرآن: ٢٣٦/١١.

فقرهم بمنزلة العدم. ولذلك قال تعالى وخلق الإنسان ضعيفًا {والله هو الغنى الحميد} أي المستغني على الإطلاق المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد.[1]

قال ذو النون[2]: (الخلق محتاجون إليه في كل نفس وخطرة ولحظة وكيف لا ووجودهم به وبقاؤهم به)[3].

ومن هنا يتبين أن الذي يحول بين الإنسان وبين هذه العبودية غروره بنفسه. يقول الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة رحمه الله: (ومن العجيب في هذا الإنسان أنه ضعيف التكوين ويتجبر، مهين الأصل ويتكبر، وكم تقع الغشاوة على بصيرته فلا يرى ضعفه الدفين، وينسى أصله المهين، فإذا شعر بأنه قد ملك شيئًا من القوة استعلى بها، وسعى في الأرض ليفسد فيها، {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}).[4]

وبالتالي فإن الضعف في هذا الإنسان هو أكبر دافع يدفعه نحو العبودية لربه وطلبه المدد والعون والقوة منه سبحانه، يقول السعدي رحمه الله:(ومن حكمته أن يري العبد ضعفه وأن قوته محفوفة بضعفين وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة لطغى وبغى وعتا. وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه).[5]

ولذلك لا يستغني الإنسان العاقل عن ساحة العبودية له تعالى وذلك لأن كل شيء فيه قائم به سبحانه وتعالى، يقول صاحب الظلال رحمه الله: (والفرد الفاني ما لم يتصل بالقوة الخالدة ضعيف مهما كانت قوته؛ لأن قوى الشر والطغيان والإغواء أكبر منه. وقد يغالبها مرة

---

١ – تفسير أبي السعود: ١٤٨/٧.

٢– ذو النون المصري الزاهد العارف، اسمه ثوبان بن إبراهيم، قال الدار قطني: روى عن مالك أحاديث فيها نظر، وقال ابن يونس: كان عالما فصيحًا، حكيمًا، أصله من النوبة، مات سنة خمسين، انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٣٣/٢

٣ – ينظر تفسير السلمي =حقائق التفسير: أبو عبد الرحمن مُحَّد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي (المتوفى:٤١٢ هـ)، ت: سيد عمران، دار الكتب العلمية . بيروت، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، ١٥٩/٢. وتفسير النسفي:٨٢/٣.

٤ – الأخلاق الإسلامية: ٣٧٣.

٥ – تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٤٤.

ومرة ومرة؛ ولكنّ لحظةَ ضعف تنتابه فيتخاذل ويتهاوى، ويخسر ماضيه وحاضره ومستقبله. فأما وهو يركن إلى قوة الأزل والأبد فهو قوي، أقوى من كل قوي. قوي على شهوته وضعفه. قوي على ضروراته واضطراراته. قوي على ذوي القوة الذين يواجهونه.[1]

ويبين الله تعالى في كثير من آياته طبيعة الإنسان أنه إذا ضعف اتجه إلى الله ولجأ إليه بالفطرة: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا} [يونس: ١٢].[2]

وحاجة الإنسان إلى الله مستمرة لما يطرأ على البشر من التقلبات والظروف والأحداث. يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: (فإنّ اتخاذ الله وليًا هو أمر ضروري؛ لأن الإنسان تطرأ عليه أحداث تؤكد له أنه ضعيف وله أغيار، وساعة ضعف الإنسان لا بد أن يأوي إلى من هو أشد منه قوة ولا يتغير. إن الولي – وهو الله – قوته لا يمكن أن تصير ضعفًا، وغناه لا يمكن أن ينقلب فقرًا، وعلمه لا يمكن أن يؤول إلى جهل. إنه مغير ولا يتغير. ولذلك فمن نعمة الله على خلقه أنه جعل من نفسه وليًّا لهم، فهو صاحب الأغيار).[3]

يقول ابن القيم رحمه الله: ثم إن استشعار معية الله تعالى تدفع بالمسلم إلى عدم الاستسلام أو الخنوع، وإلى عدم الخضوع لسياسة الترويض التي تهدف إلى جعله ظبيًا جفولًا، قال الله تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٥٦]، {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الحج: ٧٨]، وأما الاعتصام به: فهو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به فإن ثمرة الاعتصام به: هو الدفع عن العبد، والله يدافع عن الذين آمنوا فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضي به إلى العطب ويحميه منه، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه، ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد

---

١ – في ظلال القرآن: ٦٨/١.

٢ – زهرة التفاسير: ٣٤٩٩/٧.

٣ – تفسير الشعراوي: ٦ /٣٥٢٥.

انعقادها بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها ويدفع عنه قدره بقدره وإرادته بإرادته ويعيذه به منه.[1]

قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا} [النساء: ١٧٥]. جعل الاعتصام به ما به ينال رحمته وفضله. والاعتصام: هو أن يلتجأ إليه في كل الأمور، وبه يوكل، لا يلتجأ بمن دونه.[2]

ثم إن مآل هذه العبودية على المستوى العام هي التمكين لعباده المؤمنين في الأرض وهي السبيل الأهم كما قال الله تعالى: {ولقد كتبنا في الزبور} هو كتاب داوود عليه السلام. وقيل: هو اسم لجنس ما أنزل على الأنبياء عليهم السلام. {من بعد الذكر} أي التوراة وقيل اللوح المحفوظ، أي: وبالله لقد كتبنا في كتاب داود بعد ما كتبنا في التوراة، أو كتبنا في جميع الكتب المنزلة بعدما كتبنا وأثبتنا في اللوح المحفوظ {أن الأرض يرثها عبادي الصالحون} أي: عامة المؤمنين بعد إجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى بإظهار الدين وإعزاز أهله.[3]

ولذلك قال: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، وقال: {إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨].

فالمتقون في هذا المقام – مقامِ استعمار الأرض والسيادة في الممالك – هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد وضعف الأمم، وهي الظلم في الحكام، والجهل وفساد الأخلاق في الدولة والأمة، وما يتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل. والصالحون في هذا المقام: هم الذين يَصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم بحسب استعدادها الاجتماعي.[4]

---

١ – مدارج السالكين: ٤٦٢/١.

٢ – تفسير الماتريدي: ٤٣١/٣.

٣ – تفسير أبي السعود: ٨٨/٦.

٤ – تفسير المنار: ٣٨٠/٢.

المطلب الثالث

الإيمان بالله تعالى

بين الله تعالى في القرآن الكريم بأن (انتفاء الخوف، والحزن، وتحصيل الأمن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين وهما تحصيل الإيمان بالله وعدم الإشراك به)[1]، ولهذا قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]، فبين لنا أن الإيمان والتوحيد هما أعظم أسباب الأمن والطمأنينة، وبالتالي يكون الجحود بالله أو الشك فيه أو الشرك به من أعظم أسباب الخوف، والاضطراب، والرعب[2]، وصدق الله العظيم إذ قال: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٥١].

إن الإيمان بالله تعالى إذا تمكن في قلب المؤمن فإنه يمده بالقوة والثبات والجد والعزيمة فيجعله قويًا وإن لم تكن عنده أسباب القوة، سعيدًا وإن هجمت عليه هموم الدنيا بأسرها. وهذا ما نلمسه من قول ابن تيمية: كما نَقل عنه تلميذه ابن القيم الجوزية: (يقول: قَالَ لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني فِي صدري، أين رحت فهي معي، لا تفارقني؛ أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.[3]

ومن البراهين الدالة على ذلك أن الله عز وجل لما تحدث عن إنزال السكينة قرنها بزيادة الإيمان فقال تبارك وتعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الفتح: ٤].

---

١ – تفسير الفاتحة والبقرة: ابن عثيمين١/٣٧١.

٢ – الإيمان والحياة: الرسالة – بيروت، ط ١، ١٥٨.

٣ – ذيل طبقات الحنابلة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، ت: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان – الرياض، ط: ١، ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٥ م، ٤/٥١٩.

يذكر السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية فيقول: (يخبر تعالى عن منته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب وتزعج الألباب وتضعف النفوس، فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه ويتم إيقانه).[١]

فقد بينت الآية أن السكينة إنما تكون من الله، فهو مُنزلها في قلوب المؤمنين لا في قلوب غيرهم، والسكينة حينما ينزلها الله في قلب تكون طمأنينة وراحة، ويقينًا وثقة، ووقارًا وثباتًا.[٢]

(ولهذا أخبر سبحانه وتعالى عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب والضعف، كيوم الهجرة إذ هو وصاحبه في الغار والعدو فوق رؤوسهما لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيوم حنين إذ ولو مدبرين من شدة بأس الكفار لا يلوي أحد منهم على أحد، وكيوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس وحسبك بضعف عمر عن حملها وهو عمر حتى ثبته الله بالصديق).[٣]

فإن المؤمن قوته من قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه – وإن كان قوي البدن – فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون إلى نفسه فتأمل قوة أبدان فارس والروم، كيف خانتهم أحوجَ ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟.[٤]

---

١ – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: السعدي ٧٩١/١

٢– في ظلال القرآن: ٣٣١٨/٦.

٣ – مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: أبو الحسن عبيد الله بن مُحَمَّد عبد السلام بن خان مُحَمَّد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (المتوفى: ١٤١٤هـ)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند، ط: ٣– ١٤٠٤ هـ–، ١٩٨٤ م، ٣٧٨/٧.

٤ – الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ٥٤/١.

ثم إن هذا الإيمان مما يعين الإنسان على الرضا بقضاء الله وقدره إذا ما وقع به مكروه أو مصيبة أو نازلة يقول الله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]، هذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد، فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالى، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته. والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة. فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر.[١]

وبالتالي يتبين أن من أعظم وسائل العلاج النفسي للمصائب والنوائب أن يوقن الإنسان أن ما يصيبه هو مكتوب له أو عليه قبل أن يُخلق، وبالتالي يواجه ما يصيبه من خير أو شر بتوازن واعتدال، وهذا لا يتحقق إلا من خلال الإيمان.

المطلب الرابع

التوكل على الله

(حقيقة التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله -عز وجل- في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وتوكيل الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه، قال سعيد بن جبير[٢]: «التوكل جماع الإيمان»، وقال

---

١ - تفسير السعدي: ٨٦٧/١.

٢ - سعيد بن جبير: هو الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد أبو عبد الله سعيد بن جبير بن هشام الوالبي الكوفي ٠ولد رحمه الله سنة ٣٨ هـ- في خلافة علي كرم الله وجهه، وتوفي سنة ٩٥ هـ-؛ قتله الحجاج ٠

روى عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري، عبد الله بن مغفل، وعدي بن حاتم، وأبي مسعود الأنصاري، وعائشة ﵂، وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال: أتسألوني وفيكم ابن أم دهماء، قال الإمام أحمد بن حنبل: قتل الحجاج سعيدًا وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه.انظر حلية الأولياء: ٢٧٢/٤، صفة الصفوة: ٧٧/٣، وفيات الأعيان: ٣٧١/٢.

وهب بن منبه[1]: «الغاية القصوى التوكل». قال الحسن: «إن توكل العبد على ربه أن يعلم أن الله هو ثقته»، وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله").[2]

ولا يمنع التوكل من الأخذ بالأسباب فهو طاعة الله بإحضار كافة الأسباب المطلوبة لأي عمل من الأعمال، ولا يكون إلا بإحضار القلب واليقين معًا.[3] بمعنى أنه يتعين على المسلم أن يتوكل على الله وحده لا شريك له، ويأخذَ بكافة الأسباب المتاحة المشروعة وإلا اعتبر متواكلًا، والتوكل يعتمد على الله وحده.

ومن فوائد التوكل:

– دوام طلب المعونة من الله الملك؛ ليقين المتوكّل بالعجز التّامّ عن تحصيل ما يريده وتمام قدرة الله على إنجاز كلّ ما يريد وفوق ما يريد؛ حيث قال الله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: ١٢].

– الحفظ والمنعة من الشّيطان الرّجيم ومن البشر اللّئيم، وكذلك راحة البال واستقرار الحال؛ حيث قال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٢].

– يحقّق رضا الله، فيجعل للعبد مخرجًا ويكفّر عنه سيّئاته. وهو من أسباب سعة الرّزق.

---

١ – – أبو عبد الله بن منبه اليماني، صاحب الأخبار والقصص، وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وسير الملوك، توفي وهب المذكور في المحرم سنة عشر وقيل أربعة عشر وقيل ست عشرة ومائة بصنعاء في اليمن، وعمره تسعون (١) سنة، ﷺ.انظر وفيات الأعيان: ٣٥/٦.

٢ – جامع العلوم والحكم: ابن رجب الحنبلي، (المتوفى: ٧٩٥هـ)، ت: شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: ٧، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م، ٤٧٩/٢،«هذا حديث صحيح قد اتفق هشام بن زياد النصري ومصادف بن زياد المديني على روايته عن مُحَمَّد بن كعب القرظي والله أعلم. يراجع المستدرك على الصحيحين للحاكم ٣٠٠/٤.

٣ – روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن مُحَمَّد، دار العاصمة – المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤٢٢ – ٢٠٠١ م، ٤٨٤/٢.

والمؤمن بإيمانه بالله، وتوكله عليه، يقف على أرض صلبة غير حائر ولا مضطرب لأنه يعتصم بالعروة الوثقى ويأوي إلى ركن شديد.[1]

والتوكل على الله، وردّ الأمر إليه في النهاية، هو خط التوازن الأخير في التصور الإسلامي وفي الحياة الإسلامية، وهو التعامل مع الحقيقة الكبرى كحقيقة أن مردّ الأمر كله لله، وأن الله فعال لما يريد.[2]

المطلب الخامس

التقوى

إن من أهم الوسائل التي تعين على حماية الإنسان ونصرته وحماية الضعفاء الذين هم تحت ولايته هي تقوى الله. وهذه النصرة والحماية تتعداه حتى بعد مماته، قال الله تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء: ٩]، نقل ابن كثير رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس ﷺ: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة.[3]

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف، {فليتقوا الله} في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملونهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.[4]

---

١ – الإيمان والحياة: ٢٦٩

٢ – في ظلال القرآن: ١/٥٠.

٣ – تفسير ابن كثير: ٢/٢٢٢.

٤ – تفسير السعدي: ١/١٦٥.

ولخص ذلك الصنعاني فيما ورد في سبب النزول عن قتادة في قوله تعالى: {وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافًا} قال: (إذا حضرت وصية فأْمره بما كنت آمرًا به نفسك مما تتقرب به إلى الله تعالى، وخف في ذلك ما كنت خائفًا على ضعفة لو تركتهم بعدك، فاتّقِ الله وقل قولًا سديدًا.[1]

وتعليل ذلك ماذهب إليه الشيخ الشعراوي رحمه الله: لأن الإنسان عندما يكون شابًّا فذاتيته تكون هي الموجودة. لكن كلما تقدم الإنسان في السن تقدمت ذاتية أولاده عنده، ويحرم نفسه ليعطي أولاده، وعندما يرى أن عياله ما زالوا ضعافًا، وجاءت له مقدمات الموت فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف، فيوضح الحقُّ لكل عبد طريقَ الأمان: إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطي للضعاف قوة، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من يتامى، بذلك تؤمّن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم. وحين يتقى المؤمن الله فيما بين يديه يرزقه الله بمن يتقي الله في أولاده.[2]

فالله عز وجل الذي خلق هذا الإنسان، وهو الذي يعلم ما يصلحه وما يفسده في نفسه وأهله وذريته، قد أخبر بأن تأمين مستقبل أولاده لا يكون إلا بأمر واحد؛ ألا وهو طريق التقوى والصلاح وحسن الصلة به سبحانه وتعالى.

وفي قصة الخضر وموسى عليه السلام أبلغ مثال لذلك...لقد قاما، وهُما مَن هُما، ببناء الجدار المتهالك في تلك القرية التي امتنعت عن ضيافتهما ثم كان تعليل الخضر عندما اعترض موسى عليه السلام على هذا الفعل: {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} [الكهف: ٨٢].

---

١ - تفسير الصنعاني: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (المتوفى: ٢١١)، ت: د. مصطفي مسلم مُحَمَّد، مكتبة الرشد الرياض، ١٤١٠هـ، ١/١٥٠.

٢ - الشعراوي: ٢٠٢١/٤.

قال صاحب الكشاف رحمه الله: (هذا اعتداد بصلاح أبيهما وحفظٌ لحقه فيهما).[1] (قال ابن عباس: «حُفِظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاحًا». وقال جعفر بن محمّد[2]: «كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء». وقال مقاتل: «كان أبوهما ذا أمانة»)[3]

فتقوى الله سبحانه وتعالى هي التي تقي العبد من كل شدة وضيق وكرب في الدنيا والآخرة، والآيات في هذا الباب كثيرة ومنها قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب} [الطلاق: ٢، ٣] أي من كل شيء ضاق على الناس، ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة.[4]

المطلب السادس

الصبر

يدعو القرآن الكريم إلى التحلي بخلق الصبر لما فيه من فائدة عظيمة في تربية النفس، وتقوية الشخصية، وزيادة قدرة الإنسان على تحمل المشاق، وتجديد طاقته لمواجهة مشكلات الحياة وأعبائها، ونكبات الدهر ومصائبه، ولتعبئة قدراته لمواصلة الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.[5]

---

١ – تفسير الكشاف: ٧٤١/٢.

٢ . الإمام جعفر بن مُحَمَّد :أبو عبد الله جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ﷺ أجمعين؛ أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية، وكان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه في مقالته وفضلُه أشهر من أن يذكر، وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل، ودفن بالبقيع في قبر فيه أبوه مُحَمَّد الباقر وجده علي زين العابدين وعم جده الحسن بن علي، ﷺ أجمعين ،مات جعفر الصادق في سنة ثمان وأربعين ومئة. ينظر وفيات الأعيان ٣٢٧/١ ،سير أعلام النبلاء ٢٦٩/٦.

٣ – زاد المسير: ١٠٤/٣.

٤ . ينظر الدر المنثور:٥٣٧/١٤، ٥٤٢

٥ – القرآن وعلم النفس: ٢٩٧.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣] يتكرر ذكر الصبر في القرآن كثيراً فقد نقل أبو طالب المكي في "قوت القلوب" عن بعض العلماء قوله: (وأي شيء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى في كتابه في نيف وتسعين موضعًا؟، ولا نعلم شيئًا ذكره الله تعالى هذا العدد إلا الصبر).[1]

ذلك أن الله — سبحانه – يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج.. ولا بد من الصبر في هذا كله.. لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومضاضة الإعراض.[2]

والمسلم الصابر لا يجزع لما يلحق به من سوء وبلية وأذى، ولا يضعف أو ينهار إذا ألمت به مصائب الدهر وكوارثه، لأن الله أوصاه بالصبر والمصابرة، وأخبره أن ما يصيبه في الحياة الدنيا إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليعلم الصابر من غيره، فقال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

فقوله عز وجل: {ولنبلونكم} أي: لنختبرنكم يا أمة مُحَمَّد. واللام جواب القسم، تقديره: والله لنبلونكم. فإن قلت ما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء في قوله:

---

١ – قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، مُحَمَّد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ)، ت: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، ط: ٢، ١٤٢٦ هـ- ٢٠٠٥ م، ٣٣١/١

٢ – في ظلال القرآن: ١٤١/١.

{ولنبلونكم}؟ قلت: فيه حِكَم: منها أن العبد إذا عَلم أنه مبتلًى بشيء، وطن نفسه على الصبر، فإذا نزل به ذلك البلاء لم يجزع.[1]

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]. لهذا كانت هذه الآية الكريمة دعوة خالصة للصبر، تغري المسلمين به، وتحرضهم عليه، وتفتح لهم طريق النجاح والفلاح بيده. فالصبر، والمصابرة، والمرابطة، وتقوى الله، هن اللائي يمَكّنّ للمؤمن من أن يضع قدميه على طريق النجاح والفلاح، وأن يقطع هذا الطريق إلى غايته، فيظفر برضا الله، ويفوز برضوانه.

والصبر هي القوة التي يلقى بها المرء المكاره والشدائد، فيحتملها في إصرار وعزم، وفي غير وهن أو ضعف، فذلك هو الصبر الذي يدعو إليه الإسلام، ويزكيه، كما تدعو إليه رسالات السماء، وحكمة الحكماء.[2]

والصبر والمصابرة مرتبطان بقوة الإرادة، فالشخص الصابر قوي الإرادة، لا تضعف عزيمته، ولا تثبط همته مهما لقي من مصاعب وعقبات، وبقوة الإرادة يتمكن الإنسان من إنجاز الأعمال العظيمة، وتحقيق الأهداف العالية[3]، وفي هذا يقول لقمان لابنه فيما يقول القرآن الكريم عنه {وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [لقمان: ١٧].

(وهذا من شأنه ألا يقطع الأمل في نفوس المسلمين بأن ينشدوا القوة دائمًا، وأن يلتمسوها في الإيمان والصبر، وأنه كلما قوى إيمانهم وصبرهم قويت شوكتهم، واشتدت على العدوّ وطأتهم، وكان حساب الواحد منهم راجحًا بعشرة من العدو المقاتل لهم فإذا كانت جماعة من جماعات المسلمين في صقع من أصقاع الأرض، تقاتل في سبيل الله، وكانت في قلة ظاهرة أمام عدوّ كثيف العدد، فإنّ لها أن تنشد المدد من الإيمان بالله، وأن تنظر إلى نفسها على ضوء قول الله تعالى: {إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا

١ - تفسير الخازن: ١/١٢٧.

٢ - التفسير القرآني للقرآن: ٢/٦٨٠.

٣ - القرآن وعلم النفس: ٢٩٩.

مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الأنفال: ٦٥] فإنْ هُم فعلوا ذلك، وأخلصوا النية والعمل لله، حققوا هذا الوصف الذي وصف الله سبحانه وتعالى به المؤمنين، الذين خلت نفوسهم من الضعف والوهن).[١]

يقول صاحب الظلال: (إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة، ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه؛ إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء، ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء؛ إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون عنده جزاءهم، أما الكفار فهم ضائعون مضيعون، لا يتجهون لله، ولا يرتقبون عنده شيئًا في الحياة ولا بعد الحياة..

فإذا أصر الكفار على المعركة، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارًا، وإذا احتمل الكفار آلامها، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام. وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وإن هذا لهو فضل العقيدة في الله في كل كفاح.[٢]

وفي سورة آل عمران يبين الله سبحانه وتعالى أن الصبر يحقق للمؤمنين أربعة فوائد:

الأول: إبطال كيد أعدائهم، قال الله تعالى: {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شيئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران: ١٢٠]. فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى فكان ذلك تسلية للمؤمنين وتقوية لنفوسهم.[٣]

الثاني: إمداد الله لهم بالملائكة واستحقاق الظفر، قال تعالى: {بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران: ١٢٥] يقول السعدي رحمه الله: (وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشَرط الله له الشرطين الأولين: الصبر والتقوى).[٤]

---

١ – التفسير القرآني للقرآن ٦٧٤/٥.

٢ – في ظلال القرآن: ٧٤٩/٢- ٧٥٠.

٣ – تفسير القرطبي: ١٨٣/٤.

٤ – تفسير السعدي: ١٤٦/١.

الثالث: التغلب على آثار الهزيمة الداخلية، قال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كثيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: ١٨٦].

الرابع: الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠]. يقول البقاعي حمه الله: أي ليكون حالكم حال من يرجى فلاحه وظفره بما يريد من النصر على الأعداء والفوز بعيش الشهداء).[١]

والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، إنها تربية للنفوس وإعدادها، حتى لا تذهب حسرة مع كل فاجعة، ولا تنهار جزعًا أمام الشدة. إنه التجمل والتماسك والثبات حتى تنقشع الغاشية وترحل النازلة ويجعل الله بعد عسر يسرًا. إنه الرجاء في الله والثقة بالله والاعتماد على الله. ولا بد لأمة تناط بها القوامة على البشرية، والعدل في الأرض والصلاح، أن تهيأ لمشاق الطريق ووعثائه بالصبر في البأساء والضراء وحين الشدة. الصبر في البؤس والفقر. والصبر في المرض والضعف. والصبر في القلة والنقص. والصبر في الجهاد والحصار، والصبر على كل حال. كي تنهض بواجبها الضخم، وتؤدي دورها المرسوم، في ثبات وفي ثقة وفي طمأنينة وفي اعتدال.[٢]

المطلب السابع

الثبات

يصف الله حال أهل الإيمان ساعة مواجهة الشدائد والمحن أنهم يطلبون من الله الثبات؛ لأن الثبات من أهم عوامل الثبات والقوة والتمكين، ويحدثنا القرآن عن أصحاب طالوت الذين توجهوا إلى الله بالدعاء أن يثبت أقدامهم عند مواجهة جالوت وجنوده، قال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا

١ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي ٢٠٣/٢.

٢ – في ظلال القرآن: ١١٦/١.

لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٥٠].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: والعبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة – انتفاضة العقيدة – على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف، ومن تخلي القوم عنها فوجًا بعد فوج في مراحل الطريق، على الرغم من هذا كله فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدًا، فقد كان فيها النصر والعز والتمكين، بعد الهزيمة المنكرة، والمهانة الفاضحة، والتشريد الطويل والذل تحت أقدام المتسلطين.[١]

لإن الفئة القليلة قد تغلب – بالصبر والثبات وطاعة القُوّاد – الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد، مع طاعة القُوّاد، لأن نصر الله مع الصابرين، أي جرت سنته بأن يكون النصر أثرًا للثبات والصبر، وأن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم، وهذا مشاهد في كل زمان، وهو كثير لا مطرد كما جاء في الآية الكريمة.[٢]

فقد بين – سبحانه – ما كان عليه أتباع الأنبياء السابقين من إيمان عميق، وعزم وثيق، حتى يتأسى بهم كل ذي عقل سليم في ثباتهم على مبدأهم وبالتالي ثباتهم أمام عدوهم فقال – تعالى –: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦].

فكثير من الأنبياء قاتل معهم مؤمنون صادقو الإيمان من أجل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه وأصيبوا وهم يقاتلون بما أصيبوا من جراح وآلام، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله أي فما عجزوا أو جبنوا بسبب ما أصابهم من جراح، أو ما أصاب أنبياءهم وإخوانهم من قتل واستشهاد. لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه، ونصرة رسله.

---

١ – في ظلال القرآن: ٢٦٢/١.

٢ – تفسير المنار: ٣٩/٢.

وقوله: {وما ضعفوا} أي: عن قتال أعدائهم وعن الدفاع عن الذي آمنوا به وقوله: {وما استكانوا} أي ما خضعوا وذلوا لأعدائهم.

فأنت ترى أن الله – تعالى – قد نفي عن هؤلاء المؤمنين الصادقين ثلاثة أوصاف لا تتفق مع الإيمان. نفي عنهم – أولا – الوهن وهو اضطراب نفسي، وهلع قلبي، يستولى على الإنسان فيفقده ثباته وعزيمته. ونفي عنهم – ثانيا – الضعف الذي هو ضد القوة، وهو ينتج عن الوهن. ونفي عنهم – ثالثا – الاستكانة وهي الرضا بالذل وبالخضوع للأعداء ليفعلوا بهم ما يريدون.[1]

ولقد أثنى الله تعالى على أهل الثبات فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: ٤].

والمعنى: أن الله– تعالى– يحب الذين يقاتلون في سبيل إعلاء دينه قتالًا شديدًا، حتى لكأنهم في ثباتهم، واجتماع كلمتهم، وصدق يقينهم.. بنيان قد التصق بعضه ببعض، فلا يستطيع أحد أن ينفذ من بين صفوفه.

فالمقصود بالآية الكريمة: الثناء على المجاهدين الصادقين، الذين يثبتون أمام الأعداء وهم يقاتلونهم، ثباتا لا اضطراب معه ولا تزلزل.[2]

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله: (إن من سنة الله: – تعالى– أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار، وهذا إنما يكون بالصبر، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه، لأنه –سبحانه– جعل هذا الصبر سببا للظفر، إذ هو يولد الثبات والاستمرار الذي هو شرط النجاح، ومن لم يصبر فليس الله معه، لأنه تنكب سنته، ولن يثبت فيبلغ غايته).[3]

---

١ – التفسير الوسيط: محمد سيد طنطاوي ٢٨٧/٢.

٢ – المصدر نفسه: ٣٥٥/٤.

٣ – تفسير المنار: ٣٠/٢.

المطلب الثامن

رفع الروح المعنوية

إن المسلم بأمسّ الحاجة إلى من يرفع معنوياته في ساحات الحياة، وكذلك في ساحات الجهاد والبأس والشدة، لأن المسلم مهما امتلك من أدوات القتال فلن تجدي نفعًا إذا كانت قوته النفسية والمعنوية منهارة، ولن يستطيع أن يقاوم عدوه، وسيشعر باليأس والقنوط، ولذلك اعتنى القرآن بأن تبقى الروح المعنوية عالية لدى المسلم، وأن لا يتراجع حتى يحقق أهدافه المرجوة.

قال الله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠]. يقول الله تعالى: {ولا تهنوا} أي: لا تضعفوا ولا تجبنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح. {ولا تحزنوا} فإنكم {أنتم الأعلون} أي تكون لكم العاقبة بالنصرة والظفر.[١]

ثم بين سبحانه وتعالى في الآية التي بعدها بأن الهزائم والآلام التي تلحق بالمؤمنين هي سنة إلهية من سنن الله تعالى فلا ينبغي أن تحجبهم وتصدهم عن متابعة الجهاد ونصرة الحق؛ فإنه – تعالى – أرشدهم في الآيات السابقة إلى أنه لا ينبغي لهم أن يضعفوا أو يحزنوا، وبين لهم حكمة ما أصابهم وأنه منطبق على سنته في مداولة الأيام بين الناس، وفي تمحيص أهل الحق بالشدائد، وفي ذلك من الهداية والإرشاد والتسلية ما يربي المؤمن على الصفات التي ينال بها الغلب والسيادة بالحق، ثم بين لهم هذا أن سعادة الآخرة لا تُنال أيضًا إلا بالجهاد والصبر، فهي كسعادة الدنيا بإقامة الحق والسيادة في الأرض، سنة الله فيهما واحدة.[٢]

ثم ينبههم بعد بضع آيات أن هذا هو شأن المؤمنين من الأمم السابقة إذ لم تصرفهم الهزيمة والجراح والخسائر عن متابعة الطريق بيقين وثبات. قال الله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ

---

١ – ينظر تفسير البغوي: ٥١٣/١، واللباب: ٥٥٢/٥.

٢ – تفسير المنار: ١٢٧/٤

مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران: ١٤٦]، يقول الإمام الرازي رحمه الله: أي: وكم من نبي قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوهم قرح فما وهنوا، لأن الذي أصابهم إنما هو في سبيل الله وطاعته وإقامة دينه ونصرة رسوله، فكذلك كان ينبغي أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد.[١]

وهذا ما كان يحرص عليه النبي –عليه الصلاة والسلام– من خلال رفع معنويات الجيش المسلم عند بداية المعركة، ففي غزوة بدر أخذ النبي –عليه الصلاة والسلام– يحرض المؤمنين على قتال عدوهم من خلال رفع معنوياتهم قائلًا لهم: "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض". قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟! قال: "نعم". قال: بخ بخ! فقال رسول الله ﷺ: "ما يحملك على قولك بخ بخ؟" قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال: "فإنك من أهلها". فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.[٢]

وهذا منه عليه الصلاة والسلام تنفيذًا لأمره تعالى بتحريض الصف المسلم على القتال لإعلاء كلمة الله تعالى قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الأنفال: ٦٥]. أي بالغْ في حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة التي أعظمُها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم وهو وعد كريم منه تعالى بتغليب كل جماعة من المؤمنين على عشرة أمثالهم.[٣]

فالروح المعنوية لها أثرها الكبير في تحديد النتيجة. والعِلم العسكري الحديث يؤكد ذلك من خلال التجارب حيث يرى العسكريون أن قوة الروح المعنوية هي أساس الانتصار في

---

١ – مفاتيح الغيب: ١٢٦٧/١.

٢ – صحيح الإمام مسلم: باب ثبوت الجنة للشهيد، ١٥٠٩/٣.

٣ – تفسير أبي السعود: ٣٤/٤.

المعارك، وأنه لا قيمة لأي جيش مهما كان ضخمًا في عدده، ودقيقًا في تنظيمه، وممتازًا في تسليحه، ما لم تكن معنوياته عالية.[1]

المطلب التاسع

مجاهدة النفس

قال الله تعالى: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨]. وهذا الضعف البشري من خصائص النفس البشرية التي خلقها الله به. والإنسان ضعيف أمام خالقه عز وجل، وأمام من هو أقوى منه من البشر، وأمام دوافعه وشهواته، وأمام المسؤوليات والواجبات المكلف القيام بها من قبل الله تعالى.

ومع هذا الضعف البشري، فإن الإنسان يتسلط ويتجبر إذا تيسرت له أسباب السلطة والقوة، فإذا أصابته ضراء لجأ إلى الله تعالى، حتى إذا كشف عنه ضره رجع إلى عصيانه وطغيانه، قال الله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُون} [الروم: ٣٣]. وقوله: {وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ} [يونس: ١٢]

لذلك جاء المنهج التربوي الإسلامي بواقعيته، لتقوية الإرادة ثم تربيتها للتغلب على ضعف الإنسان أمام رغباته وشهواته قبل السقوط في الرذائل والمعاصي، ثم بعد الوقوع فيها إن وقع فيها.[2]

إن النفس بحاجة إلى المجاهدة، ومجاهدتها ليست أمرًا سهلًا إذا تربت على نزواتها وشهواتها، فرب شهوة ساعة أورثت صاحبها شقاء طويلًا وعذابَ نارٍ في الآخرة، وقد حذر

---

١ – الرسول القائد: محمود شيت خطاب، دار العلم، ط٤، ص ٤٦٤

٢ – آراء ابن الجوزي التربوية: المؤلف: د. ليلى عبد الرشيد عطار الناشر: منشورات أمانة للنشر، ميريلاند – الولايات المتحدة الأمريكية ط١، ١٤١٩ هـ– ١٩٩٨ م، ص١/٣٨٥.

النبي عليه الصلاة والسلام من اتباع هوى النفس، فقال عليه الصلاة والسلام: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله".[1]

فمن أرخى لنفسه هواها وتتبع مشتهاها، صار عبدًا مملوكًا لها، تأمره ولا يأمرها، قال تعالى: {أرأيت من اتخذ إلهه هواه} [الفرقان: ٤٣] فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: (كلما هوى شيئًا ركبه وكلما اشتهى شيئًا أتاه لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى).[2]

يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده:

فأما **النوع الأول**: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه. قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر.

وأما **النوع الثاني**: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي. وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور وهي: الإخلاص في العمل والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله. فيحاسب نفسه: هل وفّى هذه المقامات حقها وهل أتى بها في هذه الطاعة؟.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تَرْكه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا؟ أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به؟.[3]

---

١ – أخرجه الترمذي: ٦٣٨/٤، وابن ماجه: ١٤٢٣/٢، وأحمد: ٣٥٠/٢٨، قال الترمذي هذا حديث حسن .

٢ – روح المعاني: ٢٤/١٩.

٣ – إغاثة اللهفان: ٨٢/١.

فهذه المحاسبة هي من الأوامر الإلهية المهمة حتى يكون الإنسان على بينةٍ من أمره {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: ١٨]. وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه. ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته، ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيد حسابه بمفرداته وتفصيلاته. لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد. فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلًا ونصيبه من البر ضئيلًا؟ إنها لمسة لا ينام بعدها القلب أبدا، ولا يكف عن النظر والتقليب.

ولا تنتهي الآية التي تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع: {واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون}.. فتزيد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء والله خبير بما يعملون.[1]

وقد نبه النبي عليه الصلاة والسلام في قوله ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير".[2] يذكر الإمام النووي في شرحه للحديث: (والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها).[3]

وهذه المجاهدة هي وسيلة لغاية سامية.

ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني، في الانتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة.

---

١ - في ظلال القرآن: ٣٥٣١/٦.

٢ - صحيح الإمام مسلم: باب في الأمر بالقوة وترك العجز، ٢٠٥٢/٤، رقم (٢٦٦٤).

٣ - المنهاج شرح صحيح مسلم: ٢١٥/١٦.

وتقرير الحق الذي أراده الله في حياة الناس. ليكون كل نصر نصرًا لله ولمنهج الله. وليكون كل جهد في سبيل الله ومنهج الله. وإلا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية. ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية. إنما الخير أن ترتفع راية الحق لذات الحق. والحق واحد لا يتعدد. إنه منهج الله وحده. ولا حق في هذا الكون غيره. وانتصاره لا يتم حتى يتم أولًا في ميدان النفس البشرية. وفي نظام الحياة الواقعية. وحين تخلص النفس من حظ ذاتها في ذاتها، ومن مطامعها وشهواتها، ومن أدرانها وأحقادها، ومن قيودها وأصفادها. وحين تفر إلى الله متحررة من هذه الأثقال والأوهاق. وحين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها، لتكل الأمر كله إلى الله، بعد الوفاء بواجبها من الجهد والحركة. وحين تحكم منهج الله في الأمر كله، وتعد هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصارها. حين يتم هذا كله يحتسب الانتصار في المعركة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية انتصارًا في ميزان الله. وإلا فهو انتصار الجاهلية على الجاهلية، الذي لا وزن له عند الله ولا قيمة.[1]

فكل نفس بشرية فيها قابلية الخير وقابلية الشر وصاحبها هو الذي يوجهها ويقودها إما إلى خيرها وشرها وذلك عن طريق تحكمه بنفسه. {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٧ – ١٠] فالله – تعالى – جعل كل إنسان متمكنًا بقواه الفطرية من أعمال الفجور والشرور، ومن أعمال التقوى والخيرات، وهو الذي يزكي نفسه بهذه، أو يدسيها بتلك. فمن صحت عقيدته وحسن عمله صلحت نفسه وزكت، وكانت أهلا للنعيم في ذلك العالم العلوي، ومن كانت عقيدته خرافية باطلة وأعماله سيئة، فسدت أخلاقه وخبثت نفسه، وكان هو الذي تكلف تدسيتها ودهورتها إلى هاوية الجحيم.[2]

---

١ – في ظلال القرآن: ٤٥٩/١.

٢ – تفسير المنار: ٢٥/٦

المبحث الثاني

العلاجات الشرعية

ويندرج تحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مراعاة الشريعة لواقع حال ضعف الإنسان.

المطلب الثاني: التدرج في الشريعة والتكليف.

المطلب الثالث: التخفيف ورفع الحرج.

المطلب الأول

مراعاة الشريعة الإسلامية لواقع حال ضعف الإنسان

وإذ خلق الله الإنسان ضعيفًا، فقد قضت حكمته عز وجل أن يراعي هذا الواقع فيه في أحكامه وشرائعه لعباده، وفي أصول وقواعد محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وفي وسائل تربيتهم وتعليمهم. فنزلت الأحكام الربانية والتكاليف الشرعية ملائمة لهذا الواقع.

ومن أجل ذلك رفع الله المسؤولية عن الإنسان في الأحوال التي يضعف عن مقاومتها، أو لا يملك دفعها عن نفسه، كالعدل في الحب الذي لا يملك الإنسان السيطرة عليه، قوله تعالى: { وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ } [النساء: ١٢٩] (أخبر تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك في ميل الطبع بالمحبة والجماع والحظ من القلب، فوصف الله تعالى حالة البشر وأنهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض؛ ولهذا كان عليه السلام يقول: "اللهم إن هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك").[١]

---

١ – تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن): ٤٠٧/٥ والحديث أخرجه الترمذي: ٤٦٦/٣،وابن ماجه :٦٣٣/١،وأحمد ٤٦/٤٢. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط : هذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة– وعبد الله ابن يزيد– فمن رجال مسلم، وأخرج البخاري لحماد تعليقاً، وقد أخطأ حماد بن سلمة في وصله، والصواب أنه مرسل. فقد

وكالخطأ والنسيان الذي لا يستطيع تفاديهما، وذلك أن (السهو والنسيان قهرية الحق تعالى، قهر بها عباده ليتميز ضعف العبودية من قوة الربوبية، وهو ليس بنقص في حق البشر).[١]

وكذلك الإكراه الذي لا يستطيع تحمل نتائجه[٢]، وذلك كجواز النطق بكلمة الكفر في حال الإكراه، قال الإمام العز بن عبد السلام في كتابه قواعد الأحكام في مصالح الأنام: (التلفظ بكلمة الكفر مفسدة محرمة لكنه جائز بالحكاية والإكراه، إذا كان قلب المكره مطمئنًا بالإيمان، لأن حفظ المهج والأرواح أكمل مصلحة من مفسدة التلفظ بكلمة لا يعتقدها الجنان، ولو صبر عليها لكان أفضل لما فيه من اعتزاز الدين وإجلال رب العالمين).[٣] وقد أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يحكم عليه بالكفر[٤]، والدليل قوله تعالى: في سورة النحل: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [النحل: ١٠٦].

فإذا علم الله صدق عبده بقلبه، وإخلاصه في عقده، ولحقته ضرورة في حاله خفّف عنه حكمه، ودفع عنه عناءه فلا يلفظ بكلمة الكفر إلا مكرهًا وهو موحّد، وهو مستحق العذر فيما بينه وبين الله تعالى وكذلك الذين عقدوا بقلوبهم، وتجردوا لسلوك طريق الله ثم عرضت لهم أسباب، واتفقت لهم أعذار، كأن يكون لهم ببعض الأسباب اشتغال أو إلى شيء من العلوم

قال الترمذي عقب الحديث : حديث عائشة هكذا رواه غير واحد عن حماد ابن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورواه حماد بن زيد وغير واحد عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلاً، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقسم، وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة. وقال الترمذي في "العلل" ٤٤٨/١: سالت مُحَمَّداً (أي البخاري) عن هذا الحديث، فقال: رواه حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلاً. وقال أبو زرعة نحو كلام الترمذي، فيما نقله عنه ابن أبي حاتم في "العلل" ٤٢٥/١.

١ – البحر المديد: ابن عجيبة، ٧/ ٨٠.

٢ – الأخلاق الإسلامية: ٣٧٦.

٣ – قواعد الأحكام في مصالح الأنام: الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، ت: محمود بن التلاميد الشنقيطي، دار المعارف بيروت – لبنان، ٨٤/١.

٤ – فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ هـ، ٣١٤/١٢.

رجوع.. لم يكن ذلك قادحًا في صحة إرادتهم، ولا يعدّ ذلك فسخًا لعهودهم، ولا ينفي بذلك عنهم سمة القصد إلى الله تعالى.[1]

وكذلك الأمر بكتابة الدين لما يعتري الإنسان من ضعف بحسب طبيعته البشرية فالإنسان وإن كان واثقًا أنه سيؤدي الأمانة إلا أنه عرضة للأغيار، لذلك قال الحق سبحانه: {وَلاَ تسأموا أَن تَكْتُبُوهُ صغيرًا أَو كبيرًا إلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ الله} فالكتابة فرصة ليحمي الإنسان نفسه من الضعف وقت الأداء، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوثق الأمر توثيقًا لا يجعلك أيها العبد خاضعًا لذمتك الإيمانية فقط، ولكنّك تكون خاضعًا للتوثيق الخارج عن إيمانيتك أيضًا، وذلك يكون بكتاب الدين صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله.[2]

ومن أجل مراعاة حال الإنسان وضعفه راعت الشريعة جانب تطبيق العقوبات أيضًا ولذلك "كانت عقوبة الزاني غير المحصن أخف من عقوبة الزاني المحصن؛ مراعاة لكون الأول أضعف مقاومة من الثاني، وكانت عقوبة الأمة إذا زنت بمقدار نصف عقوبة الحرة إذا زنت؛ لأن الإماء أضعف مقاومة من الحرائر، لتعرضهن للخدمة ومخالطة الرجال والبروز أمامهم دون حجاب.[3]

المطلب الثاني

التدرج في الشريعة والتكليف

تحدث القرآن الكريم عن سنة الله في التدرج في الخلق والتشريع في صور كثيرة، فكما أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام ولم يخلقها دفعة واحدة، فكذلك خلق الإنسان على مراحل متعددة. وكذلك التشريع الإسلامي فمن خصائصه ومزاياه أنه لم يفرض على البشر دفعة واحدة، وإنما راعى جانب الضعف فيهم، فتدرج في أحكامه التي شرعها لهم بعد الدخول

---

١ – لطائف الإشارات: ٣٢٢/٢

٢ – تفسير الشعراوي: ١٢٢٧/٢

٣ – الأخلاق الإسلامية: ٣٧٦

في ساحة الإيمان من الأخف إلى الأثقل وذلك في كثير من تشريعاته ليتفق ذلك مع غاية التشريع في الرحمة ورفع الحرج والمشقة عن البشرية.

فلو نظرنا إلى مشكلة الخمر وكيف عالجها القرآن الكريم مراعيًا الحالة النفسية للمجتمع يقول مالك بن نبي رحمه الله: (والحق أنه للمرة الأولى في التاريخ الإنساني وجهت هذه المشكلة في القرآن وحلت بطريقة معينة، وذلك بسبب التخطيط النفسي والتشريعي لهذا القرار الذي حدث للمرة الأولى في تشريع أحد المجتمعات الإنسانية وكان له أبلغ الأثر في الاستجابة والتطبيق، وذلك من خلال التدرج الذي ناسب ضعفهم أمام الخمرة التي خامرت رؤوسهم، وافتتنوا بها دهرًا طويلًا فزينوا بها مجالسهم، وأنشدوا في وصفها الأشعار فجاءت الآيات الآية تلو الأخرى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} [البقرة: ٢١٩]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } [النساء: ٤٣]، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٩٠].

هذا العرض التخطيطي هو المنهج دون أدنى شك والذي ينتهي بأمر شرعي صارم. والواقع أن النص الأول يثير آثام الخمر في الضمير المسلم فحسب، وقد كانت هذه هي الطريقة المتحفظة لإثارة المشكلة وتسجيلها بصورة ما في عداد الهموم الاجتماعية لمجتمع ناشئ، وبهذه الطريقة أمكن للمشكلة أن تشق طريقها في ضمير الصفوة المختارة، في هذا المجتمع الذي يحكمه الدافع الخلقي. فالموقف الأول إذن سيكون مرحلة حصانة ضرورية، هي المرحلة النفسية للمشكلة. وعلى أساس هذا البناء الفاضل للضمير المسلم يقوم النص التحديدي في الآية الثانية: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى} فهنا تحديد، فهو يهدف إلى أن يطهر مدمني الخمر تدريجيًا، وإلى أن يرتب حظرًا خلقيًا، قبل أن يسن التحريم النهائي، وتوضع العقوبة المجازية لارتكاب الجرم المحرم.[1]

---

١ – الظاهرة القرآنية بتصرف: مالك بن نبي، دار الفكر: سورية ص ٢٩٨.

فما أن سمع المسلمون أمر ربهم في الآية المحرِّمة والمجَرِّمة حتى انتهوا من فورهم، وكان لسان حالهم قبل مقالهم: "انتهينا ربنا"، كانت الكؤوس على الشفاه فردوها ومجّوها، وسارعوا إلى إراقة ما تبقى لديهم من خمر، وإذا هم يقطعون صلتهم بها دون ضجر أو تردد، كأنْ لم يكن لهم بها من قبلُ عهد، ولا كان لها في قلوبهم ذرة ود. فعن عائشة ﵂ قالت: "إنما أنزلت أول ما نزل سورة المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء: «لا تشربوا الخمر»، لقالوا: «لا ندع الخمر أبدا»، ولو نزل: «لا تزنوا»، لقالوا: «لا ندع الزنا أبدا»).[1]

وما ينطبق على التدريج في التشريع يسري على التدريج في التطبيق. قال ابن تيمية رحمه الله: (العالم قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلى وقت التمكن، كما أخر الله سبحانه إنزال وبيان أحكام إلى وقت تمكن رسول الله ﷺ من بيانها، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئًا فشيئًا بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئًا فشيئًا، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها. وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم؛ فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبًا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبًا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان كما عفا الرسول عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل فإنه نافع).[2]

---

١ - صحيح البخاري: باب تأليف القرآن ٦/١٨٥.

٢ - مجموع الفتاوى: ٢٠ /٦٠.

ومن هنا ندرك حكمة نزول القرآن منجما على رسول الله. يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: (لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، وينشئ مجتمعًا، ويقيم نظامًا. والتربية تحتاج إلى زمن وإلى تأثر وانفعال بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع. والنفس البشرية لا تتحول تحولًا كاملًا شاملًا بين يوم وليلة بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد. إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج في مراقيه رويدًا رويدًا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئًا فشيئًا، فلا تجفل منه كما تجفل لو قدم لها ضخمًا ثقيلًا عسيرًا وهي تنمو في كل يوم بالوجبة المغذية فتصبح في اليوم التالي أكثر استعدادًا للانتفاع بالوجبة الثالثة، وأشد قابلية لها والتذاذا بها).[1]

لقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها. وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها مِن خالقها. فجاء لذلك منجمًا وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة.

المطلب الثالث

التخفيف ورفع الحرج

الناظر إلى الأحكام الشرعية يجد أنها جاءت في حدود الوسع وعدم المشقة، وليس فيها تضييق ولا حرج وذلك لأن مبنى هذا الدين هو رفع الحرج والمشقة وفتح باب التيسير على البشرية والنصوص في ذلك مستفيضة من القرآن والسنة.

---

١ – في ظلال القرآن: ٢٥٦٢/٥.

قال الله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨]. وهذه الآية من الآيات الثمان التي نزلت في سورة النساء والتي هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس كما جاء عن ابن عباس.[١]

بين الله- عزّ وجل- أن إرادته بنا ليست لإرهاقنا وعنتنا. بل أراد بنا فيما بيّن وشرع وهدى التخفيف علينا في شرائعه، وأوامره ونواهيه. وذلك لأن الله الذي خلق الإنسان، وعلِم ضعفه وتهالكه أمام الشهوات، أنزل له شريعة تناسب هذا الضعف في نفسه وعزمه وهمته، فكانت شريعة يسر، وشريعة تخفيف.[٢] وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.[٣]

وقول الحق: {يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفًا} نلحظ فيه أن التخفيف مناسب للضعف. والضعف جاء من ناحية أن الإنسان أصبح مختارًا وخاصة في أمور التكليف، فالذي جعل فيه الضعف جعله مختارًا يفعل كذا أو يفعل كذا ولكل أمر مغرياته، ومغريات الشهوات حاضرة. ومغريات الطاعة مستقبله فهو يغلب دائمًا جانب الحاضر على جانب المستقبل.[٤]

ولذلك ذهب جمهور المفسرين إلا مجاهد ومقاتل -رحمهما الله- في هذه الآية، قالوا: «هذا عام في كل أحكام الشرع، وفي جميع ما يسَّره لنا وسهله علينا؛ إحسانًا منه إلينا، ولم يثقل

---

١ - انظر تفسير الطبري: ٢٥٧/٨، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه: أبو مُحَمَّد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)

ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي – جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة –كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة الشارقة

ط: ١، ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م، ١٣٠٦/٢

٢ - الأساس في التفسير١٠٣٧/٢

٣ - تفسير السعدي: ١٧٥/١.

٤ - الشعراوي ٢١٣٩/٤.

التكليف علينا كما ثقل على بني إسرائيل». ونظيره قوله تعالى {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ والأغلال التي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} [الأعراف: ١٥٧]. وقوله: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

أي: يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر عليكم، فلذلك أباح الفطر في السفر والمرض[1]، وقوله: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكمْ في الدّين منْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]، وقوله عليه الصلاة والسلام: "أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة".[2]

وقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦] هو رحمة من رحمة الله بعباده، وهم في متلاطم هذه الفتن التي تطلع عليهم من أنفسهم، ومن أهليهم وأقرب الناس إليهم، إنها حرب مشبوبة الأوار دائمًا، لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عن نفسه، أو أن يدفع هو نفسه عنها، إلا إذا اعتصم بمعتصم يعصمه منها. إذ كيف له بالتخلص من ذاته، ومن نزعات نفسه، ودفعات أهوائه؟ ونفرض أنه استطاع ذلك بعد مشقة وعناء، فكيف له بأن ينخلع عن زوجه وولده؟ إن ذلك لا يكون إلا بالانخلاع عن الحياة الدنيا جملة! والإسلام دين واقع، ودين رحمة وعدل وإحسان. لا يرى للناس إلا أنهم بشر تتحكم فيه نوازع، وعواطف، وتعرض لهم عوارض الضعف.

ويلحقهم ما يلحق الكائن الحيّ من جهد وضعف.. ولهذا قامت هذه الشريعة على اليسر، وعلى رفع الحرج، كما يقول سبحانه: {وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدّين منْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨]. ويقول الرسول الكريم: "إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرواح وشيء من الدلجة"[3]، ويقول الرسول الكريم أيضًا: "إذا

١ – البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١٢٥/١.

٢ – مفاتيح الغيب للرازي ٥٥/١٠، والحديث أخرجه البخاري في باب: الصلاة من الإيمان: ١٦/١.

٣ – صحيح ابن حبان: ٦٣/٢، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري

أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم".[1] فقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} هو الميزان الذي يقيم عليه المؤمن أمر دينه كله. وأن يتقى هذه الفتن التي تهب عليه من كل جهة- أن يتقيها.[2]

ومن مواطن التخفيف عن المسلمين التي ذكرت في القرآن الكريم مراعية ضعف النفس الإنسانية وذلك عند مواجهة العدو وذلك لما يلحقهم من الضعف البشري، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضعفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٦٥-٦٦]، خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم.[3]

ففي هذا النص يبين الله تبارك وتعالى أنه خفف عن المسلمين في النسبة العددية التي يجب أن يواجهوا بها عدوهم، إذ كان على المؤمنين في أول الأمر أن يصمدوا لعشرة أضعافهم، فخفف الله ذلك عنهم، فجعل وجوب الصمود مرتبطًا بكون العدو ضعف عددهم فما دون ذلك، وهذا التخفيف قد راعى الله فيه حال ضعف جمهور المسلمين، إذ ليسوا جميعًا على مستوى إيمانِ وقوة كبار أصحاب محمَّد ﷺ، إلا أنه سبحانه وتعالى لم يسمح لهم بأن يضعفوا عن مواجهة ضعفهم.[4]

وقوله: {وَخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨] تذييل وتوجيه للتخفيف، وإظهار لمزية هذا الدين وأنّه أليق الأديان بالناس في كلّ زمان ومَكان، ولذلك فما مضى من الأديان كان مراعًى فيه حال دون حال، ومن هذا المعنى قوله تعالى: {الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلمَ أَنَّ فيكُمْ

١ - هذا الحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه باب من انتظر حتى تدفن بلفظ عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" دعوني ما تركتكم إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم" ٩٤/٩.وكذلك البيهقي في السنن الكبرى بنفس اللفظ: ، ٢٥٣/٤.

٢- التفسير القرآني للقرآن: ٩٩٢/١٤.

٣ - تفسير ابن كثير: ٨٧/٤.

٤ - الأخلاق الإسلامية: حبنكة ٣٧١.

ضَعْفًا} [الأنفال: ٦٦]. وقد فسّر بعضهم الضعف هنا بأنّه الضعف من جهة النساء. قال طاووس -رحمه الله-: «ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء»، وليس مراده حصر معنى الآية فيه، ولكنّه ممّا رُوعي في الآية لا محالة، لأنّ من الأحكام المتقدّمة ما هو ترخيص في النكاح.[1]

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله: (المقصد الظاهر بهذه الآية أنها في تخفيف الله تعالى ترك نكاح الإماء بإباحة ذلك، وأن إخباره عن ضعف الإنسان إنما هو في باب النساء. أي: لمّا علمنا ضعفكم عن الصبر عن النساء خففنا عنكم بإباحة الإماء. وكذلك قال مجاهد وابن زيد وطاووس رحمهم الله. ثم بعد هذا المقصد تخرج الآية في مخرج التفضل لأنها تتناول كل ما خفف الله تعالى عن عباده وجعله الدين يسرا ويقع الإخبار عن ضعف الإنسان عامًا حسبما هو في نفسه ضعيف يستميله هواه في الأغلب).[2]

---

١ – التحرير والتنوير: ٢١/٥.

٢ – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٤٩/٢.

المبحث الثالث

العلاجات الاجتماعية

ويندرج تحت هذا المبحث خمسة مطالب:

المطلب الأول: مراعاة القرآن لحال الضعفاء وذوي الحاجات ورعايتهم.

المطلب الثاني: الصحبة الصالحة.

المطلب الثالث: التكافل.

المطلب الرابع: إعانة الضعفاء.

المطلب الخامس: رعاية الضرورات والأعذار والظروف الاستثنائية.

المطلب الأول

مراعاة القرآن لحال الضعفاء وذوي الحاجات ورعايتهم

حرص القرآن الكريم من خلال تشريعاته وتوجيهاته على رعاية الضعفاء والمحتاجين والدفاع عنهم ونصرتهم، سواء كانت هذه الرعاية والنصرة معنوية أو حسية.

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا مُحَمَّد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعًا لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك. فنزلت هذه الآية: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه} {وكذلك فتنا بعضهم ببعض} [الأنعام: ٥٢-٥٣] إلى آخر الآية.[١]

وذلك أن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل، ليقوموا به القيم كلها، هو: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم}، هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو ينقص. وهي قيمة سماوية بحتة، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقًا ..ولكن الناس يعيشون في الأرض، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى، كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم. وهم يتعاملون بقيم أخرى.. فيها النسب، وفيها القوة، وفيها المال. وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية.. اقتصادية وغير اقتصادية.. تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض، فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض .

ثم يجيء الإسلام ليقول: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} فيضرب صفحًا عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس، العنيفة الضغط على مشاعرهم الشديدة الجاذبية إلى الأرض. ويبدل من هذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء، المعترف بها وحدها في ميزان السماء. ثم يجيء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسبة واقعية محددة. وليقرر معها المبدأ الأساسي: وهو أن الميزان ميزان السماء، والقيمة قيمة السماء. وأن على الأمة المسلمة أن

---

١ - تفسير ابن كثير: ٢٦٠/٣، والطبري: ٣٧٤/١١.

تدع كل ما تعارف عليه الناس، وكل ما ينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات، لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء وحده.

ويجيء الرجل الأعمى الفقير ابن أم مكتوم إلى رسول الله – ﷺ – وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش. عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبي جهل عمرو بن هشام، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، ومعهم العباس بن عبد المطلب. الرسول – ﷺ – يدعوهم إلى الإسلام، ويرجو بإسلامهم خيرًا للإسلام في عسرته وشدته التي كان فيها بمكة، وهؤلاء النفر يقفون في طريقه بمالهم وجاههم وقوتهم، ويصدون الناس عنه، ويكيدون له كيدًا شديدًا حتى ليجمدوه في مكة تجميدًا ظاهرًا. بينما يقف الآخرون خارج مكة، لا يقبلون على الدعوة التي يقف لها أقرب الناس إلى صاحبها، وأشدهم عصبية له، في بيئة جاهلية قبلية، تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار.

يجيء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله – ﷺ – وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر. لا لنفسه ولا لمصلحته، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام. فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة، ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار.

يجيء هذا الرجل، فيقول لرسول الله – ﷺ -: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله.. ويكرر هذا وهو يعلم تشاغل الرسول – ﷺ – بما هو فيه من الأمر. فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه. وتظهر الكراهية في وجهه – الذي لا يراه الرجل – فيعبس ويعرض. يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير. الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير والذي تدفعه إليه رغبته في نصرة دينه، وإخلاصه لأمر دعوته، وحبه لمصلحة الإسلام، وحرصه على انتشاره.

وهنا تتدخل السماء. تتدخل لتقول كلمة الفصل في هذا الأمر، ولتضع معالم الطريق كله، ولتقرر الميزان الذي توزن فيه القيم – بغض النظر عن جميع الملابسات والاعتبارات. بما في ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر. بل كما يراها سيد البشر ﷺ.

وهنا يجيء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم، صاحب الخلق العظيم، في أسلوب عنيف شديد. وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب: {كلا} وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب. ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين.

والأسلوب الذي تولى به القرآن هذا العتاب الإلهي أسلوب فريد، لا تمكن ترجمته في لغة الكتابة البشرية. فلغة الكتابة لها قيود وأوضاع وتقاليد، تغض من حرارة هذه الموحيات في صورتها الحية المباشرة. وينفرد الأسلوب القرآني بالقدرة على عرضها في هذه الصورة في لمسات سريعة. وفي عبارات متقطعة. وفي تعبيرات كأنها انفعالات، ونبرات وسمات ولمحات حية.[1]

ومن الضعفاء الذين راعى القرآن ضعفهم وحاجتهم: الوالدان ولاسيما في حال الكبر؛ {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٣-٢٤].

فقال: {إما يبلغن عندك الكبر} أي: إذا بلغ الوالدان أو أحدهما سن الكبر، وصارا عندك في آخر العمر بحال من الضعف والعجز، كما كنت عندهما في بدء حياتك[2]. فخصَّ الحق سبحانه حال الكِبَر، لأنه حال الحاجة وحال الضعف؛ لذلك قال أحد الفلاسفة: «خَيْر الزواج مبكِّره»، فلما سُئِل قال: «لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك في طفولة شيخوختك»، وشبَّه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام.[3]

وكذلك من استقرأ كتاب الله تعالى يدرك مقاصد الإسلام في رعايته للمرأة وعنايته واهتمامه بكافة شؤونها وأحوالها، وفي تقديمه الحلول الصحيحة والمعالجات الناجحة لكافة مشاكلها الحياتية والفكرية والنفسية وذلك بما يلائم تكوينها وفطرتها لأنها من الضعفاء الذين وجه القرآن إلى الاعتناء بشأنهن، وأن لا يهضم حقها، فقد أجمل البيان الإلهي ذلك في قوله

---

١ - تفسير الظلال: ٣٨٢٤/٦.

٢ - تفسير المنير: ٥٤/١٥.

٣ - تفسير الشعراوي: ١٨٤/١.

تعالى: {وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[البقرة:٢٢٨] فهذه الآية تعم جميع حقوق الزوجية.[١]

ومن أعظم حقوقها على زوجها المعاشرة بالمعروف حتى شبه الله سبحانه وتعالى حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين كما في قوله تعالى: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا} [لقمان:١٥] فقد قال تعالى {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}[النساء:١٩] قال القرطبي رحمه الله: أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة. والخطاب للجميع، إذ لكل أحد عشرة، زوجا كان أو وليا ؛ ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج، وهو مثل قوله تعالى: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ}. وذلك توفية حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقا في القول لا فظا ولا غليظا ولا مظهرا ميلا إلى غيرها. والعشرة: المخالطة والممازجة.[٢]

وهكذا نجد أن القرآن الكريم حرص على رعاية جانب الضعفاء في الحياة الاجتماعية، والعناية بهم مراعياً حالتهم وجانبهم الضعيف.

المطلب الثاني

الصحبة الصالحة

لقد اعتنى الإسلام بالصحبة الصالحة؛ وذلك لما لها من أثر عميق في توجيه النفس والعقل، وكذلك في تجاوز المحن والعقبات التي تعترض البشر، فالإنسان ضعيف بمفرده قوي بإخوانه. (ولقد كان موسى منطقيًا مع نفسه ومع الواقع عندما أفصح عن ضعف إمكانياته في مواجهة فرعون وملئه، إلى جانب ما بدر منه من قتل القبطي، فطلب العون من ربه فالمعركة تحتاج إلى الحكمة وبصر بعواقب الأمور إلى جانب سلاح البيان وقوة البرهان {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي *هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كثيرًا * وَنَذْكُرَكَ كثيرًا

١ . المحرر الوجيز: ٢٩٤/١.

٢ . الجامع لأحكام القرآن: ٩٧/٥.

*إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} [الإسراء: ٢٥-٣٥]، فطلب أن يكون معه في هذه الدائرة أخوه هارون، وعندما يقف هارون إلى جانبه يكون قد استكمل عدة المواجهة، ولم يكن هذا الجزاء هروبًا من الدعوة، ولكنه في الحقيقة غيرة عليها، وحرص على أن تحقق أهدافها.[١]

واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خافَ من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المعين، أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة في أمر الدعاء إلى الله. ولذلك قال عيسى ابن مريم: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} [آل عمران: ٥٢]. وقال لمحمد ﷺ: {حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين} [الأنفال: ٦٤]. {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الانعام: ٧٤]. قال بعض أهل العلم: (أن «تارح» اسمه «العلم»، وان «آزر» وصف له كما قال البيضاوي).[٢]

ومن هنا يتبين أنه إذا صح أن والد إبراهيم كان له اسم علمي واسم وصفي، يكون معناه القوي أو الناصر أو المعين؛ لأن لفظ آزر من الأزر أي القوة والنصر والعون، ومنه الوزير أي المعين. والوزير من الوزر؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوزر وهو الجبل الذي يتحصن به؛ لأن الملك يعتصم برأيه في رعيته، ويفوض إليه أموره، أو من الموازرة وهي المعاونة، والموازرة مأخوذة من إزار الرجل وهو الموضع الذي يشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب، قاله الأصمعي. وكان القياس أزيرًا فقلبت الهمزة إلى الواو.

قال عليه السلام: "من ولي من أمر المسلمين شيئًا فأراد به خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه".[٣] وكان أنوشروان يقول: «لا يستغني أجود السيوف عن الصقل، ولا أكرم الدواب عن السوط، ولا أعلم الملوك عن الوزير».

١ - فقه دعوة موسى عليه السلام: محمد عمارة، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع القاهرة - مصر، ط١: ١٤١٧هـ /١٩٩٧م، ص٣٨-٣٩

٢ - انظر تاج العروس: ٤٧/١٠.

٣ - السنن الكبرى للنسائي: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة — بيروت، ط١، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠١ م

وإنما سأل أن يكون الوزير من أهله وذلك لوجهين:

- أحدهما: أن التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله.

- أو لأن كل واحد منهما كان في غاية المحبة لصاحبه والموافقة له.

واعلم أن هارون عليه السلام كان مخصوصًا بأمور: منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا} [القصص: ٣٤]، ومنها أنه كان فيه رفق قال: {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي} [طه: ٩٤]، ومنها أنه كان أكبر سنا منه.

وقوله: {اشدد به أزري} الأزر القوة وآزره قواه فآزره أي أعانه قال أبو عبيدة رحمه الله: «أزري أي ظهري». وفي كتاب الخليل رحمه الله: «الأزر: الظهر».

وأنه -عليه السلام- لما طلب من الله تعالى أن يجعل هارون وزيرًا له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصرًا له لأنه لا اعتماد على القرابة. ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال: {كي نسبحك كثيرًا ونذكرك كثيرًا}. والتسبيح: يحتمل أن يكون باللسان، وأن يكون بالاعتقاد. وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به. وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء. {إنك كنت بنا بصيرًا} ففيه وجوه: أحدها: إنك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات إلا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحدًا سواك. وثانيها: كنت بنا بصيرًا لأن هذه الاستعانة بهذه الأشياء لأجل حاجتي في النبوة إليها. وثالثها: إنك بصير بوجوه **فقرة** إنك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا، وإنما قيد الدعاء بهذا إجلالاً لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضا للأمر بالكلية إليه.

ولذلك حينما بقي هارون وحيدًا في بني إسرائيل بدون أخيه موسى كان ضعيفًا في مواجهتهم وتوجيههم إلى الطريق الصحيح {قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠].

١٩١/٧، كذلك رواه الإمام أبوداود في سننه باب في اتخاذ الوزير عن عائشة ﵂ قال رسول الله -ﷺ- « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعنه » قال الشيخ الألباني صحيح ١٣١/٣.

تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط في حال الخوف على النفس، وفي الحال الذي يعلم أنه لا ينفع.[1]

ونرى حرص النبي -عليه الصلاة والسلام- على موضوع الصحبة وخاصة في المواقف الشديدة الحرجة، فقد اتخذ أبا بكر صاحبًا له في الهجرة وقد جاء هذا الوصف في القرآن في قوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]، وفي هذا دليل على فضل أبي بكر الصديق ﵁. ومنها أن الله سبحانه وتعالى نص على صحبة أبي بكر - ﵁ - دون غيره، بقوله سبحانه وتعالى {إذ يقول لصاحبه لا تحزن}. ومنها أن الله سبحانه وتعالى كان ثالثهما ومن كان الله معه دل على فضله وشرفه على غيره، ومنها إنزال السكينة على أبي بكر واختصاصه بها دليل على فضله والله أعلم.[2]

ويؤكد الرسول -ﷺ- على هذه الصحبة فعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: "لو كنت متخذًا من أمتي خليلا، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي".[3]

ومن هنا جاء الأمر الإلهي لرسول الله بصحبة الأخيار حتى يتقوى بهم ويتقوون به وذلك للوصول إلى الغاية والهدف المنشود: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨] يأمر تعالى نبيه محمدًا ﷺ، وغيرُه أسوتُه في الأوامر والنواهي، أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين {الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي} أي: أول النهار وآخره، يريدون بذلك وجه الله. فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها.

---

١ - محاسن التأويل =تفسير القاسمي: مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ) ت: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه – بيروت، ط: ١- ١٤١٨ هـ-، ١٨٨/٥.

٢ - تفسير الخازن: ٣٦٥/٢.

٣ - صحيح البخاري: ٥ج/ص ٤.

ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.[1]

المطلب الثالث

التكافل

التكافل بين البشر ضرورة بشرية وفريضة شرعية تحدث الأستاذ البهي الخولي عن مفهوم التكافل الاجتماعي فقال: (التكافل الاجتماعي علاقة متبادلة بين أفراد المجتمع للتعاون في المنشط والمكره على تحقيق منفعة أو دفع مضرة، ولا يكون لفريق في ذلك فضل على فريق آخر؛ حيث العبء فيه موزع على كافة الأفراد، والفائدة منه عائدة على الجميع، تلك صورة لا تتحقق إلا برابطة مثالية في مجتمع فاضل أدرك غاية الحياة، فبرىء من أنانية الهوى، وتواصى بمثل الحق وكرامة الغاية، فمضى إلى أهدافه وثيق البناء متعاطف الأطراف).[2]

والتكافل الاجتماعي في مغزاه ومؤداه: أن يحس كل واحد في المجتمع بأن عليه واجبات لهذا المجتمع يجب عليه أداؤها، وأنه إن تقاصر في أدائها، فقد يؤدي ذلك إلى انهيار البناء عليه وعلى غيره، وأن للفرد حقوقًا في هذا المجتمع يجب على القوامين عليه أن يعطوا كل ذي حق حقه من غير تقصير ولا إهمال، وان يدفع الضرر عن الضعفاء ويسد خلل العاجزين، وأنه إن لم يكن ذلك تآكلت لبنات البناء، ولا بد أن يخر منهارًا بعد حين.[3]

ولقد تضافرت نصوص كثيرة في كتاب الله تعالى لتحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع الإسلامي. يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠]، والأخوة تتطلب أن يحرص الأخ على إطعام أخيه الجائع، وإسقاء أخيه العطشان، وكساء أخيه العريان،

١ – تفسير السعدي: ٤٧٥/١.

٢ – الثروة في ظل الإسلام: البهي الخولي، ط ٢، ١٣٩١ هـ –١٩٧١م، ص٢٣٦.

٣ – التكافل الاجتماعي في الإسلام: محمد أبوزهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩١م، ص ٧.

بل يحرص أيضًا على حياته وكرامته ومكانته الاجتماعية، يواسيه في الضراء، ويشارك فرحته في السراء، فهذه هي حقيقة التكافل الاجتماعي الذي حث عليه الإسلام.[1]

{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...} الآية [الحشر: ٩]. فقد امتدح الله الأنصار مبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم، وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فيقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.[2] يقول سيد قطب رحمه الله: (إن التكافل الاجتماعي هو قاعدة المجتمع المسلم. والجماعة المسلمة مكلفة أن ترعى مصالح الضعفاء فيها. واليتامى بفقد آبائهم وهم صغار ضعاف أولى برعاية الجماعة وحمايتها ورعايتها لنفوسهم وحمايتها لأموالهم).[3]

ويقول رحمه الله: (ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالًا، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله).[4]

وإن الله – سبحانه – وهو مالك كل موجود بما أنه هو موجده قد استخلف الجنس الإنساني في هذه الأرض، ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات، على عهد منه وشرط. ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى، يصنع فيه ما يشاء كيف شاء. وإنما استخلفه فيه في إطار من الحدود الواضحة. استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله، وحسب شريعته. فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ. وما وقع منه مخالفًا لشروط التعاقد فهو باطل موقوف. فإذا أنفذه قوة وقسرًا فهو إذن ظلم واعتداء لا يقره الله ولا يقره المؤمنون بالله. فالحاكمية في الأرض –كما هي في الكون كله – لله وحده. والناس –حاكمهم ومحكومهم– إنما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم

---

١ – اشتراكية الإسلام: د. مصطفي السباعي، الناشرون العرب، ١٧٢.

٢ – انظر تفسير ابن كثير: ٦٨.

٣ – في ظلال القرآن: ٢٣٢/١.

٤– في ظلال القرآن: ١٥٤٤/٣.

لشريعة الله ومنهجه، وليس لهم -في جملتهم- أن يخرجوا عنها، لأنهم إنما هم وكلاء مستخلفون في الأرض بشرط وعهد وليسوا ملاّكًا خالقين لما في أيديهم من أرزاق.

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله، فيكون بعضهم أولياء بعض، وأن ينتفعوا برزق الله الذي أعطاهم على أساس هذا التكافل - لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية. ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة - فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه.

المطلب الرابع

إعانة الضعفاء

إن من أجلّ أعمال الخير التي يقوم بها الإنسان هو أن يكون نافعًا لغيره من أبناء جنسه ولاسيما إن كان هذا النفع سيكون في محله، كالنفع الذي يقدم للضعفاء المعوزين بأن يساهم في قضاء حوائجهم وإدخال السرور على قلوبهم ودفع الأذى عنهم، وقد تمثل ذلك في المواقف الثلاثة في قصة الخضر مع موسى عليه السلام، فقد قام الخضر بثلاثة أفعال ظاهرها الفساد وباطنها الخير والنفع للضعفاء، ومن هذه الأفعال التي فعلها الخضر مع موسى ثم عللها {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: ٧٩].

يقول ابن كثير رحمه الله: هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة {يأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ} صالحة أي جيدة {غَصْبًا} {فأردت أن أعيبها} لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل إنهم أيتام.[١]

---

١ - تفسير ابن كثير: ١٨٤/٥.

فهنا اختار الخضر الضرر الأخف ليدفع به الضرر الأعظم وذلك لإعانة هؤلاء الضعفاء، يقول الإمام الرازي: (فلأن ذلك العالم علم أنه لو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها ذلك الملك، وفاتت منافعها عن ملاكها بالكلية فوقع التعارض بين أن يخرقها ويعيبها فتبقى مع ذلك على ملاكها، وبين أن لا يخرقها فيغصبها الملك فتفوت منافعها بالكلية على ملاكها، ولا شك أن الضرر الأول أقل فوجب تحمله لدفع الضرر الثاني الذي هو أعظمهما. وكذلك في المسألة الثالثة حينما بنى الجدار الذي كاد ينهار في تلك القرية البخيلة؛ وذلك لأن المشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة ذلك الجدار ضررها أقل من سقوطه لأنه لو سقط لضاع مال تلك الأيتام، وفيه ضرر شديد).[1]

وللقرآن الكريم عناية خاصة باليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه، وقد فصل كتاب الله عز وجل في رعاية اليتيم تفصيلًا دقيقًا، وبحث كل الجوانب الحياتية والنفسية والاجتماعية والمالية التي تمس حياة اليتيم، وذلك في ثلاث وعشرين آية[2].

واليتيم في الشريعة الإسلامية وإن فقد أباه الذي يكفله، أو فقد حنان أمه وعطف أمه، لكن عناية الله عز وجل أحاطته بالتشريعات التي تعتني به وتعوضه ما فقد، ولقد رغب القرآن الكريم بكفالة اليتيم وحض عليها في أكثر من مناسبة، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} [النساء: ٣٦]. في هذه الآية ربط سبحانه وتعالى بين الإحسان إلى اليتيم وعبادته وتوحيده، وهذا دليل على أن العقيدة لا تكون كاملة في الأمة وتحت عيون أفرادها يتيم قد أهمل، ويدل هذا على الرأفة باليتيم والحض على كفالته وحفظ ماله، وفي هذه الآية دعوة ربانية للإحسان إلى اليتيم، والإحسان من أعلى مراتب الإيمان، إذ إن المحسن لليتيم يتعبد الله تعالى بإحسانه له.

ثم إن رعاية اليتامى والحفاظ عليهم لا يقتصر على الشريعة الخاتمة فحسب، بل كانت في الشرائع السابقة للإسلام، فمن جملة مواد الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل الإحسان

---

١ – مفاتيح الغيب: ٤٩٠/٢١.

٢ . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: ٧٧٠.

إلى اليتامى، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ} [البقرة: ٨٣].

فمن إكرام الله لليتامى موضع ذكرهم في هذه الآية، حيث توسط الإحسان لليتيم بين التوحيد وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والمعنى: اذكر أيها النبي حين أخذنا الميثاق على بني إسرائيل، أنهم لا يعبدون إلا الله سبحانه، فلا يشركون به سواه من ملك أو صنم أو بشر بدعاء أو غيره من أنواع العبادات، وأنهم يحسنون إلى الوالدين إحسانًا كاملًا، بأن يرعوهما حق الرعاية، ويعطفوا عليهما، ويطيعوهما فيما لا يخالف أوامر الله، وقد جاء في التوراة: أن من يسب والديه يقتل، وأن يحسنوا بالمال إلى ذي القرابة والأيتام والمساكين بسبب ضعفهم وعجزهم وحاجتهم، وأن يقولوا قولا حسنًا لا إثم فيه ولا شر، بالقول الجميل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع خفض الجناح ولين الجانب، وأن يؤدوا صلاتهم أداء تامًا، لأن الصلاة تصلح النفوس، وتهذب الطباع وتحليها بأنواع الفضائل، وتمنعها عن الرذائل، وأن يؤتوا الزكاة للفقراء، لما فيها من تحقيق التكافل الاجتماعي بين الناس، وإسعاد الفرد والجماعة، وإشاعة الرفاه والهناءة للجميع.[١]

وقد أمر الإسلام بكل ما من شأنه إصلاح أموالهم وأحوالهم، وقال تعالى{فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٢٠]، فقد تأثم الصحابة عليهم الرضوان من مخالطة اليتامى بعد نزول آية النساء، وإن كانت العادة جارية بتسامح الناس في مؤاكلة الخلطاء والشركاء من غير تدقيق، فكان بعضهم يأبى القيام على اليتيم، وبعضهم يعزل اليتيم عن عياله فلا يخالطونه في شيء حتى إنهم كانوا يطبخون له وحده، ثم إنهم فطنوا إلى أن هذا – على ما فيه من الحرج عليهم – لا مصلحة فيه لليتيم بل هو مفسدة له في تربيته ومضيعة لماله، وفيه من القهر المنهي عنه ما لا يخفي، فإنه يكون في البيت كالكلب، أو الداجن في مأكله ومشربه.

١ – التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: ٢٠٩/١.

ومن هنا جاءت الحيرة واحتيج إلى السؤال عن طريق الجمع بين الأمرين، والتوحيد بين المصلحتين، بأن يعيش اليتيم في بيت كافله عزيزًا كريمًا كأحد عياله، ويسلم الكافل من أكل شيء من ماله بغير حق، وكان من فضل الله تعالى ورحمته أن أنزل الوحي في إزالة الحيرة وكشف الغمة، فقال لنبيه: {قل} لهؤلاء السائلين عن القيام على اليتامى وكفالتهم، وعن المصلحة في عزلهم أو مخالطتهم {إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم} يعني أي إصلاح لهم خير من عدمه فلا تتركوا شيئًا مما تعلمون أن فيه صلاحًا لهم في أموالهم وأحوالهم من تربية.[١]

بل إن آيات القرآن الكريم جاءت لترعى اليتيم من الناحية النفسية والاجتماعية لينشأ نشأة سوية، فأمرت بإكرامه والرفق به، ونهت عن قهره وزجره وإهانته، {فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون:٣.٢]. أما قوله {يدع اليتيم} فالمعنى أنه يدفعه بعنف وجفوة كقوله: {يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا}[الطور:١٣]، وحاصل الأمر في دعّ اليتيم أمور: أحدها: دفعه عن حقه وماله بالظلم، والثاني: ترك المواساة معه. واعلم أن في قوله يدعّ بالتشديد فائدة وهي أن يدعّ بالتشديد معناه أنه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وجد منه ذلك وندم عليه.[٢]

ولذلك أكدت آيات القرآن وأحاديث النبي –عليه الصلاة والسلام– أن اليتيم بحاجة إلى من يعوله ويرعاه، (أما إذا قسا أبناء المجتمع عليه وحرموه العطف والرحمة ومنعوه المحبة والمودة وتركوه نهبًا للفقر والحاجة فسيقسو على مجتمعه وتمتلئ نفسه بالحقد والكراهية، وقد يلجأ إلى المسألة والتسول في الطرقات، ويصبح نقطة ضعف في المجتمع، ومنظرًا يسوء الناظرين، ووصمة عار في جبين الأغنياء من المسلمين).[٣]

---

١ – تفسير المنار ٢٧١/٢.

٢ – مفاتيح الغيب: الرازي ٣٠٢/٣٢.

٣ – رعاية اليتامى والضعفاء في الإسلام، د. مُحَّد شوقي مُحَّد نصار، ص١٣، ١٤.

المطلب الخامس

رعاية الضرورات والأعذار والظروف الاستثنائية

وهذا من العوامل التي أدت إلى سعة الشريعة ومرونتها، وبالتالي شرعت لها من الأحكام الاستثنائية التي تناسبها، وفقا لاتجاهها العام في التيسير على الخلق، ورفع الآصار والأغلال التي كانت عليهم في بعض الشرائع السابقة، كما قال تعالى في بعض الأدعية التي ختمت بها سورة البقرة. وجاء في الصحيح أن الله استجاب لها.[1]

{رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا...} [البقرة: ٢٨٦]، كما أخبر تعالى عن وصف رسوله في كتب أهل الكتاب بأنه: {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} الآية [الأعراف: ١٥٧].

ومن هنا جاءت القاعدة الأساسية الجليلة التي أجمعت عليها كل كتب القواعد الفقهية وهي /المشقة تجلب التيسير/.[2] وبناء على هذه القاعدة شرعت الرخص والتخفيفات الكثيرة في الفرائض الإسلامية، للمرضى والمسافرين وأصحاب الأعذار المختلفة[3]، وجاء في الحديث: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه".[4]

والنماذج والأمثلة التي ذكرت في القرآن كثيرة وأذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: {ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن

---

١ – في صحيح مسلم من حديث ابي هريرة قال: "قال الله تعالى: نعم"، ١/١١٥.

٢ – الأشباه والنظائر: زين العابدين بن ابراهيم بن نجيم (٩٢٦-٩٧٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: ١٤٠٠هـ-=١٩٨٠م، ص ٧٥.

٣ – عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية: د. يوسف القرضاوي، بتصرف، مكتبة الاسكندرية ٢٠٠٢م ص ٦٥-٦٦.

٤ – انظر صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: مُحَمَّد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي
، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: ٢، ١٤١٤ – ١٩٩٣، ت: شعيب الأرنؤوط: باب ماجاء في الطاعات وثوابها، ٦٩/٢، ومسند أحمد، ١٠٧/١٠.

تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون} [النور: ٦١].

اختلف الناس في المعنى الذي رفع الله فيه «الحرج» عن الأصناف الثلاثة، فظاهر الآية وأمرِ الشريعة أن الحرج عنهم مرفوع في كل ما يضطرهم إليه العذر وتقتضي نيتهم الإتيان فيه بالأكمل، ويقتضي العذر أن يقع منهم الأنقص، فالحرج مرفوع عنهم في هذا.[١]

والمعنى: أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك. ولا مع الأعرج؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس، فيفتات عليه جليسه. والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره. فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. قال الضحاك: «كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتعززًا ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية».[٢]

وقوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ١٧] نفي الحرج عن هؤلاء من ذوى العاهات في التخلف عن الغزو.[٣]

وقوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٩١]. قال أبو جعفر: (يقول تعالى ذكره: ليس على أهل الزمانة وأهل العجز عن السفر والغزو، ولا على المرضى، ولا على من لا يجد نفقة يتبلغ بها إلى مغزاه «حرج» وهو الإثم،

١ - المحرر الوجيز ١٩٥/٤.

٢ - تفسير ابن كثير: ٧٨/٦.

٣ - الزمخشري: الكشاف ٣٣٩/٤.

يقول: ليس عليهم إثم إذا نصحوا لله ولرسوله في مغيبهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم).[1]

{لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧]، من خلال الآية الكريمة يتبين أن الإيمان الصحيح لا بد من أن يقترن بالعمل الصالح الذي يهذب النفس، ويصحح العلاقات الاجتماعية، ويجعلها قائمة على أساس متين من المحبة، والألفة، والمودة، والوحدة، والتعاون أو التضامن والتكافل الاجتماعي، ويتمثل ذلك فيما يأتي:

إعطاء المال مع حبه للأصناف الآتية أصحاب الحاجات، رحمة بهم، وشفقة عليهم، وعونا للأخذ بأيديهم نحو حياة عزيزة كريمة تعتمد على الثقة بالنفس، والعمل عند القدرة، والإنقاذ وقت الشدة والمحنة.

وهم ذوو القربى المحتاجون، فهم أحق الناس بالبر، بسبب رابطة الدم، والإحساس بأحوالهم، والتأثر بأوضاعهم عن قرب، ولأن سعادة الإنسان الحقة لا تتم إلا بإشاعة السعادة لمن حوله، وتكون صلتهم محققة لهدفين: صلة الرحم وثواب الصدقة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "صدقتك على المسكين صدقة، وعلى ذي رحمك اثنتان"[2].

وقد رتب النبي -ﷺ- للمسلم طريق الإنفاق بحسب درجة القرابة. والمساكين والفقراء من باب أولى: وهم الذين لا دخل لهم أصلًا، بسبب الفقر، أو لهم دخل لا يكفيهم بسبب المسكنة فيحتاجون إلى المساعدة. كما أن القضاء على ظاهرة الفقر من ركائز النهضة والتقدم؛

---

١ - الطبري ٤١٩/١٤

٢ . سنن الترمذي: ٣٨/٣، والنسائي: ٧٣/٣، وابن ماجه: ٥٩١/١، وكذلك أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٧٢/٢٦ وهو حديث صحيح لغيره كما صرح بذلك المحقق .

لأن الحاجة قد تدفع بصاحبها إلى الانحراف والاجرام، فيكون من مصلحة الجميع مؤازرتهم ومعاونتهم، حتى يتقووا، إذ أن قوة الأمة بقوة أفرادها، وضعف الأمة بضعف أبنائها.

وابن السبيل: الذي انقطع في أثناء سفره أو طريقه عن الوصول إلى بلده، تكون مساعدته ومواساته ضرورية حتى يستقر به المقام في وطنه. وسمي بذلك؛ لأنه غريب، حتى لكأنه لا أب له ولا أم إلا الطريق.[1]

ولم يعتمد الإسلام على جانب واحد في حماية حقوق الفقراء والمساكين والأرقاء بل وضع نظاما تكامليا من أربعة محاور:

١- الوعظ والترغيب الأخلاقي بكافة أشكاله، والوعد الدنيوي بالعوض والخلف، والأخروي بالمثوبة والأجر والرضوان، مما يحفز المؤمنين إلى البذل وإيثار ما عند الله، والتغلب على شح النفس.

٢- تشريع الأحكام الملزمة لكل المؤمنين بأنواع الكفارات والزكاة والنذور وسواها، مما يترتب عليه الإلزام الشرعي بإخراج المال للفقير والمسكين.

٣- الإلزام العام للمجتمع بكفالة فقرائه ومحاويجه وأيتامه، وهذا إيجاب للإنفاق على الموسرين بما يحقق ذلك، فلا تترك حقوق الناس لمجرد التقوى والإيمان؛ لأنه يوجد من الناس من لا إيمان عنده ولا تقوى، فيفترض أن توجد جهات ومؤسسات ولجان وجمعيات وأجهزة تحفظ حقوق الأطفال والنساء والأيتام والفقراء والغرباء وعامة الناس، وفي العالم الغربي أصبحت هذه صناعة وثقافة وأعرافًا سارية، وقوانين محكمة، ولها أصول وقواعد وتنافس. أما في العالم الإسلامي، فإهدار وإطاحة بالحقوق على مستوى الحاكم والمحكوم، والزوج والزوجة، والأستاذ والطالب، والداعي والمدعو، والعالم والمتعلم، حتى أصبحت بلاد العالم الإسلامي في وضع لا تحسد عليه، ولا يتشجع الناس للدخول في هذا الدين الذي لم يجدوا النموذج الحسن في أهله وأتباعه.

---

١ – التفسير المنير للزحيلي: ٩٥/٢.

٤- حث المساكين والفقراء والأيتام على العمل والكدح والسعي؛ للاستغناء عن الناس، ولذلك جاءت قصة صاحب الفأس الذي علمه النبي -ﷺ- جمع الحطب وأشرف عليه حتى حقق النجاح.[١]

---

١ - إشراقات قرآنية ج ١ص٤٤٠/٤٤١، والحديث أخرجه أبوداود، باب ما تجوز فيه المسألة ١٢٠/٢.وكذا سنن ابن ماجه :٧٤٠/٢،و الترمذي في باب ما جاء في بيع من يزيد ٥١٤/٣ قال أبو عيسى هذا حديث حسن.

المبحث الرابع
العلاج بالعبادات الشعائرية

المطلب الأول: الصلاة.

المطلب الثاني: الزكاة.

المطلب الثالث: الدعاء.

المطلب الأول
الصلاة

يشير اسم «الصلاة» إلى أن فيها صلة بين الإنسان وربه. ففي الصلاة يقف الإنسان في خشوع وتضرع بين يدي الله -سبحانه وتعالى- خالقه وخالق الكون كله، ويقف بجسمه الضعيف الضئيل أمام الإله العظيم القادر على كل شيء، المتحكم في كل ذرة في الوجود، المدبر للأمر في السماوات والأرض، الذي بيده الحياة والموت، الموزع الأرزاق بين الناس، والذي يتم بأمره القضاء والقدر وكل ما يصيبنا في هذه الحياة من خير وشر.[1]

والصلاة تقوي النفس الإنسانية عند المحن، ففيها يدعو الإنسان خالقه الذي بيده وحده كشف الضر، وفي الصلاة يستمد من الله العون والهداية فتطمئن بذلك نفسه وتقوى على البلاء، ولهذا أمر الله المؤمنين بالالتجاء إلى الصلاة عند البلاء بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣].

وهو بهذا الشعور المالك لِلُبّه المالئ لقلبه، يستسهل في سبيله كل صعب، ويستخف بكل كرب، ويحتمل كل بلاء، ويقاوم كل عناء. فلا تتوق نفسه إلا لما يرضى ربه الذي يلجأ إليه في الملمات، ويركن إليه إذا أفزعته النائبات.

---

١ - القرآن وعلم النفس: ٢٨٥.

وليست الصلاة التي عناها الكتاب الكريم هي مجرد القيام والركوع والسجود، والتلاوة باللسان خاصة، والتي قد نشاهد من معتاديها الإصرار على الفواحش والمنكرات واجتراح السيئات، إذ لا أثر لها مما وصفه الله بقوله: {إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ} [العنكبوت: ٤٥] وقوله: {إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلا الْمُصَلِّينَ} [المعارج: ١٩ -٢٢].

ومن ثم نرى الذين يصلّون هذه الصلاة أضعف الناس قلوبًا، وأشدهم اضطرابًا إذا عرض لهم شيء على غير ما يرومون، وما كان للمصلي أن يكون ضعيف القلب عادم الثقة بالله والله يبرئه من ذلك ويقول: {إلا المصلين}.[١]

يقول الطبيب توماس هايسلوب: (إن أهم مقومات النوم التي عرفتها في خلال سنين طويلة قضيتها في الخبرة والتجارب هو الصلاة، وأنا ألقي القول هذا بوصفي طبيبا، إن الصلاة أهم أداة عرفت حتى الآن لبث الطمأنينة في النفوس، وبث الهدوء في الأعصاب).[٢]

ولقد كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فهي مرفأ الراحة والطمأنينة، ومنزل الأمن والسكينة، بها يتغلب الإنسان على نوازع الجبن والخوف، ومواقف الهوى والخمول، وفيها مقاومة للجزع الذي يصيب بعض الناس وقت نزول الشدة، وعلاج للنفوس المناعة للخير.[٣]

فوقوف الإنسان في الصلاة أمام الله سبحانه وتعالى في خشوع وتضرع يمده بطاقة روحية تبعث فيه الشعور بالصفاء الروحي، والاطمئنان القلبي، والأمن النفسي، وانصراف العبد عن مشكلات الحياة من شأنه أن يبعث في الإنسان حالة من الاسترخاء التام وهدوء النفس، وراحة العقل، وهذه الحالة لها أثرها العلاجي المهم في تخفيف حدة التوترات العصبية التي تحدثها

---

١ - تفسير المراغي ٢٢/٢.

٢ - دع القلق وابدأ الحياة: ديل كارنيجي، ترجمة عبد المنعم الزيادي، ط٥. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٦، ص ٣٥٩ -٣٦٠.

٣ - النفس في القرآن: أحمد عمر هاشم، دار الفيصل، ١٩٩٦، ص١٨.

مشكلات الحياة اليومية وهمومها، وقد كان الرسول يقول لبلال حينما تحين أوقات الصلاة "يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها".[1] بمعنى أرحنا بها من هموم الدنيا، وتعب الدنيا، ومشاكل الدنيا.[2]

بل إنها – أي الصلاة – العلاج الحقيقي للضعف البشري الذي يعتري الصف المسلم في ساحات القتال ومواجهة الأعداء، ولذلك أمر الله بها في هذه المواقف وجعل لها كيفيات متنوعة تتناسب مع تلك الظروف والأحداث. {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء: ١٠٢].

إن المتأمل في أسرار هذا القرآن، وفي أسرار المنهج الرباني للتربية، المتمثل فيه، يطلع على عجب من اللفتات النفسية، النافذة إلى أعماق الروح البشرية. ومنها هذه اللفتة في ساحة المعركة إلى الصلاة، إن السياق القرآني لا يجيء بهذا النص هنا لمجرد بيان الحكم «الفقهي» في صفة صلاة الخوف. ولكنه يحشد هذا النص في حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة.

وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة في ساحة المعركة، ولكن هذا طبيعي بل بديهي في الاعتبار الإيماني. إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة. بل إنها السلاح. فلا بد من تنظيم استخدام هذا السلاح، بما يتناسب مع طبيعة المعركة، وجو المعركة.

---

١ – سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب صلاة العتمة، ٧١٥/٢،" وكذلك أخرجه أبو داود ،باب في صلاة العتمة ،قال الشيخ شعيب إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عثمان بن المغيرة، فمن رجال البخاري. وإسرائيل: هو ابن يونس.٣٣٩/٧.

٢ – انظر: القرآن وعلم النفس، ٢٨٥-٢٨٦

ولقد كان أولئك الرجال – الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الرباني – يلقون عدوهم بهذا السلاح الذي يتفوقون فيه قبل أي سلاح.[1]

فالصلاة هي من أعظم الوسائل التي تمد المؤمن بروح القوة وقوة الروح ولذلك فهي من أكثر الأوامر الإلهية في القرآن الكريم (لما في الصلاة من توثيق عرى الإيمان، وإعلاء الهمة، ورفعة النفس بمناجاة الله، وتأليف قلوب المؤمنين حين الاجتماع لأدائها، وتعارفهم في المساجد. وبهذا ينمو الإيمان، وتقوى الثقة بالله، وتتنزه النفس أن تأتى الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتكون أقوى نفاذا في الحق، فتكون جديرة بالنصر.[2]

ويدخل في ذلك الفرائض والنوافل فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته".[3]

فهي أفضل وسيلة لاستمداد العون من الله العظيم ومن خلالها يتحقق ما يصبو إليه الإنسان من خيري الدنيا والآخرة وبها يقاوم الإنسان ضعفه البشري. بل هي العبادة الكبرى التي تحقق التوازن بين القوى الثلاثة في الكائن البشري، يقول صاحب الظلال: ومن ثم يجعل عبادته الكبرى –الصلاة– مظهرًا لنشاط قواه الثلاث وتوجهها إلى خالقها جميعًا في ترابط واتساق. يجعلها قيامًا وركوعًا وسجودًا تحقيقًا لحركة الجسد، ويجعلها قراءة وتدبرًا وتفكيرًا في المعنى والمبنى تحقيقًا لنشاط العقل ويجعلها توجها واستسلامًا لله تحقيقًا لنشاط الروح –كلها في

---

١ – في ظلال القرآن: ٢/٧٤٨.

٢ – تفسير المراغي ١/١٩١.

٣ – صحيح الإمام البخاري: ٨/١٠٥.

آن- وإقامة الصلاة على هذا النحو تذكر بفكرة الإسلام كلها عن الحياة، وتحقق فكرة الإسلام كلها عن الحياة).[1]

المطلب الثاني

الزكاة

من معجزات هذا الدين، ومن الدلائل على أنه من عند الله، وعلى أنه الرسالة الخاتمة الخالدة: أنه سبق الزمن، وتخطى القرون، فعني بعلاج مشكلة الفقر ورعاية الفقراء، دون ثورة منهم، ولا مطالبة من فرد أو من جماعة بحقوقهم، ولم تكن عنايته هذه عناية سطحية أو عارضة أو ثانوية في تعاليمه وأحكامه، بل كانت من خاصة أسسه، وصلب أصوله، فلا عجب أن كانت الزكاة – التي ضمن الله بها حقوق الفقراء والمساكين في أموال الأمة، وفي عنق الدولة – ثالثة دعائم الإسلام، وأحد أركانه العظام، وشعائره الكبرى، وعباداته الأربع.

وقد جعل القرآن الزكاة – مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة – عنوانًا للدخول في الإسلام، واستحقاق أخوة المسلمين، والانتماء إلى المجتمع الإسلامي، قال تعالى في شأن المشركين المحاربين: {فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ} [التوبة: ١١].[2]

(ثم هي بعد معنى الطهارة نماء وزيادة. نماء لشخصية الغني وكيانه المعنوي، فالإنسان الذي يسدي الخير، ويصنع المعروف، ويبذل من ذات نفسه ويده، لينهض بإخوانه في الدين والإنسانية، وليقوم بحق الله عليه يشعر بامتداد في نفسه، وانشراح واتساع في صدره، ويحس بما يحس به من انتصر على ضعفه وأثرته وشيطان شحه وهواه. فهذا هو النمو النفسي، والزكاة المعنوية. قال تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة: ١٠٣]. والزكاة أيضًا نماء لشخصية الفقير، حيث يحس أنه ليس ضائعًا في

---

١ – في ظلال القرآن: ١/١٦٠.

٢ – مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام: د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٦هـ –١٩٨٥م، ٦٩.

المجتمع ولا متروكًا لضعفه وفقره ينخران فيه حتى يوديا به، ويعجلا بهلاكه).[1] قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٦٠].

المال قوام الحياة الاجتماعية والمالية، أو ملاكها وقيام نظامها كما قال الله تعالى: {وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا} [النساء: ٥]، يقول صاحب المنار رحمه الله في أهمية هذه الفريضة الإسلامية وتصديها للمشاكل الاقتصادية وحلها لمشاكل الفرد والمجتمع:(إن الإسلام يمتاز على جميع الأديان والشرائع بفرض الزكاة فيه، كما يعترف له بهذا حكماء جميع الأمم وعقلاؤها، ولو أقام المسلمون هذا الركن من دينهم لما وجد فيهم – بعد أن كثرهم الله، ووسع عليهم في الرزق – فقير مدقع[2]، ولا ذو غرم مفجع، ولكن أكثرهم تركوا هذه الفريضة فجنوا على دينهم وملتهم وأمتهم فصاروا أسوأ من جميع الأمم حالًا في مصالحهم المالية والسياسية، حتى فقدوا ملكهم وعزهم وشرفهم، وصاروا عالة على أهل الملل الأخرى حتى في تربية أبنائهم وبناتهم.

فالواجب على دعاة الإصلاح فيهم أن يبدؤوا بإصلاح من بقي فيه بقية من الدين والشرف بتأليف جمعية لتنظيم جمع الزكاة منهم، وصرفها قبل كل شيء في مصالح المرتبطين بهذه الجمعية دون غيرهم، ويجب أن يراعى في نظام هذه الجمعية أن لسهم المؤلفة قلوبهم مصرفًا في مقاومة الردة والإلحاد، وأن لسهم فك الرقاب مصرفًا في تحرير الشعوب المستعمرة من الاستعباد إذا لم يكن له مصرف تحرير الأفراد، وأن لسهم سبيل الله مصرفًا في السعي لإعادة حكم الإسلام، وهو أهم من الجهاد لحفظه في حال وجوده من عدوان الكفار، ومصرفًا آخر في

---

١ – العبادة في الإسلام: القرضاوي، مكتبة وهبة –القاهرة، ٢٧٥.

٢ .. [أدقع] الرجل: إذا لصق بالأرض فقراً، فقر مدقع: أي ملصق بالدقعاء. يفضي بصاحبه إلى الدقعاء، والدقعاء :التراب. يقال: فقر مدقع، أي شديد.

ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم : نشوان بن سعيد الحميري اليمني (المتوفى: ٥٧٣هـ) ،ت:د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف مُحَمَّد عبد الله

،دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية) ،ط:١، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م،٢١٢٩/٤،٢١٢٦.

تاج العروس:٥٦٠/٢٠.

الدعوة إليه، والدفاع عنه بالألسنة والأقلام، إذا تعذر الدفاع عنه بالسيوف والأسنة وبألسنة فوهات النيران.

ألا إن إيتاء المسلمين أو أكثرهم للزكاة وصرفها بالنظام، كاف لإعادة مجد الإسلام، بل لإعادة ما سلبه الأجانب من دار الإسلام، وإنقاذ المسلمين من رق الكفار، وما هي إلا بذل العشر أو ربع العشر مما فضل عن حاجة الأغنياء. وإننا نرى الشعوب التي سادت المسلمين بعد أن كانوا سادتهم يبذلون أكثر من ذلك في سبيل أمتهم وهو غير مفروض عليهم من ربهم.[١]

المطلب الثالث

الدعاء

الدعاء سلامة من الضعف والعجز، حيث إن أضعف الناس من عجز عن الدعاء، وهو ملجأ للمظلومين والمستضعفين.

قال الإمام الرازي رحمه الله: (ومعنى الدعاء: استدعاء العبد ربه -عز وجل- العناية واستمداده إياه المعونة)[٢] وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه.

قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦]. فمجرد اللجوء إلى الله تعالى يؤدي إلى تخفيف حدة القلق والتوتر، والدعاء فيه تنمية لقوة الإحساس الروحي، وتوثيقًا للصلة

١ – تفسير المنار: ١٠/٤٤٣، ٤٤٤.

٢ . تفسير الرازي : ١/٧٧٨.

الدائمة بالله والارتباط به والاعتماد عليه، ليحصل الاستغناء الذاتي بالله عمن سواه، فيلجأ إليه المؤمن في محنه وشدائده، وعند إساءته ومعصيته.[١]

{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} [النمل: ٦٢]. ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ} الآية [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل: ٥٣].

وهكذا قال هاهنا: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ...} [النمل: ٦٢] أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.[٢] وهذه الحالة التي يصل إليها الإنسان من الضعف والضيق فهذه الحالة من دواعي إجابة الداعي الذي سماه الله مضطرًا، (فالدعاء مع الرجاء مأمور به وموعود عليه بالإجابة).[٣] فزوال الكرب والضيق والضعف والشدة مرهون بصدق الطلب والالتجاء والتضرع، قال الله تعالى: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا} [الأنعام: ٤٣] أي: فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا فآمنوا فنكشف عنهم ما نزل بهم من البلاء والشدة.[٤]

ولقد بين لنا القرآن كيف كان الأنبياء يلتجئون إلى الله عز وجل حينما يعتريهم الضعف بل لقد كان الدعاء في ذاته – لدى الأنبياء – شعورًا بالفقر والعجز، وفي المقابل شعور بقدرة الله على تحقيق ما عجزوا عنه، وهذا عين العبودية لله {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} [الأنبياء: ٨٣ – ٨٤]، فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ، وبرحمة ربه الواسعة العامة فاستجاب الله له.[٥]

---

١ – انظر: القرآن وعلم النفس: ٢٦٥ وما بعدها.

٢ – تفسير ابن كثير: ٢٠٣/٦.

٣ – جامع العلوم والحكم: ٤٠٢/٢.

٤ – انظر تفسير ابن كثير: ٢٥٦/٣– وتفسير البغوي: ١٤٣/٣ بتصرف.

٥ – تفسير السعدي: ٥٢٨/١.

ورسول الله -ﷺ- لا ينسلخ عن بشريته وضعفه عند الأزمات وقد عبر عن ذلك يوم الطائف حينما لقي ما لقيه من الشدائد: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب، فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع، وأعوذ بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، ويحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، لا حول، ولا قوة إلا بك".[١]

وهو من أعظم الوسائل التي تعين الإنسان على الثبات على طريق الهداية وعدم الزيغ عنه، ولذلك كان من دعاء أهل الإيمان: {رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} [آل عمران: ٨] أي: إن أولئك الراسخين في العلم مع اعترافهم بالإيمان بالمتشابه يطلبون إلى الله أن يحفظهم من الزيغ بعد الهداية، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة فهم يعرفون ضعف البشر، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول، فيخافون أن يقعوا في الخطأ، والخطأ قرين الخطر.[٢]

فصفة الضعف في الإنسان هي التي تجعل الإنسان يلجأ إلى الله ويلوذ به ويستمد منه العون، وهذا من أهم الدواعي لاستجابة الدعاء، فعن حارثة بن وهب الخزاعي قال سمعت النبي ﷺ يقول: "ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره... ".[٣]

---

١ - الدعاء للطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفي: ٣٦٠هـ)، ت: مصطفي عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ، باب الدعاء عند الكرب والشدائد، ٣١٥/١، ذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد" ،وقال: «رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق؛ وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات»٣٥/٦ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ) ،ت: حسام الدين القدسي ،مكتبة القدسي، القاهرة،١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م،٣٥/٦.

٢ - تفسير المراغي: ١٠٢/٣

٣- صحيح البخاري: (باب وأقسموا بالله جهد أيمانهم)، ١٣٤/٨

المبحث الخامس

العلاجات العامة

المطلب الأول: الهجرة.

المطلب الثاني: مواجهة الطغيان.

المطلب الثالث: الجهاد في سبيل الله.

المطلب الرابع: إعداد القوة.

المطلب الخامس: الوحدة الإسلامية والاجتماع وعدم التفرق.

المطلب السادس: ال–أخذ بالأسباب واستثمار الطاقات.

المطلب السابع: المرجعية.

المطلب الثامن: العلم.

المطلب التاسع: الالتزام بطاعة الله ورسوله.

المطلب العاشر: الشورى.

المطلب الحادي عشر: القيام بالنصيحة وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الثاني عشر: تحقيق السكن النفسي.

المطلب الثالث عشر: التعرف على السنن الربانية والإفادة منها.

أولًا: الاستخلاف.

ثانيًا: سنة التدافع.

ثالثًا: سنة التغيير.

المطلب الرابع عشر: الالتزام بالحق واليقين بنصر الله.

المطلب الأول

الهجرة

المتتبع لآيات الهجرة في القرآن الكريم يجد فيها العلاج المناسب لحالات الاستضعاف التي تنزل بالبشر، بل هي من أهم الوسائل لدفع الاستضعاف.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الحج: ٥٨].

إن المتدبر في هذه الآية الكريمة يجد أن القرآن الكريم يهتم بالهجرة، حيث إنه يعالج مخاوف النفس المتنوعة، وهي تواجه مخاطر الهجرة، في مثل تلك الظروف التي كانت قائمة، والتي قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف في كل حين.[١]

وتظهر أيضًا منزلة الهجرة من الإيمان حين تكون رمزًا لحقيقة الإيمان. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ٧٤]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ٢١٨].

فكرر الموصول «الذين» هنا للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل زائد على الإيمان يستحق وحده الثواب لأنه ترك للمال والأهل، وطلب للعزة وإعزاز الدين، بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين.

وقد أمر الله عز وجل بالهجرة عند الاستضعاف، ونهى عن البقاء تحت نير غير المسلمين، ولذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

---

١ – انظر الهجرة في القرآن: أحزمي جزولي، مكتبة الرشد، ١٩٩٦، ٧٥

وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} [النساء: ٩٧-٩٨].[١]

وهذا تحريضٌ على الهجرة، وترغيبٌ في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأً يتحصن فيه[٢]، {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأرض مُرَاغَمًا كثيرًا وَسَعَةً} [النساء: ١٠٠].

يا أيها الإنسان إنك كنت إنما تكره الهجرة عن وطنك خوفًا من أن تقع في المشقة والمحنة في السفر، فلا تخف فإن الله تعالى يعطيك من النعم الجليلة والمراتب العظيمة في مهاجرتك ما يصير سببًا لرغم أنوف أعدائك، ويكون سببًا لسعة عيشك. وإنما قدم في الآية ذكر رغم الأعداء على ذكر سعة العيش لأن ابتهاج الإنسان الذي يهاجر عن أهله وبلده بسبب شدة ظلمهم عليه بدولته من حيث إنها تصير سببًا لرغم أنوف الأعداء، أشد من ابتهاجه بتلك الدولة من حيث أنها صارت سببًا لسعة العيش عليه.[٣]

{ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة} وصل هذا بما قبله للترغيب في الهجرة، وتنشيط المستضعفين وتجرئتهم على استنباط الحيل لها، لأن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنس به، ويتخيل فيه من المشقات والمصاعب ما لعله لا يوجد إلا في خياله، فبعد أن توعد التارك المقصر، وأطمع التارك المعذور في العفو إطماعًا مبنيًا على أن ذلك من شأن الله - تعالى - أن يفعله، بين تعالى أن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له، وأن عسره إلى يسر، من يهاجر بالفعل يجد في الأرض مراغمًا كثيرًا، أي: متحولًا من الرغام وهو التراب، أو مذهبًا في الأرض يرغم بسلوكه أنوف من كانوا مستضعفين له، أو مكانًا للهجرة ومأوًى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد.[٤]

---

١ - زهرة التفاسير: ٦٩٤/٢

٢ - تفسير ابن كثير: ٣٩١/٢.

٣ - مفاتيح الغيب للرازي = التفسير الكبير: ١٥٣٩/١.

٤ - تفسير المنار ٢٩٢/٥.

ولذلك لا نكاد نجد أمرًا بالهجرة في القرآن إلا ويقرنه الله بالمحفزات والمرغبات والتي تجعل الإنسان ينطلق من مساحة ضعفه أمام محبة وطنه وأرضه إلى أن يقتنع أن الأرض أرض الله وإنما هو ينتقل من ملك الله إلى ملك الله {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} [العنكبوت: ٥٦].

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين، إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم.[1]

(والدين الإسلامي القويم: لم يرض لمعتنقيه الضعف والذل؛ بل أراد لهم وبهم العزة والرفعة والكرامة؛ وألا يحل مسلم في أرض إلا إذا كان عزيزًا مكرمًا مرهوب الجانب؛ وإلا فأرض الله واسعة وأبواب رزقه ورحمته مفتوحة).[2]

وهذا ما طبقه عمليًا أصحاب الكهف حينما خافوا أن يفتنوا عن دينهم: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [الكهف: ١٤]. (يقال إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذي كان عليهم من زينة قومهم، وأجّلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد منهم خوفا على دينه).[3]

كما أكد على ذلك الشيخ مُحَمَّد رشيد رضا – رحمه الله – فقال: (إن الهجرة شرعت لثلاثة أسباب أو حكم، اثنان منها يتعلقان بالأمر، والثالث يتعلق بالجماعة. والذي يعنينا في بحثنا هذا السبب الأول والثالث:

---

١ – تفسير ابن كثير: ٢٩٠/٦.

٢ – أوضح التفاسير: ١١٠/١.

٣ – تفسير ابن كثير: ١٤١/٥، وانظر جامع البيان: ٦١٥/١٧، أنوار التنزيل: ٢٧٤/٣.

أما **الأول**: فهو أنه لا يجوز لمسلم أن يقيم في بلد يكون فيها ذليلًا مضطهدًا في حريته الدينية والشخصية، فكل مسلم يكون في مكان يفتن فيه عن دينه أو يكون ممنوعًا من إقامته فيه كما يعتقد، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حرًا في تصرفه وإقامة دينه، وإلا كانت إقامته معصية يترتب عليها ما لا يحصى من المعاصي.

وأما **الثالث** المتعلق بجماعة المسلمين: فهو أنه يجب على مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة أو دولة قوية تنشر دعوة الإسلام، وتقيم أحكامه وحدوده، وتحفظ بيضته وتحمي دعاته وأهله من بغي الباغين، وعدوان العادين وظلم الظالمين، فإذا كانت هذه الجماعة أو الدولة أو الحكومة ضعيفة يخشى عليها من إغارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا أن يشدوا أزرها، حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها. فإذا توقف ذلك على هجرة البعيد عنها إليها وجب عليه ذلك وجوبا قطعيا لا هوادة فيه، وإلا كان راضيًا بضعفها ومعينًا لأعداء الإسلام على إبطال دعوته وخفض كلمته.[1]

المطلب الثاني

مواجهة الطغيان

ضرب الله تعالى كثيراً من الأمثلة القرآنية في مواجهة الظلمة والطغاة الذين تسلطوا على رقاب البشر واستضعفوهم وذلك حتى يؤكد حق البشرية في أن تعيش حياة كريمة لأن الحرية هي من مقاصد ديننا الحنيف، وتتعدد تبعاً لذلك وسائل المواجهة.

يقول صاحب الظلال في قوله تعالى: {قالَ الْمَلَأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا منْ قَوْمه للَّذينَ اسْتُضْعفُوا لمنْ آمَنَ منْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحًا مُرْسَلٌ منْ رَبّه} [الأعراف: ٧٥]: (وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ولاستنكار إيمانهم به وللسخرية من تصديقهم له في دعواه الرسالة من ربه. ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافًا. لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم والثقة في نفوسهم

---

١ - تفسير المنار: ٢٩٥/٥.

والاطمئنان في منطقهم. إنهم على يقين من أمرهم فماذا يجدي التهديد والتخويف؟ وماذا تجدي السخرية والاستنكار من الملأ المستكبرين؟: {قالُوا إنَّا بما أُرْسلَ به مُؤْمنُونَ}.

{قالَ الْمَلَأُ الَّذينَ اسْتَكْبَرُوا منْ قَوْمه للَّذينَ اسْتُضْعفُوا} أي: قال المستكبرون للمستضعفين {لمَنْ آمَنَ منْهُمْ} دل على أن المستضعفين كانوا كافرين ومؤمنين، وكلام المستكبرين للمستضعفين المؤمنين. {أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صالحًا مُرْسَلٌ منْ رَبّه}؟ سألوهم هذا السؤال على سبيل السخرية؛ قالُوا: أي المؤمنون {إنَّا بما أُرْسلَ به مُؤْمنُونَ} سألهم المستكبرون عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمرًا معلومًا مسلّمًا، كأنهم قالوا العلم بإرساله وبما أرسل به لا شبهة فيه، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبركم أنا به مؤمنون.[1]

إن الناس إذا كانوا في فترات من الزمان يعيشون سلبيين؛ ويدَعون الفساد والشر والظلم والطغيان والتخلف والجهالة تغمر حياتهم الدنيا- مع ادعائهم الإسلام- فإنما هم يصنعون ذلك كله أو بعضه لأن تصورهم للإسلام قد فسد وانحرف؛ ولأن يقينهم في الآخرة قد تزعزع وضعف. لا لأنهم يدينون بحقيقة هذا الدين؛ ويستيقنون من لقاء الله في الآخرة. فما يستيقن أحدٌ من لقاء الله في الآخرة وهو يعي حقيقة هذا الدين ثم يعيش في هذه الحياة الدنيا سلبيًا أو متخلفًا، أو راضيًا بالشر والفساد والطغيان. إنما يزاول المسلم هذه الحياة الدنيا، وهو يشعر أنه أكبر منها وأعلى. ويستمتع بطيباتها أو يزهد فيها وهو يعلم أنها حلال في الدنيا خالصة له يوم القيامة. ويجاهد لترقية هذه الحياة وتسخير طاقاتها وقوامها وهو يعرف أن هذا واجب الخلافة عن الله فيها. ويكافح الشر والفساد والظلم محتملًا الأذى والتضحية حتى الشهادة، وهو إنما يقدم لأنه يعلم من دينه أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن ليس هنالك طريق للآخرة لا يمر بالدنيا، وأن الدنيا صغيرة زهيدة ولكنها من نعمة الله التي يجتاز منها إلى نعمة الله الكبرى.[2]

---

١ - الأساس في التفسير ١٩٤٠/٤.

٢ - الأساس في التفسير ١٦١٦/٣.

والطغيان لا يخشى شيئًا كما يخشى يقظة الشعوب وصحوة القلوب، ولا يكره أحدًا كما يكره الداعين إلى الوعي واليقظة، ولا ينقم على أحدٍ كما ينقم على من يهزون الضمائر الغافية.[١]

وهذه المواجهة تكون بقوة الشخصية وبالحجة والبرهان وتذكيرهم بموقعهم الصغير في هذا الوجود الكبير كما فعل موسى –عليه السلام– مع الطاغية العنيد فرعون وملئه {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ *قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [الشعراء: ٢٤–٢٨].

فقد عمد إلى كل ما من شأنه إصلاح تفكيرهم، محاولًا إعطاء الأفكار أقصى ما يمكن من الفعالية، بدءًا بترشيدهم ولفت أنظارهم إلى وجود رب للكون غير الذي أيقنته عقولهم، فإذا تمكن من ذلك رفع الضعف عنهم، واستمدوا القوة من العلي القدير الذي لا يظلم عنده مثقال ذرة ليصل في آخر المطاف إلى بيان الشريعة وتأسيس الحكومة العادلة.[٢] وهو الأمر الذي ينغص حياة الطغاة ويفقدهم الصواب إذا اهتز كرسي السلطان من تحتهم.

إنه حين كان بنو إسرائيل يؤدون ضريبة الذل لفرعون وهو يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم لم تتدخل يد القدرة لإدارة المعركة. فهم لم يكونوا يؤدون هذه الضريبة إلا ذلًا واستكانة وخوفًا. فأما حين استعلن الإيمان، في قلوب الذين آمنوا بموسى واستعدوا لاحتمال التعذيب وهم مرفوعو الرؤوس يجهرون بكلمة الإيمان في وجه فرعون دون تلجلج ودون تحرج، ودون اتقاء للتعذيب. فأما عند ذلك فقد تدخلت يد القدرة لإدارة المعركة. وإعلان النصر الذي تم قبل ذلك في الأرواح والقلوب.

---

١ – في ظلال القرآن: ٥/٢٥٩٣.

٢ – فقه دعوة موسى عليه السلام بتصرف: مُحَمَّد عمارة، ٣٥.

المطلب الثالث

الجهاد في سبيل الله

لقد أمر الله بالجهاد للتمكين لأهل دينه ورد اعتداء المعتدين ونصرة المستضعفين، وقد جاء في الحديث عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: "لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلة في رقابكم لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه".[1]

وليس بعد الإيمان بالله ورسوله فرض آكد ولا أولى بالإيجاب من الجهاد؛ وذلك أنه بالجهاد يمكن إظهار الإسلام وأداء الفرائض. وفي ترك الجهاد غلبة العدو ودروس الدين وذهاب الإسلام.[2]

فهم لا يفقهون أي ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الهلاك والشقاوة.[3] {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٤-١٥].

فالله ضمن للمسلمين من تلك المقاتَلة خمس فوائد تنحلّ إلى اثنتي عشرة؛ إذ تشتمل كل فائدة منها على كرامة للمؤمنين وإهانة لهؤلاء المشركين، وروعي في كلّ فائدة منها الغرض الأهمّ فصرح به وجعل ما عداه حاصلًا بطريق الكناية:

الفائدة الأولى: تعذيب المشركين بأيدي المسلمين. وهذه إهانة للمشركين وكرامة للمسلمين.

الثانية: خزي المشركين. وهو يستلزم عِزّة المسلمين.

الثالثة: نصر المسلمين. وهذه كرامة صريحة لهم وتستلزم هزيمة المشركين وهي إهانة لهم.

---

١ - أخرجه أبو داوود، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة برقم (٣٤٦٢)، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: مؤسسة الرسالة، ط: ٢، ١٤٢٠هـ-، ١٩٩٩م، ٩/٥١ برقم (٥٠٠٧).

٢ - أحكام القرآن: الجصاص ٣١٤/٤.

٣ - الأساس في التفسير: ٢٣٣٨/٤.

الرابعة: شفاء صدور فريق من المؤمنين. وهذه صريحة في شفاء صدور طائفة من المؤمنين وهم خزاعة، وتستلزم شفاء صدور المؤمنين كلّهم، وتستلزم حرج صدور أعدائهم. فهذه ثلاث فوائد في فائدة.

الخامسة: إذهاب غيظ قلوب فريق من المؤمنين أو المؤمنين كلّهم. وهذه تستلزم ذهاب غيظ بقية المؤمنين الذي تحملوه من إغاظة أحلامهم، وتستلزم غيظ قلوب أعدائهم. فهذه ثلاث فوائد في فائدة.[1]

وهذا الوعد من أخبار الغيب التفصيلية في حال معينة، فهو ليس كالوعد العام المجمل في نصر الله لرسله وللمؤمنين الذي يراد به أن العاقبة تكون لهم.

فالظاهر أنه تعالى أسند التعذيب إلى اسمه؛ لأنه أمر زائد على أسبابه من الطعن والضرب، وما يفضيان إليه من القتل والجرح، وكل قوم يقاتلون فإنهم يصابون بالطعن والضرب، ويقتل بعضهم ويجرح بعض، ولا يسمون معذبين بذلك وحده، فإن الغالب والمغلوب فيه سواء، وإنما يدل هذا الإسناد على أنه تعالى سيحدث في أنفس المشركين في هذا القتال ألمًا نفسيا لعل أظهر أسبابه اليأس وسلب البأس، ولذلك قال: {ويخزهم} بذلّ الأسر والقهر والفقر لمن لم يقتل منهم {وينصركم عليهم} أكمل النصر وأتمه بحيث لا يعود لهم بعد هذه المرة قوة ولا سلطان يعودون به إلى قتالكم كما كان شأنهم بعد نصركم.[2]

بل إن من أعظم مقاصد الجهاد في سبيل الله هي الدفاع عن المستضعفين ورفع الظلم والاضطهاد الذي يقع عليهم. {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها} [النساء: ٧٥] قال: وما لكم لا تفعلون؟ تقاتلون لهؤلاء الضعفاء المساكين الذين يدْعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها، فهم ليس لهم قوة، فما لكم لا تقاتلون حتى يسَلّم الله هؤلاء ودينهم؟ قال: و{القرية الظالم أهلها}: مكة.[3]

---

١ - التحرير والتنوير: ١٣٥/١٠.

٢ - تفسير المنار: ١٧٧/١٠.

٣ - جامع البيان ٥٤٦/٨.

إنما ذكر الله الوِلدان مبالغة في شرح ظلمهم حيث بلغ أذاهم الوِلدان غير المكلفين إرغاما لآبائهم وأمهاتهم، ومبغضة لهم بمكانهم.[1] . وبالتالي يتبين من خلال الاستقراء العام لنصوص القرآن والسنة أن الجهاد فرض لمقاصد عديدة وعلى رأس هذه المقاصد هي رد العدوان الذي سيقع على المستضعفين ، من أجل أن يحفظ للأمة هيبتها وكرامتها وبالتالي تكون قادرة على نصرة البشر وتأمين حرياتهم وكرامتهم .

المطلب الرابع

إعداد العدة

أمرنا الله عز وجل بالإعداد والأخذ بأسباب القوة في جميع مجالاتها كقوة العقيدة والقوة العسكرية والقوة الاقتصادية والقوة السياسية والإعلامية وغيرها. قال الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠].

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يجعلوا الاستعداد للحرب التي علموا أن لا مندوحة عنها لدفع العدوان والشر، ولحفظ الأنفس ورعاية الحق والعدل والفضيلة بأمرين: أحدهما: إعداد جميع أسباب القوة لها بقدر الاستطاعة. وثانيهما: مرابطة فرسانهم في ثغور بلادهم وحدودها، وهي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمتهم للبلاد. والمراد أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فاجأها العدو على غرة، قاومه الفرسان، لسرعة حركتهم، وقدرتهم على الجمع بين القتال، وإيصال أخباره من ثغور البلاد إلى عاصمتها وسائر أرجائها، ولذلك عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها. وهذان الأمران هما اللذان تعول عليهما جميع الدول الحربية إلى هذا العهد التي ارتقت فيه الفنون العسكرية وعتاد الحرب إلى درجة لم يسبق لها نظير، بل لم تكن تدركها العقول ولا تتخيلها الأفكار.

---

١ - مفاتيح الغيب: ١٤١/١٠.

ومن المعلوم بالبداهة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الرباني به باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه، وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر أنه سمع النبي – ﷺ – وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول: "ألا إن القوة الرمي"[1] قالها ثلاثًا، وهذا كما قال بعض المفسرين من قبيل حديث "الحج عرفة"[2] بمعنى أن كلًا منهما أعظم الأركان في بابه، وذلك أن رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة، وإطلاق الرمي في الحديث يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة منجنيق أو طيارة أو بندقية أو مدفع وغير ذلك، وإن لم يكن كل هذا معروفًا في عصره – ﷺ – فإن اللفظ يشمله والمراد منه يقتضيه، ولو كان قيده بالسهام المعروفة في ذلك العصر فكيف وهو لم يقيده؟، وما يدرينا لعل الله تعالى أجراه على لسان رسوله مطلقًا، ليدل على العموم لأمته في كل عصر بحسب ما يرمى به فيه – وهناك أحاديث أخرى في الحث على الرمي بالسهام؛ لأنه كرمي الرصاص في هذه الأيام، على أن لفظ الآية أدل على العموم؛ لأنه أمر بالمستطاع موجه إلى الأمة في كل زمان ومكان كسائر خطابات التشريع حتى ما كان منها واردًا في سبب معين. ومن قواعد الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها والبنادق والدبابات والطيارات والمناطيد وإنشاء السفن الحربية بأنواعها، ومنها الغواصات التي تغوص في البحر، ويجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها.[3]

لأن الجيش المقاتل درع البلاد وسياج الوطن، به يدفع العدوان، وتدحر قوى البغي والشر والتسلط، ولا يعقل أن نواجه الأعداء إلا بنفس المستوى الحربي والسلاح المتطور الذي تعتمد عليه الجيوش المحاربة، وبالقوى المماثلة المناظرة عند الآخرين، لذا وردت كلمة قوة نكرة في قوله تعالى: {ما استطعتم من قوة} وهي تشمل مختلف أنواع القوى البرية والبحرية والجوية، من

---

١ . صحيح مسلم:٣/١٥٢٢.

٢ . أخرجه الترمذي: ٣/٢٢٨، والنسائي: ٤/١٥٩، وابن ماجه: ٢/١٠٠٣، هذا الحديث المعروف صح عند أهل الحديث بهذا الاسناد. روى شعبة وسفيان الثوري بهذا الاسناد عن بكير بن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الحج عرفة ".

٣ – تفسير المنار١٠/٥٣.

حيوان وسلاح وألبسة وآلات ونفقات وتقنيات متطورة، ولما كانت الخيول في الماضي هي أصل الحروب وأقوى القوى وحصون الفرسان، خصها الله بالذكر تشريفًا لها، وإذا تغيرت الوسائل الحربية، تغير الواجب لإرهاب عدو الله وعدو المؤمنين الظاهر والعدو الخفي الذي نعلمه أو لا نعلمه وإنما يعلمه الله، فالإرهاب سبب الإعداد، وطريق تحصين البلاد وتوفير الأمن والسلامة.[1]

يقول سيد قطب رحمه الله: (إنه يجب على المعسكر الإسلامي إعداد العدة دائمًا واستكمال القوة بأقصى الحدود الممكنة؛ لتكون القوة المهتدية هي القوة العليا في الأرض؛ التي ترهبها جميع القوى المبطلة؛ والتي تتسامع بها هذه القوى في أرجاء الأرض، فتهاب أولًا أن تهاجم دار الإسلام؛ وتستسلم كذلك لسلطان الله فلا تمنع داعية إلى الإسلام في أرضها من الدعوة، ولا تصد أحدًا من أهلها عن الاستجابة، ولا تدعي حق الحاكمية وتعبيد الناس، حتى يكون الدين كله لله).[2]

والإنسان هو العنصر الحاسم والمحرك الأول لكل نواحي القتال. (إن من أهم ما يقرره العلم العسكري في العصر الحديث، أن الإنسان هو العنصر الحاسم في بناء الكفاءة القتالية للقوات العسكرية، وفي قدرتها على أداء مهامها في السلم والحرب. ويعبر عن هذا المعنى قول مشهور يعرفه العسكريون، يقولون فيه: «ليست العبرة بالمدفع، ولكن بالرجال الذين وراء هذا المدفع»).[3]

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [الحديد: ٢٥]. ولما كان الناس فريقين فريقًا يقوده العلم والحكمة، وفريقًا يقوده السيف والعصا، ولما كان ما يزع السلطانُ أكثر مما يزع القرآن، وكان العدل والقانون لا بد له من حام يحميه وهو الدولة والملك وأعوانه والجند، وهؤلاء لا بد لهم من عدة يحمون بها القانون والعدل في داخل البلاد وفي خارجها أعقب هذا بقوله: {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس} أي: وخلقنا الحديد

---

١ - التفسير الوسيط: الزحيلي ٨١٧/١.

٢ - في ظلال القرآن ١٥٣٨/٣.

٣ - العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية: مُحَمَّد جمال الدين محفوظ ص٢٩.

لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحرية وما أشبه ذلك، وفيها القوة التي ترغم أنف الظالم، وتحمى المظلوم، وفيه منافع للناس في حاجاتهم في معايشهم كأدوات الصناعات، وحاجات البيوت، وقطر السكك الحديدية ونحوها.[1]

{وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب} أي: وإنما فعل ذلك ليراكم ناصري دينه باستعمال السلاح والكراع لمجاهدة أعدائه، وناصري رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم.

روى أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم".[2]

{إن الله قوي عزيز} أي إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته، وهو غالب على أمره، لا يقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه.[3].

المطلب الخامس

الوحدة الإسلامية والاجتماع وعدم التفرق

نصوص الوحيين في الحث على جمع الكلمة، وائتلاف القلوب، وتوحيد الصفوف، وتحريم الفرقة والعداوة والبغضاء والشحناء كثيرة جدًا ومنها:

- قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران: ١٠٣].

---

١ – تفسير المراغي: ١٨٣/٢٧.

٢ – مسند الإمام أحمد: ، إسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه. وفيه ابن ثوبان – وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان – اختلفت فيه أقوال المجرحين والمعدلين، فمنهم من=قوى أمره، ومنهم من ضعفه، وقد تغير بأخرة، وخلاصة القول فيه أنه حسن الحديث إذا لم يتفرد بما ينكر، فقد أشار الإمام أحمد إلى أن له أحاديث منكرة، وهذا منها.١٢٣/٩.

٣ – تفسير المراغي ١٨٢/٢٧–١٨٣.

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداومًا لتقوى ربه وطاعته، منيبًا إليه على الدوام، ثبته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة. وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود هو «أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر».

وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه. ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام.

ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: {واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء} يقتل بعضكم بعضًا، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضًا، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ، فلما بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالاة بعضهم لبعض.

ولهذا قال: {فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار} أي: قد استحقيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها {فأنقذكم منها} بما من عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ {كذلك يبين الله لكم آياته}أي: يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال {لعلكم تهتدون} بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرًا له ومحبة،

وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.[1]

وقال ابن عباس -رضي الله عنه- لسماك الحنفي[2]: يا حنفي الجماعة الجماعة. فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها. أما سمعت الله عز وجل يقول: {واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا}؟. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، ويكره لكم ثلاثًا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال".[3]

فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملًا وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين.[4] بل قد ورد في تفسير «حبل الله» بأنه الجماعة.[5]

---

١ - تفسير السعدي: ١/١٤١.

٢ . سماك بن الوليد أبو زميل الحنفي روى عن ابن عباس وابن عمر ومالك بن مرثد روى عنه شعبة ومسعر وعكرمة بن عمار وعبد ربه ابن بارق الحنفي وابنه الزميل بن سماك، قال أحمد بن حنبل: سماك الحنفي ثقة، سئل أبو زرعة عن سماك أبي زميل الحنفي فقال: ثقة كوفي اصله من اليمامة. الجرح والتعديل، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط:١، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢ م،٤/٢٨٠.

٣ - الأدب المفرد بالتعليقات: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، ت: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط: ١، ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨ م، ١/٢٢٦. وصحيح مسلم: ٣/١٣٤٠.

٤ - الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٤/١٦٤.

٥ - انظر تفسير الدر المنثور: السيوطي، بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٣، ص ٢/٢٨٥، والجامع لأحكام القرآن: ٤/١٥٩.

وقد بين الله أن هذه الرابطة الأخوية بين المؤمنين لا تزول ولو في حال الاقتتال، قال ابن تيمية رحمه الله: (فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتالهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل).[١]

– ومنها قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]، أمر الله عباده أن لا يتنازعوا فيما بينهم فيختلفوا، فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم، قال تعالى: فتفشلوا معناه: ولا تختلفوا فتضعفوا {وتذهب ريحكم} معناه: جدكم وجهدكم.[٢] أو قوتكم ووحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال[٣]، وجاء في تفسير الجلالين: (قوتكم ودولتكم)[٤]، أي أن النزاع إنما ينتج عنه تبديد القوة.[٥]

وإنما منع الله اختلافًا هو سبب الفساد قال القرطبي رحمه الله: (ومما جاء في لزوم الجماعة حديث عمر – رضي الله عنه – وفيه قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: "عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، من سرته حسنته، وساءته سيئته: فذلكم المؤمن"[٦]).

ولقد جربت البشرية في حقبة من الزمن هذه التربية الربانية، فأخرجت للوجود بها أمة موحدة متآلفة، لا مكان فيها للفرقة والاختلاف. فقد كانت أمة العرب قبل الإسلام مضرب المثل في التناحر والتنافر، حتى من الله عليها بهذا الإسلام، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، حامل راية هذا الدين، فصاح بهم صيحة التوحيد، فوثب المختلفون الممزقون المتناثرون

---

١ – مجموع الفتاوى: ٣/٢٨٤.

٢ – تفسير السمعاني ٢/٢٧٠.

٣ – مختصر تفسير ابن كثير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان، ط: ٧، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨١ م، ٢/١١١.

٤ – تفسير الجلالين ١/٢٣٤.

٥ –تفسير الشعراوي ٢/٦٨٨.

٦ – الترمذي: (٤/٤٦٥)، مسند الإمام أحمد:، ٣٨ /٢٢١، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب.

الساجدون للات والعزى ومناة، وغسلوا جباههم، وطهروها من دنس الشرك، ونظفوها من رجس الخضوع لغير الله عز وجل، وسجدوا لله الواحد القهار، وساروا جميعا على درب واحد، يعبدون إلهًا واحدا، هو رب الأرباب، وينقادون لقائد واحد، هو المصطفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوا غيرهم إلى المسيرة، من عباد النار، وعباد الهوى من فرس وروم وغيرهم، فانضموا إلى ركبهم، فأصبحوا جميعا بنعمة الله إخوانًا، فتجمع في المجتمع الإسلامي العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والهندي والصيني والروماني والأندونيسي والافريقي وغيرهم على قدم المساواة وبقلوب موحدة الهدف، موحدة الاتجاه.[١]

المطلب السادس

الأخذ بالأسباب واستثمار الطاقات

الأخذ بالأسباب جزء من الدين، وعدم الأخذ بها معصية كبيرة، ويمكن أن يعزى تخلف المسلمين وانتهاك حرماتهم واحتلال أراضيهم، وقتل أبناءهم، ونهب ثرواتهم، إلى أن أعداءهم أخذوا بالأسباب وهم غفلوا عنها، وتواكلوا على الله. فلذلك من لوازم العبودية لله أن تأخذ بالأسباب.

يقول الشيخ وهبة الزحيلي رحمه الله: (وإنما الضعف أو التخلف ناجم من كسل الناس وتراخيهم وجهلهم، فالإنسان مستخلف عن الله في الأرض، وهو أمين على ما فيها من خيرات وكنوز ومنافع، ومسؤول عن القيام بواجبه في تقدم الحياة وإصلاح العمران، والسبق في الحياة بمختلف أنماطها الزراعية والصناعية والاقتصادية والعلمية والثقافية والاجتماعية).[٢]

يقول الشعراوي في تفسيره: (وما عليك إلا أن تستنفد وسائلك وأسبابك، ثم تدع المجال لأسباب السماء).[٣] وهذه الأسباب إما أن تكون مادية أو معنوية.

---

١ – عناصر القوة في الإسلام: سيد سابق، ط١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م – ١٩٢مصر

٢ – التفسير المنير للزحيلي ١٨٩/٨.

٣ – تفسير الشعراوي: ٦٠٥٠/١.

ومن أهم الأسباب المادية هو المال (وتنبع أهمية المال من أجْل كونه أجلّ وأعظم نعم الله تعالى على الإنسان، فقد سخره لنا عزوجل وأمدنا به ليكون وسيلة أداء الرسالة التي خلقنا من أجلها وهي عبادته تعالى لتحقيق خلافته على الأرض، فقد خلق الله تعالى الإنسان واستخلفه في الأرض وسخر له ما في السماوات والأرض وألهمه وعلمه القوانين التي تعينه على ذلك).[1]

من الأصول القطعية مباشرة الأسباب، وعلى هذا فإن تركها قدح في الشرع، وهذا مما يدحض ادعاءات الجهال والمغرضين، وإن صاحب الإيمان بالقدر ينازع القدر بالقدر، بمعنى أن لا يستسلم للقدر مادام له دافع أو رافع أو مانع فيأخذ من الأسباب ما يحقق ذلك.[2]

- ومنها قوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ} [الحديد: ٢٥].

والمراد بالبأس الشديد: القوة الشديدة التي تؤدى إلى القتل وإلحاق الضرر بمن توجه إليه، أى: لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم ما يرشد الناس إلى صلاحهم.

وأوجدنا الحديد، وأنعمنا به عليكم، ليكون قوة شديدة لكم في الدفاع عن أنفسكم، وفي تأديب أعدائكم، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم في مصالحكم وفي شئون حياتكم.

فمن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب.. ومنه - ومعه غيره - تتكون القصور الفارهة، والمبانى العالية الواسعة، والمصانع النافعة.. وآلات الزراعة والتجارة.

فالآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى سنة من سنن الله - تعالى - قد أرسل الرسل وزودهم بالهدايات السماوية التي تهدى الناس إلى ما يسعدهم.. وزودهم أيضا بالقوة المادية التي تحمي الحق الذي جاءوا به وترد كيد الكائدين له في نحورهم، وترهب كل من يحاول الاعتداء

١ - كيف تحل مشكلتك الاقتصادية: خالد حامد العرفي: ص٦.

٢ - سنة الله في الأخذ بالأسباب: الصلابي، دار الروضة، ٨٣.

عليه، كما قال تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون به عدو الله وعدوكم}.

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: ما ملخصه: (أي: وجعلنا الحديد رادعًا لمن أبى الحق، وعانده بعد قيام الحجة عليه، ولهذا أقام الرسول ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، تنزل عليه السور المكية، لبيان أن دين الله حق. فلما قامت الحجة على من خالفه، شرع الله القتال بعد الهجرة، حماية للحق، وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم".[١]

ولهذا قال تعالى: {وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد} يعني السلاح كالسيف والحراب. ومنافع للناس أي: في معايشهم كالفأس والقدوم وغير ذلك).

هذا، ومن المفسرين الذين فصّلوا القول في منافع الحديد، وفي بيان لماذا خصه الله – تعالى – بالذكر: الإمام الفخر الرازي فقد قال – رحمه الله – ما ملخصه: ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة، جعله الله سهل الوجدان، كثير الوجود. والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة، جعله الله – تعالى – عزيز الوجود. وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده، فإن كل شيء كانت حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر.[٢]

يقول الشيخ زغلول النجار: (ولولا هذا المعدن فربما لا تستقيم الحياة على الأرض، ولا تنعم بالأمن، فحياة كل كائن حي متوقفة على الحديد، سواءً كان إنسانًا أو حيوانًا أو نباتًا،

---

١ – تقدم تخريجه.

٢ – التفسير الوسيط: الطنطاوي ١٤/٢٢٩.

وهو أكثر المعادن ثباتًا وقوةً ومرونة وتحملًا للضغط، كما يعد أكثر العناصر مغناطيسية على الأرض وذلك لحفظ جاذبيتها).[1]

- ومنها قوله تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} [الأعراف: ١٠]. يقول تعالى ممتنًا على عباده بذكر المسكن والمعيشة: {ولقد مكناكم في الأرض} أي: هيأناها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها {وجعلنا لكم فيها معايش} مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها، وسخر أسبابها.[2]

لذلك خلق الله الأرض ووضع فيها أقواتها التي بها حياة البشرية وكلف الإنسان أن يستثمرها وينتفع بتا وجعلها موزعة بين البلدان قال تعالى: {وقدر أقواتها} خص بعض البلاد بشيء لا يوجد في غيرها لتنظيم عمارة الأرض كلها باحتياج بعضهم إلى بعض، فكان جميع ما تقدم من إيداعها وإيداعها ما ذكر من متاعها، دفعة واحدة لا ينقص عن حاجة المحتاجين أصلًا، وإنما ينقص توصلهم أو توصل بعضهم إليه فلا يجد له حينئذ ما يكفيه، وفي الأرض أضعاف كفايته.[3]

واستثمار الطاقات لا يقصد به فقط استثمار الطاقات التي أودعها الله وسخرها لخدمة الإنسان بل استثمار الإنسان ذاته لما أودع الله به من الطاقات فلا معنى لما سخر لهذا الإنسان إن لم يدرك الإنسان المهمة التي خلق لأجلها، قال الله تعالى: {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [هود: ٦١]. قال ابن كثير: (عمارا تعمرونها وتستغلونها).[4]

ومن أجل هذا سخر الله لهذا الإنسان كل ما في الكون فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...} [لقمان:

---

١ – تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم: زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٣٩–١٤٣.

٢ – تفسير السعدي: ٢٨٤/١.

٣ – نظم الدرر: ١٥٠/١٧.

٤ – تفسير ابن كثير: ٣٣١/٤.

٢٠] قال البيضاوي في تفسيره: ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات بأن جعله أسبابًا محصلة لمنافعكم. وما في الأرض بأن مكنكم من الانتفاع به بوسط أو غير وسط وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه.[١]

وهذا يستدعي الكشف عن الثروات التي هيأها الله لهذا الإنسان والاستفادة من كل ما في الكون استفادة منتجة لأن ذلك أمر يوجبه الإسلام، يقول سيد قطب رحمه الله: (وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة الأمم، وتكون لها القيادة، والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض).[٢]

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، وهذا يلفتنا إلى أن عطاء الله سبحانه وتعالى عطاء إمكانات، وعطاء ذاتي في النفس، فعطاء الإمكانات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتي في النفس هو القوة الذاتية داخلك، التي تعطيك طاقة العمل وكثيرٌ منا لا يلتفت إلى عطاء النفس لا يلتفت إلى أن فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالًا كثيرة وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمل بإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر وأن يعمل أعمالاً كثيرة.[٣]

إن ذا القرنين لم يستعن بجيشه ولا بأناس آخرين، وإنما استعان بهؤلاء الضعفاء وطلب منهم أن يأتوه بالحديد، ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس، ليكون السد في غاية المتانة والقوة.[٤]

فإنه قام بمهمة الحاكم الممكَّن له في الأرض فقوى المستضعين وجعلهم قادرين على حماية أنفسهم من العدوان، فلا يعتمدون على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين،

---

١ – تفسير البيضاوي: ٢١٥/٤.

٢ – تفسير الظلال: ٤٤٧/١.

٣ – القصص القرآني في سورة الكهف: محمَّد متولي الشعراوي، أخبار اليوم – القاهرة، ١٩٩٠م، ٩٣.

٤ – سنة الله في الأخذ بالأسباب: الصلابي ٢٩.

بل نقلهم إلى ساحة العاملين، فعندما تحرك القوم المستضعفون نحو العمل بقيادة ذي القرنين، وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة.[١]

إن الشروط التي تعتبر في اختيار الرجل في الملك هي في رد النبي على اعتراض قومه على ملك طالوت: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٤٧] ويؤخذ من هذا الرد شروط أربعة:

١- الاستعداد الفطري للشخص.

٢- السعة في العلم الذي يكون به التدبير.

٣- بسطة الجسم المعبر بها عن صحته.

٤- توفيق الله تعالى الأسباب له {والله يؤتي ملكه من يشاء}.[٢]

ولذلك فإن الأمة تقع في الإثم إن عطلت ما سخر لها من الطاقات (ولذلك قال علماؤنا: إن جميع الفنون والصناعات التي يحتاج إليها الناس في معايشهم من الفروض الدينية، إذا أهملت الأمة شيئًا منها فلم يقم به من أفرادها من يكفيها أمر الحاجة إليه، كانت كلها عاصية لله تعالى مخالفة لدينه، إلا من كان عاجزًا عن دفع ضرر الحاجة وعن الأمر به للقادر عليه، فأولئك هم المعذورون بالتقصير؛ على هذا قام صرح مجد الإسلام عدة قرون).[٣]

- وقول الله تعالى على لسان ابنة شعيب {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ} [القصص: ٢٦]. كلام حكيم جامع لا يزاد عليه، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك.[٤] ويفاد من هذا توظيف القدرات الإنسانية في عمل الخير.

---

١ - تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم: د. مُحَمَّد علي الصلابي، مكتبة الصحابة –الإمارات–الشارقة، ط: ١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، ١٧٧.

٢ - مع قصص السابقين في القرآن: د. صلاح عبد الفتاح خالدي، دار القلم – دمشق، ١٤٢٨- ٢٠٠٧، ١٣٨.

٣ - تفسير المنار: ٢/٢٥٥.

٤ - تفسير الكشاف: الزمخشري ٣/٤٠٣.

المطلب السابع

المرجعية

إن القيادة لابد منها حتى تترتب الحياة، ويوسد الأمر إلى أهله، ويقام العدل، ويحال دون أن يأكل القوي الضعيف، وتنظم طاقات العاملين وجهودهم؛ لتنصب في إطار خطط المنظمة بما يحقق الأهداف المستقبلية لها، ويضمن نجاحها.[1]

ولذلك يؤخذ من قوله تعالى: {ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٤٦] ضرورة وجود القائد الفذ والذي توفرت فيه صفات القيادة الذي يقود الأمة إلى الريادة والتمكين. وبالتالي (ففيه أن البعوث والسرايا لابد لهم من أمير يولى عليهم يرجعون إليه ويقتدون به).[2]

وذلك لأن القيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة. وبالتالي إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها، وبالنظر إلى الامة الإسلامية فإن أمتنا الإسلامية ملأى بالمواهب الضائعة، والطاقات المعطلة، والأموال المهدورة والأوقات المتبددة، والشباب الحيارى، وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف{فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ} [الكهف: ٩٥].[3]

---

١ – ثلاثون وصية ووصية لتكون قائدا ناجحا: أمير بن مُحَمَّد المدري: ٣.

٢ – الإكليل في استنباط التنزيل: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ت: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م، ٦٠/١.

٣ – ينظر مع قصص السابقين: الخالدي، دار القلم (٥٣٦/٢ -٥٣٧) وسنة الله في الأخذ بالأسباب للصلابي: دار الروضة ص٢٧.

وبالتالي فالحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي إن يسخر لتنفيذ شرع الله في الأرض، وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين، ومنع الفساد والظلم، وحماية الضعفاء من بطش المفسدين (وإن من أهم أسباب التمكين أن يتولى أمور الدعوة، وقيادة المسلمين، قيادة ربانية، قد جرى الإيمان في قلبها وعروقها، وانعكست ثماره على جوارحها، وتفجرت صفات التقوى في أعمالها وسكناتها وأحوالها).[1]

ولذلك جاء التوجيه الرباني بضرورة المرجعية فقال تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء: ٨٣].

قيل: إن هذه الآية في المنافقين، وهم الذين كانوا يذيعون بمسائل الأمن والخوف ونحوها مما ينبغي أن يترك لأهله، وقيل: هم ضعفاء المؤمنين، أقول: ويجوز أن يكون الكلام في جمهور المسلمين من غير تعيين لعموم العبرة، ومن خبر أحوال الناس يعلم أن الإذاعة بمثل أحوال الأمن والخوف لا تكون من دأب المنافقين خاصة، بل هي مما يلغط به أكثر الناس، وإنما تختلف النيات، فالمنافق قد يذيع ما يذيعه لأجل الضرر، وضعيف الإيمان قد يذيع ما يرى فيه الشبهة، استشفاء مما في صدره من الحكة، وأما غيرهما من عامة الناس فكثيرًا ما يولعون بهذه الأمور لمحض الرغبة في ابتلاء أخبارها، وكشف أسرارها، أو لما عساه ينالهم منها. فخوض العامة في السياسة وأمور الحرب والسلم، والأمن والخوف، أمر معتاد وهو ضار جدًا إذا شغلوا به عن عملهم، ويكون ضرره أشد إذا وقفوا على أسرار ذلك وأذاعوا به، وهم لا يستطيعون كتمان ما يعلمون، ولا يعرفون كنه ضرر ما يقولون، وأضره علم جواسيس العدو بأسرار أمتهم، وما يكون وراء ذلك، ومثل أمر الخوف والأمن وسائر الأمور السياسية والشئون العامة، التي تختص بالخاصة دون العامة.[2]

١ – تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين: الصلابي: ٢٥٤.

٢ – تفسير المنار٥/٥٤٢-٥٤٣.

وبالتالي فإن من أخطر عوائق التمكين للأمة الإسلامية اليوم غياب القيادة الربانية؛ فالقيادة هي عصب حياة الأمة؛ لهذا نجد أعداء الأمة يحرصون كل الحرص على إقصاء القيادات المخلصة عن سدة الحكم، حيث أوصوا بالعمل على إفساد نظام الحكم في البلاد الإسلامية؛ حتى لا يصل إلى القيادة حاكم صالح. [١]

ولذا لابد من إعداد القيادة الراشدة كما يقول الشيخ فتحي يكن:(التي تعمل للإسلام وتتمثله عقيدة وأخلاقًا لإيجاد المجتمع الذي يلتزمه فكرا وسلوكًا، لإيجاد الدولة الذي تطبقه شريعة ومنهجًا ودستورًا، وتحمله دعوة هادية لإقامة الحق والعدل في العالمين، قيادة تؤمن بالإسلام قوة أساسية لنهضة المسلمين وإنقاذ العالمين، وتحرير المستضعفين من الطواغيت من الظالمين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله). [٢]

المطلب الثامن

العلم

القرآن الكريم مستفيض بالآيات التي تحض على العلم وترغب فيه، وتثني على العلماء الذين يسبرون أغوار الكون بالبحث والدراسة وتجعل لهم الأفضلية على غيرهم، وتبين أهمية العلم في تغيير النفس البشرية وتحسينها وكذلك تغيير الحياة لما هو أفضل.

ولأهمية العلم فضل الله أبا البشرية على الملائكة، وجعل أول آيات تتنزل في القرآن الكريم تأمر بالقراءة والعلم والبحث وتبين وسائل هذا العلم.

قال الله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: ١–٥]. فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله

١– انظر: قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله: لجلال العالم: ١٣٩٥هـ، ٦٣.

٢ – ماذا يعني انتمائي للإسلام، فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ٤، ٢٠٠٠م، ص ٨٣ – ٩٦.

بها عليهم وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة.[1]

لقد جاء الأمر بالقراءة مرتبطاً بمراحل خلق الإنسان، حيث يقول تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: ٢]. وقد أفاد ذلك في الحث على معرفة الأسرار الخفية في خلق ذلك الإنسان.

بل إن هذا العلم هو سبب سعادة الإنسان ورقيه وتميزه ومن خلاله يتدارك آفات نفسه وتقصيرها يقول ابن القيم رحمه الله: (وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية الإدارية. واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ومعرفة الطريق التي توصل إليه، ومعرفة آفاتها، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها. فبهذه المعارف الخمسة يحصل كمال قوته العلمية. وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها).[2]

ولهذا أمر الله النبي مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام أن يطلب من ربه المزيد من العلم، قال تعالى مخاطبًا نبيه عليه الصلاة والسلام: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]. فما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم.[3]

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان رحمه الله: (ويبد ولي أن العلم المطلوب الاستزادة منه، منه ما يكون طلبه وتحصيله والاستزادة منه فرض عين وهو العلم الشرعي بأنواعه، ومنه ما يكون طلبه وتحصيله والاستزادة منه فرض كفاية يجب وجوده في الأمة، وهو كل ما تحتاج إليه الأمة الإسلامية ويعطيها قوة ومكنة على استعمال هذا العلم فيما ينفع المسلمين والناس عمومًا، ومن هذه العلوم النافعة جميع العلوم الحديثة في مختلف مجالات الحياة وشؤونها، والتي تستفيد الأمة منها قوة كالعلوم المتعلقة بالصناعات المختلفة ومنها صناعة الأسلحة بأنواعها، ومنها العلوم

---

١ - تفسير القرآن العظيم: ٤٣٧/٨.

٢- الفوائد لابن القيم الجوزية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م، ص ١٨/١-١٩.

٣ - تفسير الكشاف: ٩٠/٣.

المتعلقة بالطب والكيمياء والفيزياء والفلك والزراعة والكشف عن سنن الله في خلقه، وهذا فضلًا عما في تحصيل هذه العلوم من قوة للأمة الإسلامية، فيتهيأ لها إن شاء الله تعالى القوة المعنوية بالإيمان، والقوة المادية بهذه العلوم التي تتعلمها).[1]

والمرجع الأول والأفضل من أجل ارتقاء البشر في كافة المجالات هو الكتاب الذي أنزله رب البشرية على البشرية من أجل إسعادها ورقيها. وقد طبقت تعاليمه الجماعة المسلمة لردح من الزمن فحققت إنجازات متنوعة على كافة المستويات. (لقد استمد المسلمون الأوائل المنهج العلمي من خلال دعوة القرآن الكريم إلى التفكير والنظر القائم على البرهان والدليل من أجل الوصول إلى المعرفة النظرية والتجريبية ليتجنبوا الوقوع في الخطأ والزلل، ولقد بنى المسلمون حياتهم الفكرية والعلمية وفق الأسس التي رسمها القرآن الكريم وشكلت توجيهاته المنهجية العلمية التي كانت السبب الذي مكن المسلمين من تحقيق نهضة علمية عظيمة في جميع فروع المعرفة).[2] ولذلك فيأتي العلم في المرتبة الأولى وذلك قبل القتال وغيره.

إنه من المعلوم أن القتال إنما شرع للضرورة، ولو أن الناس آمنوا بالبرهان والآيات لما احتيج إلى القتال، فبيان آيات الإسلام وبراهينه واجب مطلقًا وجوبًا أصليًا. وأما الجهاد: فمشروع للضرورة، فإن قيل: الإسلام قد ظهرت أعلامه وآياته فلم يبق حاجة إلى إظهار آياته، وإنما يحتاج إلى السيف. قيل: معلوم أن الله وعد بإظهاره على الدين كله ظهور علم وبيان وظهور سيف وسنان، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣].

وقد فسر العلماء ظهوره بهذا وهذا، ولفظ الظهور يتناولهما، فإن ظهور الهدى بالعلم والبيان، وظهور الدين باليد والعمل، والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله.

---

١ - المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط١، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، ص٢٦٧، ٢٦٨.

٢ - من روائع حضارتنا: لمصطفي السباعي ٦٥.

ومعلوم أن ظهور الإسلام بالعلم والبيان قبل ظهوره باليد والقتال، فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– مكث بمكة ثلاث عشرة سنة يظهر الإسلام بالعلم والبيان والآيات والبراهين، فآمنت به المهاجرون والأنصار طوعًا واختيارًا بغير سيف لما بان لهم من الآيات البينات والبراهين والمعجزات، ثم أظهره بالسيف، فإذا وجب علينا جهاد الكفار بالسيف ابتداء ودفعًا، فلأن يجب علينا بيان الإسلام وإعلامه ابتداء ودفعًا لمن يطعن فيه بطريق الأولى والأحرى.

فإن وجوب هذا قبل وجوب ذاك ومنفعته قبل منفعته، ومعلوم أنه يحتاج كل وقت إلى السيف، فكذلك هو محتاج إلى العلم والبيان، وإظهاره بالعلم والبيان من جنس إظهاره بالسيف وهو ظهور مجمل علا به على كل دين، مع أن كثيرًا من الكفار لم يقهره سيفه فكذلك كثير من الناس لم يظهر لهم آياته وبراهينه، بل قد يقدحون فيه ويقيمون الحجج على بطلانه، لا سيما والمقهور بالسيف فيهم منافقون كثيرون، فهؤلاء جهادهم بالعلم والبيان دون السيف والسنان.[١] وبالتالي فالدعوة إلى الله ورسوله هي جهاد بالقلب وباللسان وقد يكون أفضل من الجهاد باليد.[٢]

ولأهمية العلم في حياة البشرية وارتقاءها شرف حامليه على غيرهم، نقل أهل التفسير: (والعلماء سلاطين بسبب كمالهم في القوّة العلمية، والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة إلا أن سلطنة العلماء أكمل وأقوى من سلطنة الملوك؛ لأنّ سلطنة العلماء لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك تقبلهما ولأنّ سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلماء؛ لأنّ سلطنة العلماء من جنس سلطنة الأنبياء وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة).[٣]

---

١ – الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ت: علي بن حسن – عبد العزيز بن إبراهيم – حمدان بن مُحَمَّد، دار العاصمة، السعودية

الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ– / ١٩٩٩م، ١/٢٣٩– ٢٤١/

٢ – أحكام أهل الذمة: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: يوسف بن أحمد البكري – شاكر بن توفيق العاروري، رمادى للنشر — الدمام، ط: ١، ١٤١٨ هـ— ١٩٩٧م، ٣/ ١٢٥٤.

٣ – ينظر السراج المنير ٦٢/٢، اللباب في علوم الكتاب ٥٥٧/١٠، مفاتيح الغيب: ٣٤/١٨.

المطلب التاسع

الالتزام بطاعة الله ورسوله

وردت الآيات الكثيرة في القرآن الكريمة التي تحث الناس جميعهم، مؤمنهم و كافرهم، ذكرهم وأنثاهم، على طاعة الله ورسوله، وذلك لأن تنفيذ أوامر الله فيها النفع والهداية والرشد ونزول الرحمات وإصابة الحق، وكذلك النصر على الأعداء والخير الكثير، ومن هذه الآيات: {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [النور:٥٤]، وقوله تعالى:{ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا}[الفتح:١٦]، { وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[النور:٥٦].

وإذا كانت الطاعة هذه هي باب الخير والنفع والتوفيق، فإن هذه الطاعة تحتاج إلى جد وقوة وعزيمة ومجاهدة، قال الله تعالى في شأن رسالة موسى {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥]. فقد بينت الآية أن ما كتب في الألواح هو كل شيء أمروا به أو نهوا عنه وأن هذه الأوامر والنواهي والتي تندرج تحت مفهوم الطاعة تحتاج إلى جد وعزم واجتهاد.[1]

والقوة التي توجب المدح العظيم ليست إلا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه المذكور ههنا كالقوة المذكورة في قوله: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} [مريم: ١٢] وقوله تعالى: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥] أي باجتهاد في أداء الأمانة وتشدد في القيام بالدعوة وترك إظهار الوهن والضعف.[2]

ولذلك جاء من معاني الاهتداء إلى الصراط المستقيم في قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦] فإن الصراط المستقيم أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك

---

١ – فتح القدير للشوكاني: ٣٥٧/٢.

٢ – مفاتيح الغيب للرازي ٣٧٩٥/١.

الوقت من علم وعمل ولا يفعل ما نهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم.[١]

قال عبد الله بن عباس ﷺ: "إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر والقلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق".[٢]

(احتج الفقهاء بقوله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣] الأمر للوجوب وعلى وجوب طاعة الرسول –صلى الله عليه وسلم– لأن الله –تبارك وتعالى– قد حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقوله: {أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} فتحرم مخالفته، فيجب امتثال أمره. ومخالفة أمره توجب أحد أمرين: العقوبة في الدنيا كالقتل والزلازل والأهوال وتسلط السلطان الجائر، والطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول ﷺ. والعذاب الشديد المؤلم في الآخرة).[٣]

فيتبين أن طاعة الله ورسوله سبب لكل خير ينزل بالبشرية، وأن عدم الإقبال على منهج الله الذي أنزله على رسله سبب لكل شقاء وضعف وهوان يعصف بالبشرية.

---

١ – مجموع الفتاوى: ١٤/٣٧–٣٨.

٢ – الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ١/٥٤.

٣ – التفسير المنير: الزحيلي، ١٨/٣١٨.

المطلب العاشر

الشورى

يقول ابن العربي رحمه الله: (هي الاجتماع على الأمر، ليستشير كل واحد منهم صاحبه، ويستخرج ما عنده).[1] وقال الراغب الأصفهاني رحمه الله: (الشورى هي استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض).[2]

والشورى في الأمة مبدأ أصيل، وصفة لازمة بدونها تفقد الأمة صلاحها، ذلك لأنها الطريق السليم الذي يتوصل به إلى إجراء الآراء والحلول لتحقيق مصالح الأفراد والجماعات والدول.[3]

فقوله تعالى: {وأمرهم} الديني والدنيوي {شورى بينهم} أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعًا عن اجتماعهم وتآلفهم وتوادّدهم وتحاببهم وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عمومًا، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله.[4] ولذلك ولأهميتها سمى الله تعالى سورة في القرآن الكريم باسم الشورى وذلك تنبيهًا لعظيم شأنها ومكانتها وحاجة البشرية إليها.

ثم جعلها الله بين ركنين من أركان الدين الإسلامي بين ركن الصلاة وركن الزكاة، ثم لما كان عقل البشر قاصرًا احتيج إليها، فقال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [سورة الشورى: ٣٨]، فالمراد بالأمر أمر الأمة الدنيوي الذي يقوم به الحكام عادة، لا أمر الدين المحض الذي

---

١ – أحكام القرآن: لابن العربي ٥٦٠/١.

٢ – المفردات في غريب القرآن؛ للأ-صفهاني ٥٦٠/١.

٣ – النظام السياسي في الإسلام: مُحَمَّد عبد القادر أبو فارس، ١٩٨٠، ٨٦.

٤ – السعدي ٧٥٩/١.

مداره على الوحي دون الرأي، إذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر، وإنما هو وضع إلهي ليس لأحد فيه رأي لا في عهد النبي - ﷺ - ولا بعده. وقد روي أن الصحابة - عليهم الرضوان - كانوا لا يعرضون رأيهم مع قول النبي - ﷺ - في مسائل الدنيا إلا بعد العلم بأنه قاله عن رأي لا عن وحي كما فعلوا يوم بدر.[1]

وقيل إن هذه الآية نزلت في الأنصار كانوا يتشاورون في الأمر بينهم؛ فمدحهم الله على ذلك، وذلك دليل على اتفاق الكلمة، وترك الاستبداد بالرأي، والرجوع إلى الرأي عند نزول الحادثة.[2]

ومن الحوادث التي تدل على أهمية الشورى في عهد رسول الله - ﷺ - "أنه كان قد رأى في منامه: أن في سيفه ثلمة، ورأى أن بقرًا تذبح، وأنه أدخل يده في درع حصينة. فتأول الثلمة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته. وتأول البقر بنفر من أصحابه يقتلون. وتأول الدرع بالمدينة". وكان إذن يرى عاقبة المعركة. ولكنه في الوقت ذاته كان يمضي نظام الشورى، ونظام الحركة بعد الشورى.. لقد كان يربي أمة. والأمم تربى بالأحداث، وبرصيد التجارب الذي تتمخض عنه الأحداث.. ثم لقد كان يمضي قدر الله، الذي تستقر عليه مشاعره، ويستقر عليه قلبه، فيمضي وفق مواقع هذا القدر، كما يحسها في قلبه الموصول.[3]

---

١ - المنار٤/١٦٤.

٢ - تفسير السمعاني: ٥/٨١

٣ - في ظلال القرآن: ١/٤٦١،والحديث **إسناده حسن، مسند أحمد: ٤/٢٥٩.وقال الإمام الحاكم في مستدركه في باب والأصل من كتاب الله : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ٢/٤١٤.**

فالنبي عمل بالشورى ولم يأخذ بالرؤيا مع أن رؤيا الأنبياء حق؛ وذلك ليدلل على أهمية الأخذ بالشورى وعدم إغفالها، ثم إن الله لما عاتبهم لم يعاتبهم لأنهم خالفوا الشورى أو الرؤيا وإنما عاتبهم لمخالفتهم للأوامر الصادرة من القيادة الرشيدة والواعية في أرض المعركة.

لقد أكد القرآن على مبدأ الشورى في كل ميادين الحياة لأهميتها {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩]، أي: الذي يرد عليك، أيّ أمر كان مما يشاور في مثله، أو في أمر الحرب خاصة كما يفيده السياق، لما في ذلك من تطييب خواطرهم واستجلاب مودتهم ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك حتى لا يأنف منه أحد بعدك، والمراد هنا المشاورة في غير الأمور التي يرد الشرع بها.

نقل الشوكاني رحمه الله تعالى في معنى الشورى وأهميتها فقال: (قال أهل اللغة: الاستشارة مأخوذة من قول العرب: شرت الدابة وشورتها إذا علمت خبرها وقيل من قولهم: شرت العسل إذا أخذته من موضعه، فواجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها).[١]

ثم عن نظام الشورى السياسي فهو يسد الباب أمام أي طغيان سياسي، فضلًا عن تأله الحكام وادعائهم الربوبية.[٢] وبالتالي فنظام الشورى في الإسلام فوائده كثيرة متنوعة، فالشورى خير وسيلة للكشف عن الكفاءات والقدرات كي تستفيد الدولة والأمة من كافة طاقات أبنائها ولاسيما في شؤون الحكم والسياسة.[٣]

فمن خلالها تستلهم الأمة آراءها القوية السديدة من عقول أبنائها الراشدين، والتي تصل من خلالها إلى طريق النصر والتمكين. عن الحسن: "ما شاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمورهم".[٤]

---

١ فتح القدير بتصرف ٥٩٣/١.

٢ – الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية: محمد المختار الشنقيطي، الدوحة – قطر ٢٠١٨م، ١١٥.

٣ – النظام السياسي في الإسلام: ٨٦.

٤ – جامع البيان (الطبري): ٣٤٤/٧.

وتشتد حاجة الأمة إليها كونها طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية.[1]

المطلب الحادي عشر

النصيحة وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن النصيحة لها مكانة عظيمة ومنزلة رفيعة في الإسلام، ولهذا جعل النبي –عليه الصلاة والسلام– مفهوم النصيحة مساويًا للدين كله، فبالنصيحة يقوم الدين ويعم ويصل خيره للعالمين فعن تميم الداري[2] ﷺ أن النبي ﷺ قال: "الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم".[3]

وقد بذل الرسل عليهم الصلاة والسلام قصارى جهدهم في نصح أقوامهم وتبليغهم في سبيل هدايتهم، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يقول لقومه: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٦١-٦٢]، وتتابع موكب الأنبياء من بعد نوح ولم يدخروا جهدًا في سبيل بذل النصيحة والتبليغ، فهذا هود عليه السلام يقول لقومه: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف: ٦٨]. وبذلها صالح لقومه فقال الله في شأنه: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٧٩]. وكذا شعيب عليه السلام: {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [الأعراف: ٩٣].

---

١ – في ظلال القرآن: ٢١٦٥/٥.

٢ – تميم بن اوس بن خارجة الداري، أبورقية: صحابي، أسلم سنة ٩ هـ، وروى له البخاري ومسلم، وللمقريزي فيه كتاب سماه (ضوء الساري في معرفة خبر تميم الداري). مات في فلسطين (الأعلام للزركلي٢/٨٧).

٣ – صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين نصيحة (ح٥٥)، (٧٤/١).

وقد شهد الصحابة ﷺ للنبي -عليه الصلاة والسلام- بأنه بلّغ رسالة ربه ونصح لقومه: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "وأنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت".[1]

ولأهمية النصيحة جعلها الله عوضًا لمن أعذر عن الخروج للجهاد في سبيل الله: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للَّه وَرَسُوله مَا عَلَى الْمُحْسنينَ منْ سَبيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحيمٌ} [التوبة: ٩١].

فبعد أن بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد فيها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجِلاد في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به. وذكر ما هو عارض بسبب مرض عرض له في بدنه، شغله عن الخروج في سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يثبطوهم، وهم محسنون في حالهم هذا؛ ولهذا قال: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٩١] والنصح: قول أو عمل يريد صاحبه صلاح المعمول لأجله.[2]

إذا نصحوا لله ورسوله بالإيمان والطاعة ظاهرًا وباطنًا كما يفعل الموالي الناصح. فالنصح مستعار لذلك. وقد يراد بنصحهم المذكور بذل جهدهم لنفع الإسلام والمسلمين بأن يتعهدوا أمورهم وأهلهم وإيصال خبرهم إليهم ولا يكونوا كالمنافقين الذين يشيعون الأراجيف.[3]

فالجملة تتضمن تعليل رفع الحرج عنهم بما ينتظمون به في سلك المحسنين، فيكون رفعه عنهم مقرونًا بالدليل، فكل ناصح لله ورسوله محسن، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن، وإيقاعه في الحرج، وهذه المبالغة في أعلى مكانة من أساليب البلاغة.[4]

---

١ - صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي، (ح١٦١ ٨) (٢/٨٨٦).

٢ - التحرير والتنوير: ابن عاشور١٢/٦١.

٣ - روح المعاني ١٠/١٥٨.

٤ - تفسير المنار: ١٠/٥٠٨.

وبالتالي فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من أهم العبادات الإسلامية التي لم تدخل في نطاق العبادة بتحديد المواقيت والكيفيات، فهي فريضة قد تميزت الأمة الإسلامية بها. قال الله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [آل عمران: ١١٠] فهذه الفريضة تضمن للأمة بقاءها واستقرارها وقوتها، وتجنبها مزالق الضعف والانحدار والهلاك، قال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: ١١٧].

يقول صاحب الظلال رحمه الله: (وأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من ينكر ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد فإن سنة الله تحق عليها، إما باستئصال وإما بهلاك الانحلال والاختلال).[١]

وقد ضرب الرسول -عليه الصلاة والسلام- مثلًا للمجتمع الراشد الذي يقوم بواجب الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيزدهر ويقوى، ومثالًا للمجتمع الذي لا ينهض بهذا الواجب فيضعف ويهلك وينهار، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا".[٢]

ولذلك فإن من علامات الفلاح في الأمة هي قيامها بواجب التواصي والنصيحة؛ وذلك لما يحيط النفس البشرية من عوامل الضعف والخور والجبن؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر]. أي أنك إذا رأيت أخًا من إخوانك المؤمنين يخور ويضعف في مصابرته فتحثه على المصابرة وقل له: إياك أن تخور. لماذا؟ لأن النفس البشرية

١ - في ظلال القرآن: ١٩٣٣/٤

٢ - صحيح البخاري: ١٣٩/٣.

من الأغيار، وقد يأتي لها حدث يقوى عليها، فالمؤمن الذي ليس عنده هذه الأغيار ينفخ بالعزيمة فيمن يخور فقال الحق: (تواصوا)، فالتواصي أن تكون أنت مرة موصيًا، ومرة موصًى، فساعةَ لا يكون عندك ضعف الأغيار فوصِّ، وساعةَ يكون عندك ضعف الأغيار توصى، فكل واحد موص في وقت، وموصًى في وقت آخر، ولا نتواصى هذه التوصية على الصبر إلا إذا كنا تواصينا أولا على الحق الذي من أجله نشأت المعركة.[1]

وبالتالي فالنصيحة دعامة من دعامات الإسلام، تعمل على تقويته وتماسكه، وإن الإنسان المؤمن هو الحريص على تماسك المجتمع، فهو يتواصى بالحق ويتواصى بالصبر ولذلك فهي واجبة على كل فرد مسلم، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "حق المسلم على المسلم ست " وذكر منها "وإذا استنصحك فانصح له".[2]

المطلب الثاني عشر

الزواج وتحقيق السكن النفسي

الطمأنينة النفسية والسكينة التي تغمر الزوجين من أهم ثمرات الزواج الصالح، بل إنها من الحكم العظيمة التي شرع الزواج من أجلها، وقد وثق الله سبحانه عرى الرابطة الزوجية بهذا السكن النفسي.[3] فقال سبحانه وتعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} [الأعراف: ١٨٩].

بل إنه سبحانه وتعالى جعل هذه الرابطة الزوجية آية من آياته الدالة على عظيم قدرته وحكمته في خلقه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً} [الروم: ٢١] أي ومن علاماته ودلالاته الدالة على البعث {أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا} أي: من جنسكم في البشرية والإنسانية، وقيل المراد حواء فإنه خلقها من

---

١ - تفسير الشعراوي: ١٩٧٥/٤.

٢ - صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب من حق المسلم للمسلم رد السلام (ح٢١٦٢)، (١٧٠٥/٤)

٣ - منهج الإسلام في تزكية النفس: د. أنس أحمد كرزون، ط ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان (٤٣٨/١).

ضلع آدم {لتسكنوا إليها} أي: تألفوها وتميلوا إليها فإن الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر ولا يميل قلبه إليه {وجعل بينكم مودة ورحمة} أي ودادًا وتراحمًا بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة فضلًا عن مودة ورحمة.[1]

وقوله تعالى: {لتسكنوا إِلَيْهَا} [الروم: ٢١] هذه هي العلة الأصيلة في الزواج، أي: يسكن الزوجان أحدهما للآخر، والسكن لا يكون إلا عن حركة، كذلك فالرجل طوال يومه في حركة العمل والسعي على المعاش يكدح ويتعب، فيريد آخر النهار أن يسكن إلى مَنْ يريحه ويواسيه، فلا يجد غير زوجته عندها السَّكَن والحنان والعطف والرقة، وفي هذا السكَن يرتاح ويستعيد نشاطه للعمل في غد.[2] فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين.[3]

وهكذا نجد التعبير القرآني الرفيق يصور هذه العلاقة تصويرًا موحيًا، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس، {لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة} {إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}.

وبالتالي فالسكون النفسي، والرحمة الخلقية، والرحمة القلبية، هي أركان الحياة الزوجية في القرآن. ولذا فالإسلام كان واقعيًا أمام متطلبات الطبيعة الإنسانية، فأمر بتسيير الزواج وإعانة من لم يتزوج من الرجال والنساء فإن كانوا فقراء فإن الله سيهيئ لهم وسائل العيش الكريم إن أرادوا إحصان أنفسهم، قال تعالى مخاطبًا الأولياء المسؤولين عن تزويج البنات والشباب {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [النور: ٣٢].

---

١ - فتح القدير ٣١٢/٤.

٢ - تفسير الشعراوي: ١١٣٦٠/١٨.

٣ - تفسير ابن كثير ٥٢٥/٣.

ثم تأتي الآية التالية تبين للذين لا يجدون القدرة على مؤونات الزواج بأن عليهم أن يسلكوا سبيل العفة حتى يهيئ الله لهم من فضله مالا يستطيعون به الزواج.[1] قال تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله} [النور: ٣٣].

(هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً كما قال النبي ﷺ: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء"[2]).[3]

ولذلك فإن أعظم عمل يقوم به أعوان إبليس ويتوجهم عليه هو السعي للتفرقة بين الزوجين والحيلولة دون هذه الرابطة والتي وصفها الله بأنها ميثاق غليظ ورباط متين. قال رسول الله ﷺ: "إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منهم منزلةً أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا. قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه، ويقول نعم أنت قال أراه قال فيلتزمه".[4]
ومن هنا يتبن أن النكاح نعمة من الله امتن بها على عباده، إذ يحصل به مصالح دينية ودنيوية، فردية واجتماعية، مما يجعله من الأمور المطلوبة شرعاً وفطرة وعقلًا.

---

١ - الخطايا في نظر الإسلام: عفيف طبارة، دار العلم للملايين، بيروت ص ٦٣.

٢ - صحيح البخاري: ٢٦/٣.

٣ - تفسير السعدي: ٥٦٧.

٤ - صحيح مسلم: ٢٢٦٧/٤.

المطلب الثالث عشر

فهم سنن الله في الكون والتفاعل معها والاستفادة منها

عرفها الراغب الأصفهاني رحمه الله في مفرداته فيقول: (سنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته).[1] نحو: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [الفتح: ٢٣]، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا [فاطر: ٤٣].

وشيخ الإسلام ابن تيمية —رحمه الله —يرى أن السنة هي: (العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول؛ ولهذا أمر سبحانه وتعالى بالاعتبار وقال: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١]).[2]

وعرفت السنن: بأنها هي القوانين التي تحكم نظام العالم وفق إرادة الله الخالق باطراد وثبات، تأسيسًا على أن كلمة «سنة» تعني مما تعني: القوانين المطردة التي لا تتخلف إلا في قضايا السنن الخارقة «المعجزات». وإن كان هذا الاطراد في الحياة البشرية لا يرى واضحًا كما هو عليه الأمر في قوانين المادة.[3]

والخلاصة: أن السنة (هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبًا على سلوك البشر).[4]

ومن هذه السنن:

---

١ – المفردات في غريب القر آن للأصقهاني: ٤٢٩/١

٢ – مجموع الفتاوى: ١٣ /٢٠

٣ – انظر كيف نتعامل مع القرآن: الشيخ مُحَّد الغزالي، ط: ٧، ٢٠٠٥ م، ص ٤٨

٤ – مفهوم السنن الربانية: د. رمضان خميس زكي، مكتبة الشروق الدولية، ط: ١، ١٤٢٧– ٢٠٠٦م، ص ٣٤.

أولًا: الاستخلاف:

الاستخلاف في الأرض هو التمكين فيها والملك لها والقيادة والسيادة لمن عليها، وقد وعد الله عباده المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين فيها إذا حصلوا حقيقة الإيمان ومقتضياته، وأخذوا بأسباب التمكين المادية والمعنوية.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شيئًا} الآية [النور: ٥٥].

هذا من وعوده الصادقة، التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين.[١] وفي تصدير الآية الكريمة بقوله- تعالى-: {وعد الله} بشارة عظيمة للمؤمنين، بتحقيق وعده- تعالى-، إذ وعد الله لا يتخلف. كما قال -تعالى-: {وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون} [الروم: ٦].[٢]

وتلك إرادة الله في عباده المستضعفين أن يقويهم على عدوهم ويستخلفهم في الأرض بشرط أن تتحرك نفوسهم نحو التحرر وتتعالى على الضعف والانهزامية، ثم إن الله بعد ذلك سيمد الضعيف وينصره، بل يمكن له في الأرض ثم يرتقي بهم إلى الإمامة والقيادة والريادة.

{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص: ٥]، يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: {ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في

---

١ - تفسبر السعدي: ٥٧٣/١.

٢ - التفسير الوسيط: الطنطاوي ١٤٦/١٠.

الأرض} بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأهم. {ونجعلهم أئمة} في الدين، وذلك لا يحصل مع استضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، {ونجعلهم الوارثين} للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.[1]

يقول الدكتور القرضاوي حفظه الله في كتابه جيل النصر المنشود: (فإن التمكين لا يأتي عفوًا، ولا ينزل اعتباطًا، ولا يخبط خبط عشواء، بل إن له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم ليعرفها عباده المؤمنون، ويتعاملوا معها على بصيرة).[2]

وبالتالي إن حقق البشر مطلوب الله منهم فلا بد وأن يتحقق الوعد الإلهي لعباده المستضعفين كما جاء في قصة موسى مع بني إسرائيل (فإذا به يحدثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره، فيوصيهم باحتمال الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها، ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني، فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحدًا سواه).[3]

{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

يقول سيد قطب رحمه الله:(إن الأرض لله، وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها، والله يورثها من يشاء من عباده- وفق سنته وحكمته- فلا ينظر المستضعفون إلى شيء من ظواهر الأمور التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحزح عنها، فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها. وإن العاقبة للمتقين طال الزمن أم قصر، فلا يخالج قلوب المستضعفين قلق على المصير، ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد، فيحسبونهم باقين).[4]

---

١ - تفسير السعدي: ٦١١/١.

٢ - جيل النصر المنشود: د.يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة ط٢٠٠٠: ١م، ص١٥.

٣ - في ظلال القرآن: ١٣٥٥/٣.

٤ - في ظلال القرآن: ١٣٥٥/٣.

فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسله من المسلمين أن ينتقلوا من التفكر في هذا إلى التفكر في وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر، كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم -تعالى- به على ألسنتهم، وألا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدولة الظالمة لهم، فإن قوة الحق التي نصرها الله تعالى برجل أو رجلين على أعظم الدول لا تغلب إذا نصرناها، ونحن مئات الملايين، والله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]، ويقول: {و{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].[1]

ثانيًا: سنة الله في التدافع:

ومن السنن التي يجب النظر إليها والتمعن فيها والاستفادة منها في علاج الضعف الذي ينزل بالناس أفرادًا وجماعات سنة المدافعة، {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ٢٥١]،يقول صاحب المنار رحمه الله في تفسير هذه الآية:(أي لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض، وقد سمى هذا دفعًا على قراءة الجمهور باعتبار أنه منه سبحانه؛ إذ كان سنة من سننه في الاجتماع البشري. وسماه دفاعًا في قراءة نافع[2] رحمه الله باعتبار أن كلًا من أهل الحق المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله.[3]

---

١ - تفسير المنار: ٨٩/٩.

٢ - - الإمام البذر أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني إمام في القراءة وفي السنة، توفي بالمدينة ١٧٩ هـ-، انظر طبقات القراء ٣٣٠/١.

٣ - تفسير المنار: ٣٩٠/٢.

فدفع الله الناس بعضهم ببعض من السنن العامة، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء، ويقولون: إن الحرب طبيعية في البشر، لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة. وأنت ترى أن قوله تعالى: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض} ليس نصًّا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة، بل هو عام لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس الذي يقتضي المدافعة والمغالبة. ويظن بعض المتطفلين على علم السنن في الاجتماع البشري أن تنازع البقاء الذي يقولون إنه سنة عامة هو من أثرة الماديين في هذا العصر، وأنه جور وظلم، هم الواضعون له والحاكمون به، وأنه مخالف لهدي الدين، ولو عرف من يقولون هذا معنى الإنسان أو لو عرفوا أنفسهم، أو لو فهموا هذه الآية وما في معناها من سورة الحج لما قالوا ما قالوا.

قوله تعالى: {لفسدت الأرض} يؤيد السنة التي يعبر عنها علماء الاجتماع بالانتخاب الطبيعي أو بقاء الأمثل. ووجه ذلك جعل هذا من لوازم ما قبله، فإنه تعالى يقول: إن ما فطر عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضًا عن الحق والمصلحة هو المانع من فساد الأرض، أي: هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح.

ويعزز ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الإذن للمسلمين بالقتال في سورة الحج: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ*الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: ٣٩- ٤١]. فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق، وأنه ينتهي ببقاء الأمثل وحفظ الأفضل.

ومما يدل على هذه القاعدة من القرآن المجيد قوله تعالى في سورة الرعد: {أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ} [الرعد: ١٧]. فهو يفيد أن سيول

الحوادث ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه، وتبقي إبريز الحق النافع الذي ينمو فيه العمران، وإبريز المصلحة التي يتحلى بها الإنسان.[1]

ثالثًا: سنة التغيير:

ومن سنن الله تعالى في خلقه سنة التغيير، وقد أرسل الله الرسل وبعث النبيين من أجل تغيير حركة التاريخ الإنساني، لتكون متوائمة مع سنن الله تعالى، المؤدية إلى خلافة الإنسان في الأرض، وعمارتها بالمعتقدات الصحيحة، والأفكار القويمة، والأعمال السديدة، وهذه السنن لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي ولا تجامل أحدًا؛ {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١]، وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر؛ وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم فإن الله لا يغير عزًا أو ذلة، ولا يغير مكانةً او مهابةً، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم.[2]

والغرض من هذا البيان أن نعلم أنه لا يصح لنا الاعتذار بمشيئة الله عن التقصير في إصلاح شئوننا اتكالًا على ملوكنا، فإن مشيئته تعالى لا تتعلق بإبطال سننه تعالى وحكمته في نظام خلقه، ولا دليل في الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في الوجود على أن تصرف الملوك في الأمم هو بقوة إلهية خارقة للعادة، بل شريعة الله تعالى وخليقته شاهدتان بضد ذلك.[3]

يقول عزة دروزة –رحمه الله– في تفسير الآية: (هذه الجملة جديرة بالتنويه لما تحتويه من تقرير لناموس إلهي اجتماعي يتقلب البشر وفاقه بين النعم والنقم والصلاح والفساد وبالتالي لما تحتويه من تلقين جليل مستمر المدى، حيث قصدت تقرير كون النعم والنقم والخيرات والويلات، لا تأتي على الناس عنوة وإنما هي منوطة بسلوكهم وسيرتهم فإذا كانوا متمعنين بالقوة

١ – المنار: ٢/٣٩٤-٣٩٥.

٢ – في ظلال القرآن: ٤/٢٠٤٩.

٣ – تفسير المنار: ٢/٣٨٠.

والعزة والنجاح والصلاح فإنما يكون ذلك بسبب ما يقوم عليه سلوكهم من أسس الاستقامة والحق فلا تتبدل حالتهم من الحسن إلى السيئ إلا إذا انحرفوا عن الطريق المستقيم. وإذا كانوا ضعافًا يقاسون الويل والذل والفقر والفوضى، فإنما يكون هذا بسبب ما يقوم عليه سلوكهم من انحراف وإهمال وفساد. فلا تتبدل حالهم من السيئ إلى الحسن إلا إذا عدلوا عما هم فيه وساروا في طريق الصلاح والاستقامة. وفي هذا ما هو ظاهر من الاتساق مع حقائق الأشياء. والإطلاق في الجملة يجعل مداها المشروح شاملًا لجميع الناس والبيئات والطبقات والملل والنحل والحالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وفي الآية —كما هو واضح– أن الناس يتحملون مسؤولية كسبهم بقابليتهم لتغيير ما بأنفسهم بإرادتهم).[1]

والتغيير غير التطوير فالتطوير دائمًا يكون للأحسن، أما التغيير فإما يكون للأسوأ وإما يكون للأحسن. وصاحب التغيير هو الإنسان، فهو يستطيع تغيير صفاته، فإذا كانت صفات الإنسان التي يتصف بها قبيحة، فإنه يستطيع أن يغير تلك الصفات القبيحة إلى صفات حسنة.

يقول الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله: (وواقع التاريخ الإسلامي في القرون الماضية يدل دلالة واضحة على أن الله تعالى لم يغير ما كان عليه حال الأمة الإسلامية من عزة ومنعة، ورفاه واستقلال، وعلم وتفوق في السياسة والاقتصاد والاجتماع، إلا بعد أن غيروا ما بأنفسهم، فحكموا بغير القرآن، وأهملوا دينهم، وتركوا سنة نبيهم، وقلدوا غيرهم، وضعفت روابط التعاون بينهم، وساءت أخلاقهم، وانتشرت الموبقات بينهم، وقد وعد الله الأرض من يصلحها بقوله: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، أي الصالحون لعمارتها، وقوله: إن الأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين).[2]

---

١ – التفسير الحديث ٥٠/٧ تأليف: محمّد عزة دروزة. ط. الأولى ١٣٨١ هـ–/ دار الكتب العربية القاهرة.

٢ – التفسير المنير: الزحيلي ١٢٤/١٣.

والتغيير الإيجابي هو ثمرة حسن التلقي والتنفيذ لمضمون القرآن الكريم فلقد نزل القرآن الكريم لتوجيه البشرية إلى الطرق السليمة لتربية النفس وتنشئتها تنشئةً سليمة تؤدي بها إلى الكمال الإنساني الذي تتحقق به سعادة الإنسان {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٩]، {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [الجاثية: ٥].

ولا شك أن في القرآن طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن في نفس الإنسان، فهو يهز وجدانه، ويرهف أحاسيسه ومشاعره، ويصقل روحه، ويوقظ إدراكه وتفكيره، ويجلي بصيرته، فإذا بالإنسان بعد أن يتعرض لتأثير القرآن يصبح إنسانًا جديدًا، كأنه خلق خلقًا جديدًا.[١]

وقد قص الله علينا في القرآن من أنباء الأمم السابقة، وكيف نزل بمن نزل بهم العقاب، وما هي مسبباته، وفي ذلك تنبيه وتحذير للأمم اللاحقة؛ لئلا يضلوا عن سواء السبيل، فيقعوا في مثل ما وقع فيه أولئك القوم، فهو كتاب بشارة ونذارة، ونور وهداية للناس أجمعين، يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين، وما حكاه الله سبحانه عن الحضارات البائدة، والمجتمعات المندثرة، إنما هي عبر ودروس للأجيال اللاحقة، وتذكير لهم بسنن الله الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، وتحذير لهم من الوقوع في مثل ما وقعوا فيه، من الإغراق في الغفلة وبطر النعمة فيهلكوا مع الهالكين. فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان يتخم بالغنى، ويبطر النعم، ويسأم من النمط الواحد للحياة، ويعافه ويزهد فيه، ويتطلع إلى التغيير والتبديل، وذلك للضعف البشري الغالب على طبعه، فبنو إسرائيل مثلًا لما أنزل الله عليهم المن والسلوى وهي من ألذ الأطعمة، تمنوا البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، فعاقبهم الله عقابًا أليما على سوء صنيعهم، كما حكى الله لنا ذلك عنهم بقوله: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ

١ - القرآن وعلم النفس: ٢٦٦.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}.[1]

ووسيلة التغيير إنما تكون بالتقوى والعمل الصالح: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٩٦]، التي تنص على كون الإيمان والتقوى العلاج الوحيد، الذي بسببه يحول الله السيئ إلى الحسن، لأن التزامهما إقلاع عن أسباب العذاب.[2]

المطلب الرابع عشر

الاعتزاز بالحق والدين والثقة واليقين بنصر الله

تظهر حقيقة اليقين بالله في مراحل الضعف؛ إذ ليس صاحب اليقين من تنفرج أساريره وينشرح صدره ويتهلل وجهه حين يرى قوة الإسلام وعزة أهله وبشائر نصره، وإنما يكون اليقين لصاحب الثقة بالله مهما حلك الظلام واشتد الضيق، واجتمعت الكروب، وتكالبت الأمم؛ لأن أمله بالله كبير ويقينه بأن العاقبة للمتقين.[3]

إن تكوين الأمم وتربية الشعوب وتحقيق الآمال ومناصرة المبادئ تحتاج من الأمة التي تحاول هذا أو من الفئة التي تدعو عليه على الأقل إلى قوة نفسية عظيمة تتمثل في عدة أمور: إرادةٍ قوية لا يتطرق إليها ضعف، ووفاءٍ ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر، وتضحيةٍ عزيزة لا

---

١ – مجلة البحوث الإسلامية: ٣٦٤/٥٤.

٢ – تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير))، عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: ١٣٥٩هـ)، ت: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان.
ط: ١، ١٤١٦هـ– ١٩٩٥م، ١٢٦/١.

٣ – هذه أخلاقنا: محمود الخزندار، دار الغرباء، ط٢، ١٤٣٦

يحول دونها طمع ولا بخل، ومعرفةٍ بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه والانحراف عنه والمساومة عليه والخديعة بغيره.[1]

ففي قوله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٣٩] {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون} فيها بشارة وتسلية. أما البشارة والتسلية، فهي قوله: {وأنتم الأعلون} فهي تسلية للنبي -ﷺ- وأصحابه رضوان الله عليهم، من حيث إن فيها بيانًا لأنهم أعلى، ومعنى العلو أنهم قد كان لهم غلب أكثر مما كان للمشركين، فقتلى المشركين يوم بدر أكثر من قتلى المؤمنين يوم أحد، والمؤمنون في أحد ذاتها قد كانوا أعلى منزلة من الكفار؛ لأن قتلى المؤمنين في الجنة، وقتلى المشركين في النار، ولأن قتال المؤمنين في سبيل الحق، وقتال المشركين في سبيل الطاغوت، وأيّ علو للإنسان أكثر من أن يشعر بأنه يقاتل لنصرة الحق، ويغالب في سبيله، فإن الحق في ذاته عزة وعلو، وفوق ذلك في النص بشارة بأن العاقبة للمتقين، وهو العلو في الأرض كما قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} [القصص: ٥].

وأما سبب النصر فهو صدق إيمان المؤمنين، فإن صدق الإيمان يصفي النفوس من أدرانها ويبعد عنها آثامها، ويجعل القصد هو إعلاء كلمة الحق.[2]

وهذه العقيدة تعطي المؤمن ثقة لا حدود لها وقوة لا تقهرها قوة بشر مهما كان، فالذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه.[3] وعلى قدر نصيب المرء من الإيمان بالله واعتزازه بالحق الذي يحمله يكون نصيبه من تلك القوة.

---

١ – إلى شيء ندعو الناس: حسن البنا، من كتاب مجموعة رسائل البنا، المشرف العام، جمعة أمين عبد العزيز، البصائر للبحوث والدراسات، الطبعة الثالثة، ٤٩.

٢– زهرة التفاسير ٣/١٤٢١.

٣ – الإيمان والحياة: ص ٢٦٧.

ومما يستفاد من الآيات السابقة أيضًا: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

وأن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها ولا دنياها ولا يكون لها إمامة فيه.[1]

فالمؤمن بإيمانه بالله وبالحق الذي يعتنقه يستمد قوته، وبه يقف على أرض صلبة غير خائر ولا مضطرب، وهذا ما نلمسه عندما وقف جعفر ابن أبي طالب متحدثًا باسم المسلمين أمام النجاشي موضحًا حقيقة الإسلام وأهدافه، وقال للقسيس عندما أمره بالسجود للنجاشي: "نحن قوم لا نسجد إلا لله".[2]

ونلمسه أيضًا من قول ربعي بن عامر[3] أمام رستم قائد الفرس، فقال قولته المشهورة التي تعبر عن مدى اعتزازه بالحق الذي يؤمن به ويحيا له: (بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم

---

١ – تفسير السعدي: ٦١٨/١

٢ – انظر: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون: علي بن برهان الدين الحلبي (المتوفي: ١٠٤٤)، دار المعرفة، ١٤٠٠هـ، ٣١/٢.

٣ . ربعيّ: بن عامر بن خالد بن عمرو، أدرك النبي (ﷺ) وشهد فتح دمشق ثم خرج إلى القادسية مع هاشم بن عتبة وشهد فتوح خراسان قال الطّبريّ: كان عمر أمدّ به المثنى بن حارثة، وكان من أشراف العرب ينظر: تاريخ دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، ت: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م، الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى مُحَمَّد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط:١، ١٤١٥هـ.

إليه فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر)[1].

١ ـ البداية والنهاية :٧/٤٦.

النتائج والتوصيات

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وجوده يبلغ أصحاب الآمال آمالهم، فله الحمد - عزّ وجل- على ما أنعم ويسر، وذلل من صعاب، وأعان على إتمام ما منَّ به؛ ليكون وسيلة من وسائل قربه.

وحسبي هنا أن أقول: بحمد الله وتوفيقه أنجزت هذا البحث، وقد توصلت فيه إلى النتائج والتوصيات التالية:

١- أن البحث في الضعف البشري وعلاجه في ضوء القرآن الكريم من الأمور المهمة، والحاجات الملحة، فهو يعتبر من الدراسات القرآنية المتخصصة، وهو أيضًا مما يزداد أهمية في زمانٍ الأمة فيه بحاجة إلى من يستخرج قوتها ويوجهها إلى المنهج الصحيح، وينشلها مما هي فيه من الضعف، في وقت بدأت تتحسس فيه وجودها وموقعها.

٢- أن يتعرف الإنسان على ذاته وطبيعة خلقه التي خلق عليها حتى يتبصر الإنسان بخلقه وماهية وجوده فيدفعه ذلك للاعتبار.

٣- أن للضعف البشري في القرآن الكريم سواء الحسي منه أو المعنوي، أنواعًا كثيرة ومنه ما يتعلق بالفرد ومنه ما يتعلق بالمجتمع.

٤- أن ما يسبب الضعف في البشر منه ما يعود لأسباب ذاتية داخلية كالحرص على الدنيا وجمع المال، والانقياد والتبعية، أو لأسباب خارجية كالجبروت والطغيان.

٥- أن القرآن الكريم أفاض في ذكر العلاجات التي تسهم في علاج الضعف البشري، سواء أكانت العلاجات علاجات قلبية أو شرعية أو اجتماعية أو عامة.

٦- الاهتمام بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والنفسية والتربوية من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، وإغناء المكتبة الإسلامية بهذه الدراسات وذلك للحاجة الماسة لهذه الدراسات.

٧- فهم واقع الأمة فهمًا حقيقيًا، وإدراك ماهي عليه الآن من واقع مرير، والعمل الجاد المنظم لإنقاذ الأمة من حالة الضعف والذل والهوان التي تعانيه.

٨- دعوة الدارسين والباحثين إلى إكمال البحث في هذا الموضوع القرآني، حيث إن كل عنصر من عناصر هذه الرسالة يصلح أن يكون بحثًا مستقلًا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

هذه قائمة المصادر والمراجع المستفاد منها في هذه الرسالة بعد كتاب الله تعالى، مرتبة ترتيبًا أبجديا:

١. **آدم عليه السلام (فلسفة تقويم الإنسان وخلافته)**: البهي الخولي، ط٣، مكتبة وهبة – القاهرة، ١٩٧٤م.

٢. **أحكام القرآن**: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، ت: مُحَمَّد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٥هـ.

٣. **أحكام القرآن لابن العربي**: القاضي مُحَمَّد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، ت: مُحَمَّد عبد القادر عطا: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤. **الأساس في التفسير**: سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩هـ)، دار السلام – القاهرة، ط٦ - ١٤٢٤هـ.

٥. **الأعلام** :**خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) ،دار العلم للملايين ، ط:١٥، ٢٠٠٢ م.**

٦. **الآحاد والمثاني**: أحمد بن عمرو بن الضحاك أبوبكر الشيباني ،ت :د.باسم فيصل أحمد الجوابرة ،، **دار الراية – الرياض ،ط:١، ١٤١١ – ١٩٩١.**

٧. **أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ) ،ت: علي مُحَمَّد معوض – عادل أحمد عبد الموجود ،دار الكتب العلمية،ط:١، ١٤١٥هـ – ١٩٩٤ م.**

٨. **أسرار ترتيب القرآن**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار الفضيلة للنشر والتوزيع.

٩. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: مُحَمَّد الأمين بن مُحَمَّد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٠. **إعراب القرآن وبيانه:** محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، دار ابن كثير - دمشق - بيروت، ط٤ - ١٤١٥هـ.
١١. **الإكليل في استنباط التنزيل:** عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، ت: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية — بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٢. **أمراض النفس وعلاجها بالذكر:** آمال سعدي قطينة، جمعية الحديث الشريف وإحياء التراث، ط: ١، ٢٠٠٣.
١٣. **أوضح التفاسير:** مُحَمَّد مُحَمَّد عبد اللطيف بن الخطيب (المتوفى: ١٤٠٢هـ)، المطبعة المصرية ومكتبتها ط: ٦، رمضان ١٣٨٣هـ - فبراير ١٩٦٤م.
١٤. **الإيمان والحياة:** الرسالة - بيروت، ط ١.
١٥. **باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن:** أبو القاسم، الشهير ب- (بيان الحق) (المتوفى: بعد ٥٥٣هـ)، ت: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى -مكة المكرمة: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
١٦. **بحر العلوم للسمرقندي:** أبو الليث نصر بن مُحَمَّد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي: دار الفكر - بيروت: ت د. محمود مطرجي.
١٧. **البحر المحيط:** أبو حيان مُحَمَّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، ت: صدقي مُحَمَّد جميل، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
١٨. **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد:** أبو العباس أحمد بن مُحَمَّد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ)، ت: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي — القاهرة.
١٩. **البداية والنهاية:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ت: علي شيري: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٠. **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث: أبو مُحَّد الحارث بن مُحَّد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة (المتوفى: ٢٨٢هـ) ، المنتقي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧ هـ) ، ت: د. حسين أحمد صالح الباكري ،مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة ، ط:١ : ،٣٧٤/١.**

٢١. **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ت:مُحَّد أبو الفضل إبراهيم ،المكتبة العصرية ،لبنان / صيدا.**

٢٢. **تاج العروس:** الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٢٣. **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام : شمس الدين أبو عبد الله مُحَّد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) ،ت: الدكتور بشار عوّاد معروف ،دار الغرب الإسلامي ،ط:١، ٢٠٠٣ م.**

٢٤. **تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم:** د. مُحَّد علي الصلابي، مكتبة الصحابة –الإمارات–الشارقة، ط: ١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٢٥. **التحرير والتنوير = تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد:** مُحَّد الطاهر بن مُحَّد بن مُحَّد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

٢٦. **تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة:** المحقق: لجنة مختصة بإشراف نور الدين طالب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، عام النشر: ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٢٧. **التربية النفسية في المنهج الإسلامي:** د. حسن شرقاوي، ط: ١٩٨٤هـ - ١٤٠٥م.

٢٨. **التصوير الفني في القرآن:** سيد قطب، مطابع الشروق.

٢٩. **التعريفات للجرجاني:** علي بن مُحَّد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر: دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٣٠. **تفسير آيات الأحكام**: زلط، المجد للثقافة والعلوم، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م.

٣١. **تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم**: زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط: ١-٢٠٠٧م.

٣٢. **تفسير أبي السعود: = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: أبو السعود العمادي مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٣. **التفسير البسيط للواحدي**: أبو الحسن علي بن أحمد بن مُحَمَّد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام مُحَمَّد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ.

٣٤. **تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن**: محيي السنة، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، ت: مُحَمَّد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع.

٣٥. **تفسير ابن أبي حاتم**: الإمام الحافظ أبو مُحَمَّد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار النشر: المكتبة العصرية - صيدا، ت: أسعد مُحَمَّد الطيب.

٣٦. **تفسير ابن باديس = في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**: عبد الحميد مُحَمَّد بن باديس الصنهاجي (المتوفى: ١٣٥٩هـ)، ت: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط: ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣٧. **تفسير السلمي =حقائق التفسير**: أبو عبد الرحمن مُحَمَّد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي (المتوفى:٤١٢ هـ)، ت: سيد عمران، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٣٨. **تفسير ابن فورك**: مُحَمَّد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (المتوفى: ٤٠٦هـ)، ت: علال عبد القادر بن دويش - المملكة العربية السعودية ط: ١، ١٤٣٠ - ٢٠٠٩م.

٣٩. **تفسير ابن كثير**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ت: سامي بن مُحَمَّد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٤٠. **تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: ناصر الدين البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، ت: مُحَمَّد عبد الرحمن المرعشلي: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١- ١٤١٨هـ.
٤١. **تفسير الجلالين**: جلال الدين مُحَمَّد بن أحمد المحلي (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الحديث – القاهرة، ط١.
٤٢. **تفسير حدائق الروح والريحان في روابي القرآن**: الشيخ العلامة مُحَمَّد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
٤٣. **التفسير الحديث**: مُحَمَّد عزة دروزة، ط. الأولى ١٣٨١هـ/ دار الكتب العربية القاهرة.
٤٤. **تفسير الراغب الأصفهاني**: الراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) ت: د. مُحَمَّد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب، جامعة طنطا، ط١: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٤٥. **تفسير السراج المنير**: مُحَمَّد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت.
٤٦. **تفسير الشعراوي – الخواطر**: مُحَمَّد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، مطابع أخبار اليوم.
٤٧. **تفسير الصنعاني**: عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (المتوفى: ٢١١)، ت: د. مصطفى مسلم مُحَمَّد، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ.
٤٨. **تفسير العثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة**: مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤٢٣هـ.
٤٩. **تفسير غريب القرآن**: كاملة بنت مُحَمَّد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري: دار بن حزم، ط١، ٢٠٠٨.

٥٠. **تفسير القرآن**: أبو بكر مُحَمَّد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (المتوفى: ٣١٩هـ)، ت: سعد بن مُحَمَّد السعد، دار المآثر – المدينة النبوية، ط: ١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٥١. **تفسير القرآن**: أبو المظفر منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجبار السمعاني، (المتوفى: ٤٨٩هـ)، ت: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن – الرياض، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٥٢. **تفسير القرآن العزيز**: أبو عبد الله الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ)، ت: أبو عبد الله حسين بن عكاشة -مُحَمَّد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة -مصر/ القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٣. **التفسير القرآني للقرآن**: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي – القاهرة.

٥٤. **تفسير القيم لابن القيم**: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان: دار ومكتبة الهلال – بيروت، ط: ١- ١٤١٠هـ.

٥٥. **تفسير المنار**: مُحَمَّد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٥٦. **التفسير الكبير = مفاتيح الغيب**: فخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣- ١٤٢٠هـ.

٥٧. **تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة**: مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، ت: د. مجدي باسلوم: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٥٨. **تفسير الماوردي = النكت والعيون**: أبو الحسن علي بن مُحَمَّد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

٥٩. **تفسير مجاهد**: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ)، ت: الدكتور مُحَمَّد عبد السلام أبو النيل: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، ط: ١، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
٦٠. **تفسير المراغي**: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: ١، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.
٦١. **تفسير المظهري**: المظهري، مُحَمَّد ثناء الله، ت: غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية — الباكستان، الطبعة: ١٤١٢هـ.
٦٢. **تفسير مقاتل بن سليمان**: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (المتوفى: ١٥٠هـ)، ت: عبد الله محمود شحاته: دار إحياء التراث — بيروت: ط١- ١٤٢٣هـ.
٦٣. **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**: د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر — دمشق، ط٢ - ١٤١٨هـ.
٦٤. **التفسير الميسر**: نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف — السعودية، الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
٦٥. **تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل**: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ) ت: يوسف علي بديوي: دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨.
٦٦. **التفسير الواضح**: الدكتور /مُحَمَّد محمود حجازي، دار الجيل الجديد.
٦٧. **التفسير الوسيط**: مُحَمَّد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة — القاهرة، ط: ١.
٦٨. **التفسير الوسيط**: د وهبة بن مصطفى الزحيلي: دار الفكر — دمشق، ط: ١- ١٤٢٢هـ.
٦٩. **التفسير الوسيط**: مجمع البحوث: مجمع البحوث: مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط: ١، (١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م).

٧٠. **التكافل الاجتماعي في الإسلام:** مُحَمَّد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩١م.

٧١. **تلبيس إبليس:** جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن مُحَمَّد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط: ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

٧٢. **التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم:** د. زهير رابح قرامي، موقع مجلة الإعجاز.

٧٣. **تهذيب كتاب الأفعال لأبي بكر مُحَمَّد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية:** المؤلف: أبو القاسم علي بن جعفر السعدي المعروف بابن القطاع، عالم الكتب – بيروت – ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٧٤. **تهذيب التهذيب: أبو الفضل أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ) ،مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند ،ط:١، ١٣٢٦هـ**

٧٥. **تهذيب الكمال : يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي ، ت : د. بشار عواد معروف ،مؤسسة الرسالة – بيروت ،ط:١، ١٤٠٠ – ١٩٨٠.**

٧٦. **توجيهات نبوية على الطريق:** السيد مُحَمَّد نوح، مكتبة الوفاء، المنصورة، ط٨.

٧٧. **التوقيف على مهمات التعريف للمناوي:** زين الدين مُحَمَّد المدعو بعبد الرؤوف الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت–القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ–١٩٩٠م.

٧٨. **تيسير التفسير:** إبراهيم القطان (المتوفى: ١٤٠٤هـ)، المكتبة الشاملة، غير موافق للمطبوع.

٧٩. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي:** عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق: مؤسسة الرسالة: ط١ – ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م.

٨٠. **الثروة في ظل الإسلام:** البهي الخولي، ط ٢، ١٣٩١هـ –١٩٧١م.

٨١. **ثلاثون وصية ووصية لتكون قائدا ناجحا**: أمير بن مُحَمَّد المدري.لايوجد تاريخ موجود في النت

٨٢. **جامع البيان في تأويل القرآن = تفسير الطبري**: مُحَمَّد بن جرير، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط: ٢، ١٣٩٢هـ.

٨٣. **جامع العلوم والحكم**: ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٨٤. **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**: شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش: دار الكتب المصرية — القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٨٥. **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**: مُحَمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، ت: مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ط١: ١٤٢٢هـ.

٨٦. **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ت: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن مُحَمَّد، دار العاصمة، السعودية ط: ٢، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

٨٧. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي = الداء والدواء**: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار المعرفة — المغرب، ط: ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٨٨. **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**: أبو زيد عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، ت: سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط: ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٨٩. **جيل النصر المنشود**: د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة ط١، ٢٠٠٠م.

٩٠. **الحياة في ظلال القرآن**: عبد الله الطنطاوي، مُحَمَّد علي الهاشمي، أحمد أحمد جاد، مركز الحضارة للبحوث والدراسات والتدريب، طبعة اسطنبول الثانية، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٩١. **خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال :الحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني ،ت: عبد الفتاح أبو غدة ،مكتب المطبوعات الإسلامية/دار البشائر ،١٤١٦ هـ ، حلب / بيروت.**

٩٢. **الخطايا في نظر الإسلام**: عفيف طبارة، دار العلم للملايين، بيروت.

٩٣. **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، ت: الدكتور أحمد مُحَمَّد الخراط، دار القلم – دمشق.

٩٤. **الدر المنثور**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت ط: ١، ١٩٩٣م.

٩٥. **الدعاء للطبراني**: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: ١، ١٤١٣هـ.

٩٦. **دع القلق وابدأ الحياة**: ديل كارنيجي، ترجمة عبد المنعم الزيادي، ط٥، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٥٦.

٩٧. **ذيل طبقات الحنابلة**: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، ت: د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان – الرياض، ط: ١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

٩٨. **الرسول القائد**: محمود شيت خطاب، دار العلم، ط٤.

٩٩. **رجال صحيح مسلم: أحمد بن علي بن مُحَمَّد بن إبراهيم، أبو بكر ابن مَنْجُويَه (المتوفى: ٤٢٨هـ) ،ت :عبد الله الليثي ،دار المعرفة – بيروت، ط:١، ١٤٠٧.**

١٠٠. **رعاية اليتامى والضعفاء في الإسلام**: د. مُحَمَّد شوقي مُحَمَّد نصار.

١٠١. **روائع التفسير = الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي**، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن مُحَمَّد، دار العاصمة - المملكة العربية السعودية، ط: ١، ١٤٢٢ - ٢٠٠١م.

١٠٢. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، ت: علي عبد الباري عطية: دار الكتب العلمية – بيروت ط١، ١٤١٥هـ.

١٠٣. **زاد المسير**: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن مُحَمَّد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي: دار الكتاب العربي – بيروت ط١- ١٤٢٢هـ.

١٠٤. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن القيم، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤١٦هـ.

١٠٥. **زهرة التفاسير**: مُحَمَّد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)، دار النشر: دار الفكر العربي.

١٠٦. **سراج القارئ المبتدئ وتذكار المقرئ المنتهي** وبذيله غيث النفع (وهو شرح منظومة حرز الأماني ووجه التهاني للشاطبي): أبو القاسم (أو أبو البقاء) علي بن عثمان بن مُحَمَّد بن أحمد بن الحسن المعروف بابن القاصح العذري البغدادي (المتوفى: ٨٠١هـ)، راجعه شيخ المقارئ المصرية: علي الضباع، مطبعة مصطفى البابي الحلبي –مصر، ط: ٣، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

١٠٧. **السراج المنير**: مُحَمَّد بن أحمد الشربيني، شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٠٨. **سر انحلال الأمة العربية والإسلامية**، مُحَمَّد سعيد العرفي، دمشق كمؤسسة الرسالة، ط: ٢، ١٩٦٦م.

١٠٩. **السعادة وتنمية الصحة النفسية**: د. كمال إبراهيم مرسي، دار النشر للجامعات، ط: ١، ٢٠٠٠م.

١١٠. **سلسلة التفسير**: أبو عبد الله مصطفى بن العدوى شلباية المصري، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http: //www.islamweb.net.

١١١. **سنة الله في الأخذ بالأسباب**: الصلابي، دار الروضة.

١١٢. **سنن أبي داود**: أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، ت: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

١١٣. **سنن الترمذي**: وهو مُحَمَّد بن عيسى بن سَوْرة بنموسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) ت: أحمد مُحَمَّد شاكر ومُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي –مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

١١٤. **السنن الكبرى**: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، ت: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

١١٥. **سنن ابن ماجه**: مُحَمَّد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر – بيروت، ت: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، ٢/١٢٥٤.

١١٦. **سير أعلام النبلاء**: الامام شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨هـ ١٣٧٤م، ت: شعيب الأرناؤوط، ط: ٩، ١٤١٣هـ ١٩٩٣مؤسسة الرسالة – بيروت.

١١٧. **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**: علي بن برهان الدين الحلبي (المتوفى: ١٠٤٤)، دار المعرفة، ١٤٠٠هـ.

١١٨. **شرح السنة**: محيي السنة، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود بن مُحَمَّد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط-مُحَمَّد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت، ط:٢، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

١١٩. **شعب الإيمان**: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت: مُحَمَّد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٠.

١٢٠. **الشوارد = ما تفرد به بعض أئمة اللغة : رضي الدين الحسن بن مُحَّد بن الحسن القرشي الصغاني (المتوفى: ٦٥٠هـ) ،ت: مصطفى حجازي، ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية – القاهرة ،ط:١،، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.**

١٢١. **الشيخوخة تنكيس في الخلق**: د. مُحَّد دودح، مجلة الإعجاز العلمي الهيئة العامة للكتاب والسنة، العدد الثاني عشر.

١٢٢. **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**: مُحَّد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط: ٢، ١٤١٤ – ١٩٩٣، ت: شعيب الأرناؤوط.

١٢٣. **صفوة البيان لمعاني القرآن**: حسنين مُحَّد مخلوف، مطابع الشروق ١٤٠٢-١٩٨٢.

١٢٤. **طبقات علماء الحديث : أبو عبد الله مُحَّد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (المتوفى: ٧٤٤ هـ) ،ت: أكرم البوشي، إبراهيم الزيبق ،مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ،ط:٢، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.**

١٢٥. **طبقات فحول الشعراء : مُحَّد بن سلام الجمحي ،دار المدني– جدة، ت : محمود مُحَّد شاكر.**

١٢٦. **طبيعة النفس البشرية في مرحلة التكليف في القرآن الكريم**: عاطف شواشرة، وسهاد بني عطا، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، مجلد ٢٤(١)٢٠١٠.

١٢٧. **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**: ابن القيم الجوزية، مطبعة المدني – القاهرة، ت: د. مُحَّد جميل غازي

١٢٨. **الظاهرة القرآنية**: مالك بن نبي، دار الفكر: سورية.

١٢٩. **العباب الزاخر**: الصاغاني، (المتوفى: ٦٥٠هـ)، موقع الوراق :http ./‏/www.alwarraq.com

١٣٠. **العبادة في الإسلام**: القرضاوي، مكتبة وهبة –القاهرة.

١٣١. **العبودية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن مُحَمَّد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)**، تحقيق: مُحَمَّد زهير الشاويش: المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

١٣٢. **العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية**: مُحَمَّد جمال الدين محفوظ، دار المعارف، ١٩٩٤م.

١٣٣. **عناصر القوة في الإسلام**: سيد سابق، مكتبة وهبة –مصر، ط ١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

١٣٤. **عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية**: د. يوسف القرضاوي، مكتبة الاسكندرية ٢٠٠٢م.

١٣٥. **عون المعبود شرح سنن أبي داود**: مُحَمَّد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٢، ١٤١٥.

١٣٦. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٣٧. **فتح البيان في مقاصد القرآن**: أبو الطيب مُحَمَّد صديق خان البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ)، المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت: ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

١٣٨. **فتح القدير**: مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط١- ١٤١٤هـ.

١٣٩. **الفروسية**: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان: دار الأندلس - السعودية – حائل، ط١، ١٤١٤ – ١٩٩٣.

١٤٠. **فقه دعوة موسى عليه السلام**: مُحَمَّد عمارة، مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع القاهرة - مصر، ط١: ١٤١٧هـ /١٩٩٧م.

١٤١. **فقه السيرة:** مُحَمَّد الغزالي، ت: مُحَمَّد ناصر الألباني، دار الكتب الحديثة –مصر، ط: ٦، ١٩٦٥.

١٤٢. **فلسفة الإنسان عند ابن خلدون:** الجيلاني بن التوهامي مفتاح، دار الكتيب العالمية.

١٤٣. **الفوائد:** ابن قيم الجوزية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

١٤٤. **في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، (المتوفى: ١٣٨٥هـ)**، دار الشروق، ط: ١١، ١٤٠٥م ١٩٨٥هـ.

١٤٥. **الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية:** نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (المتوفى: ٩٢٠هـ)، دار ركابي للنشر – الغورية، مصر، ط١، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

١٤٦. **قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله:** لجلال العالم: ١٣٩٥هـ.

١٤٧. **القاموس المحيط:** مجد الدين أبو طاهر مُحَمَّد بن يعقوب الفيروز آبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: مُحَمَّد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط: ٨، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

١٤٨. **القرآن وعلم النفس:** د. مُحَمَّد عثمان نجاتي، دار الشروق – القاهرة، ط: ٧، ١٤٢١هـ١٠٠١م.

١٤٩. **القصص القرآني في سورة الكهف:** مُحَمَّد متولي الشعراوي، أخبار اليوم – القاهرة، ١٩٩٠م.

١٥٠. **قواعد الأحكام في مصالح الأنام:** الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، ت: محمود بن التلاميد الشنقيطي، دار المعارف بيروت – لبنان.

١٥١. **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**: مُحَمَّد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ)، ت: د. عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، ط: ٢، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

١٥٢. **كتاب العين**: الخليل بن أحمد الفراهيدي: دار ومكتبة الهلال، ت: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي،

١٥٣. **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**: مُحَمَّد بن علي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، ت: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط١- ١٩٩٦م.

١٥٤. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٣- ١٤٠٧هـ.

١٥٥. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**: أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، ت: الإمام أبي مُحَمَّد بن عاشور ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١: ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢م.

١٥٦. **الكليات**: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بنموسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، ت: عدنان درويش -مُحَمَّد المصري: مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٥٧. **كيف تحل مشكلتك الاقتصادية**: خالد حامد العرفي، ١٩٩٣.

١٥٨. **كيف نتعامل مع القرآن**: الشيخ مُحَمَّد الغزالي، ط: ٧، ٢٠٠٥م.

١٥٩. **لا للشيخوخة المبكرة**: د. سامي محمود، ط: ١، الدار المصرية للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٦٠. **لباب الآداب**: لأسامة بن منقذ، تحقيق أحمد مُحَمَّد شاكر، ط١، مكتبة السنة.

١٦١. **لباب التأويل في معاني التنزيل**: علاء الدين الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)، ت: مُحَمَّد علي شاهين: دار الكتب العلمية – بيروت، ط١- ١٤١٥هـ.

١٦٢. **اللباب في علوم الكتاب**: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ) ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي مُحَمَّد معوض: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

١٦٣. **لباب النقول في أسباب النزول**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية بيروت — لبنان، ٥٨.

١٦٤. **لسان العرب**: ابن منظور، دار صادر- بيروت ط: ١.

١٦٥. **لطائف الإشارات**: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: ٤٦٥هـ)، ت: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب —مصر، ط: ٣.

١٦٦. **ماذا يعني انتمائي للإسلام**: فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: ط: ٤، ٢٠٠٠م.

١٦٧. **مجلة البحوث الإسلامية**: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

١٦٨. **مجموع الفتاوى**: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ت: أنور الباز - عامر الجزار، دار الوفاء، ط: ٣، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

١٦٩. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ) ،ت: حسام الدين القدسي ،مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤م.**

١٧٠. **محاسن التأويل = تفسير القاسمي**: مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ) ت: مُحَمَّد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية — بيروت، ط: ١- ١٤١٨هـ.

١٧١. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: أبو مُحَمَّد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) ت: عبد السلام عبد الشافي مُحَمَّد: دار الكتب العلمية — بيروت، ط١- ١٤٢٢هـ.

١٧٢. **مختار الصحاح**: زين الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، ت: يوسف الشيخ مُحَمَّد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت — صيدا، ط: ٥، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

١٧٣. **مختصر تفسير ابن كثير**: مُحَمَّد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت — لبنان، ط: ٧، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م.

١٧٤. **مختصر تاريخ دمشق: مُحَمَّد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الانصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) ،ت: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، مُحَمَّد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق — سوريا ،ط:١**

١٧٥. **المخصص لابن سيده**: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، ت: خليل إبراهم جفال: دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

١٧٦. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، ت: مُحَمَّد المعتصم بالله البغدادي: دار الكتاب العربي — بيروت، ط: ٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٧٧. **مدارك التنزيل وحقائق التأويل المسمى تفسير النسفي**: أبو البركات عبد الله حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، ت: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

١٧٨. **مدخل إلى العلم بالسياسة**: فارس إشتي، ط١ ٢٠٠١م، دار بيسان - بيروت.

١٧٩. **مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**: أبو الحسن عبيد الله بن مُحَمَّد عبد السلام بن خان مُحَمَّد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (المتوفى: ١٤١٤هـ)، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند، ط: ٣- ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.

١٨٠. **المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة**: عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط١، ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م.

١٨١. **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ،ت: محمد فؤاد عبد الباقي ،دار إحياء التراث العربي – بيروت .١٩١٩/٤.**

١٨٢.

١٨٣. **مسند أبي يعلى:** أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)، ت: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، ط: ١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

١٨٤. **مسند الإمام أحمد:** مؤسسة الرسالة، ط: ٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

١٨٥. **مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام:** د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٦هـ –١٩٨٥م.

١٨٦. **المصباح المنير:** أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية – بيروت.

١٨٧. **معاني القرآن وإعرابه:** أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، ت: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب - بيروت، ط١: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٨٨. **معرفة الثقات : أحمد بن عبد الله بن صالح أبو الحسن العجلي الكوفي ، ت : عبد العليم عبد العظيم البستوي ،مكتبة الدار – المدينة المنورة ،ط:١، ١٤٠٥ – ١٩٨٥.**

١٨٩. **المعجم الكبير للطبراني:** سليمان بن أحمد بن أيوب بنمطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط: ٢.

١٩٠. **معجم اللغة العربية المعاصر:** د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل.

١٩١. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم:** محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، ١٣٦٤هـ.

١٩٢. **معجم مقاييس اللغة**: أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام مُحَمَّد هارون، الناشر: دار الفكر، ط: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٩٣. **المعجم الوسيط**: إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر -مُحَمَّد النجار، دار النشر: دار الدعوة.

١٩٤. **مع قصص السابقين في القرآن**: د. صلاح عبد الفتاح خالدي، دار القلم — دمشق، ١٤٢٨- ٢٠٠٧.

١٩٥. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**: أبو مُحَمَّد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، ت: د. مازن المبارك /مُحَمَّد علي حمد الله: دار الفكر — دمشق، ط٦ - ١٩٨٥.

١٩٦. **المفردات في غريب القرآن**: أبو القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ، ت: صفوان عدنان الداودي: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت ط١- ١٤١٢هـ.

١٩٧. **مفهوم السنن الربانية**: د. رمضان خميس زكي، مكتبة الشروق الدولية، ط: ١، ١٤٢٧- ٢٠٠٦م.

١٩٨. **مقال بعنوان التعليم العسكري ومبادئ الحرب**: العميد عيسى بن ابراهيم الرشيد، مجلة كلية الملك خالد العسكرية، عدد٧١/١-١٢-٢٠٠٢م.

١٩٩. **مقدمة ابن خلدون**: ط٥، بيروت- دار القلم. ١٩٨٤.

٢٠٠. **من روائع حضارتنا**: لمصطفى السباعي، دار الوراق، ط: ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٠١. **من معين التربية الإسلامية**: منير مُحَمَّد الغضبان، مكتبة المنار الأردن، ط: ٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٨٢م.

٢٠٢. **المنهاج شرح النووي على مسلم**: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي — بيروت، ط: ٢، ١٣٩٢هـ.

٢٠٣. **منهج الإسلام في تزكية النفس**: د. أنس أحمد كرزون، ط ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان.

٢٠٤. **الموسوعة القرآنية خصائص السور**: جعفر شرف الدين، ت: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٠هـ.

٢٠٥. **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ**: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، ط: ٤.

٢٠٦. **النظام السياسي في الإسلام**: مُحَمَّد عبد القادر أبو فارس، ١٩٨٠م.

٢٠٧. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٢٠٨. **النفس في القرآن**: أحمد عمر هاشم، دار الفيصل، ١٩٩٦.

٢٠٩. **النفس المطمئنة**: د. سيد مرسي، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٨٣م.

٢١٠. **النكت والعيون = تفسير الماوردي**: أبو الحسن علي بن مُحَمَّد البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، ت: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم: دار الكتب العلمية – بيروت/ لبنان.

٢١١. **نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين**: د. آمال صادق، د. فؤاد أبو حطب، مكتبة الأنجلو المصرية ط: ٤، عام ١٩٩٩.

٢١٢. **النهاية في غريب الحديث والأثر**: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) ت: طاهر أحمد الزاوي -محمود مُحَمَّد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

٢١٣. **نيل الأوطار**: مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ت: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، ط: ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢١٤. **الهجرة في القرآن**: أحزمي جزولي، مكتبة الرشد، ١٩٩٦.

٢١٥. **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه**: أبو مُحَمَّد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، ت: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، ط: ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

٢١٦. **هذه أخلاقنا**: محمود الخزندار، دار الغرباء، ط: ٢، ١٤٣٦.

٢١٧. **الوجوه والنظائر**: أبوهلال الحسن العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، ت: مُحَمَّد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م ١٨٧/١.

٢١٨. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: أبو العباس شمس الدين أحمد بن مُحَمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، ت: إحسان عباس، دار صادر – بيروت.

٢١٩. **الوهن في القرآن**: عبد المجيد مُحَمَّد علي الغيلي، موقع رحى الحروف، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م.

فهرس الموضوعات

Human weakness in the Holy Quran, reasons and remedies

(objective study)

Researcher: Shadi Ahmad Hallak
Supervisor: Dr. Ramadan Hamis Al-Ghraib

This scientific study talks about how the Holy Quran deals with human weakness, and the topic of the thesis is worthy of research and study, especially since weakness is one of the inherent characteristics of humans.

In his research on this topic, the researcher relied on the inductive approach, whereby the researcher collected Qur'anic verses related to the topic of weakness in order to identify the main lines related to the topic by looking at the derivations of the word "weakness", and tracing its contexts and analogues, and then studying this research thoroughly through knowing the types of weakness, its causes and manifestations, then its treatments in the Holy Quran.

This scientific thesis consists of an introduction, five chapters and a conclusion:

The introduction has talked about the reason for choosing the topic, the aims and purpose of the research, and the methodology used in the research.

In the first chapter, I dealt with the concept of human weakness in the Holy Qur'an, its derivations, contexts and analogues.

As for the second chapter, I dealt with the types of human weakness in the Holy Qur'an at the individual and group level.

As for the third chapter, I dealt with the causes of human weakness through the Holy Qur'an. The chapter was divided into two sections. The first section deals with the internal causes, and the other study deals with the external causes.

As for the fourth chapter, I dealt with the manifestations of human weakness in the Holy Qur'an. This chapter came in three topics that weakness. dealt in the first section with the manifestations of Innate

As for the second topic, it dealt with the manifestations of human weakness in the face of dutys and temptations. As for the third topic, it dealt with the manifestations of weakness in front of great events.

As for the fifth chapter: I mentioned the Qur'an methodology for treating human weakness, and this chapter was divided into five sections:

In the first section I mentioned heart treatments, then shri' treatments were mentioned in the second section, then I dealt with social treatments in the third section, and the fourth section mentioned treatment with rituals, and the fifth section mentioned general remedies.

The researcher concluded his research with a conclusion that included a set of findings and recommendations. This research included two indexes, an index of sources and references and an index of topics.

This research also included a summary of the thesis in Arabic and English.

God is the Grantor and the

Guide